nesemat.com

نسمات

للدراسات الاجتماعية والحضارية

الخدمة.. دعوة إلى الحوار والتعايش

هدى درويش

الخدمة نموذج عالمي للتعليم والحوار

إيان ج. ويليامز

التلال الزمردية.. مقاربة معاصرة لفهم التصوف

أنس أركنه

نسمات 9

دار الانبعاث للنشر والتوزيع

9
الإصدارة التاسعة
مارس 2020

محتويات

التركيبة الفريدة / نسمات 1

رؤى الحوار والتسامح قراءات في المدخلين الفكري والعملي عند فتح الله كولن / محمد جكيب 2

الخدمة نموذج عالمي للتعليم والحوار / إيان ج. ويليامز 20

التلال الزمردية مقاربة معاصرة لفهم التصوف / أنس أركنه 35

حوارات حضارية بين رواد التجديد / محمد يس 56

جولة فكرية
حول المشروع الإصلاحي للأستاذ كولن / يحيى سلام 63

الخدمة دعوة إلى الحوار والتعايش / هدى درويش..... 78

النور الخالد
منهجية جديدة لفهم السيرة النبوية /جمال السفرتي..... 87

قراءة في تقرير «تركيا من ديمقراطية واعدة إلى دولة مافيوية» / منى سليمان 102

تركيا محرقة الكتب ومقبرة دور النشر / نسمات..... 114

www.nesemat.com
facebook.com/nesematstudies
nesemat@yahoo.com
twitter.com/nesemat_com

التركيبة الفريدة*

التركيبة التي تقدمها حركة الخدمة فريدة من نوعها، فهي تسعى إلى تطوير حياة الناس من خلال التعليم والحوار، فالأفكار التي تقدمها الخدمة تسعى إلى تحفيز الفرد والمجتمع نحو مفهوم الإنسان الكامل، وهذا المفهوم لا يمكن أن يتحقق إلا في مجتمع حر وعادل. ومن الممكن أن تسهم هذه الأفكار في تقوية المجتمعات لما لها من معقولية تستمدها من القراءة الدقيقة للواقع المعاصر، وموثوقية تعتمد فيها على المصادر الراسخة.

فالطريق إلى العدالة مرصوف بالتعليم العالمي الجيد، وهذا وحده ما يمنح الناس الفرصة لتحقيق قيم الحوار والتسامح الكافيين لاحترام حقوق الآخرين، تلك القيم التي تنبع من استيعاب رائدها الأستاذ كولن للمنظومة الأخلاقية المتكاملة، المتمثلة في القرآن الكريم، وفي سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه رضي الله عنهم، ومن ثم صارت من صُلب الممارسات التطبيقية التي تقوم بها الخدمة وتسير عليها منذ عقود، فهي ليست شعارات أيدلوجية يُحتفل بها، وليست مجرد دعاية بل هي من صميم الرؤية الفكرية للمشروع كله.

ولا شك أن للجانب الروحي دوره الذي لا ينكر في نسج هذه الرؤية الفكرية، وتنزيلاتها الواقعية التي طبقها الأستاذ كولن بنفسه، أو استلهمها منه محبوه والمقتنعون بفكره، حيث حولوا تلك الرؤية إلى سلوك ممنهج قائم على المبادرة في صورة مشاريع ومؤسسات وفعاليات حية في أغلب أقطار الأرض. ومن ثم تأتي رحلة الأستاذ كولن مع كتابه التلال الزمردية -بأجزائه الأربعة التي ترجم منها إلى العربية حتى الآن جزءان- لتشكل نوعًا من الدفينة والحصن ضد النزعات المادية المتغولة والعقلانية المتطرفة التي تهدد النفس الإسلامية، وتلفت الانتباه إلى التجربة المعنوية والمعرفة العميقة للتقاليد الإسلامية، وتتصدى للفهم الشكلي الفظ الجاف لمبادئ الإسلام وتصوراته، وتجذب المرابطين على ثغور الإنسانية إلى هدفهم المتمثل في الوجود من جديد، في زمن يمكن فيه للمشاغل الدنيوية والمادية أن تستحوذ على اهتماماتهم الفكرية والعقلية والقلبية.

وإذا كانت الحركية التجديدية في أوائل القرن المنصرم قد استفرغت جل طاقتها في تحرير الأوطان من براثن الاستعمار، فإن حركية الخدمة قائمة في تجديدها على تحرير الإنسان نفسه من أصفاد الاحتلال الفكري، وقيود التبعية الثقافية، وإعادة بنائه من جديد بحيث يكون مؤهلاً لمواجهة الانسحاق تحت التيارات الوافدة الجارفة، وهذا النوع من التجديد هو ما تمليه ضرورة العصر الذي نعيش فيه، وتتطلبه طبيعة التحدي الذي يواجهه هذا الإنسان، فالإنسان نفسه هو مصدر المشاكل وهو نفسه مصدر الحلول.

إذن فالتركيبة الفريدة التي تشتمل عليها الخدمة تتكون من عناصر متعددة تتداخل مع بعضها لتشكل نسيجا من طابع خاص يتمحور حول الإنسان ويعيد صياغته من جديد ليكون صالحًا في نفسه ونافعًا لأمته، ومحتضنًا لأبناء جنسه، بل وللكائنات كلها. ولتنوع عناصر هذه التركيبة تعددت الدراسات الأكاديمية التي تبحث فيها شرقًا وغربًا، محاولة البحث عن مكمن الخصوصية فيها، ونواحي الإيجابية لديها، فمنهم من رأى أنها تتميز بتقديم البدائل وعدم الانشغال بانتقاد النواقص، إيمانًا منها بأن إضافة طريق جديد أجدى من المزاحمة على الطرق القديمة، ومنهم من ركز على الجانب التطبيقي الذي شخص كل أفكار التجديد، وجعل منها حركة تبني نماذجها من ذاتها، ومنهم من اهتدى إلى أن السر هو القدرة على إحياء عصر السعادة بما يتلاءم مع روح العصر الذي نعيش فيه بلا استقطاب ولا تقوقع.

ولا يزال حديث المحنة يتجدد فالأفكار تحارب وتتعرض الأسفار التي تحملها إلى أكبر محرقة في التاريخ الحديث، وحاملو هذه الأفكار لا يأمنون في أوطانهم ولا في، منافيهم حيث يتعرضون للاختطاف والتنكيل، ثم للسجن والتعذيب دون أي ذنب أو جريرة سوى سعيهم لتبليغ هذه الرسالة في كل مكان تشرق عليه الشمس أو تغرب، والله وحده المستعان. ■

* بقلم: صابر عبد الفتاح المشرفي

رؤى الحوار والتسامح

قراءات في المدخلين الفكري والعملي عند فتح الله كولن

محمد جكيب

أستاذ بجامعة شعيب الدكالي بالمغرب، حصل على دكتوراه الدولة في الآداب سنة ٢٠٠٢م. عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية منذ سنة ١٩٩٤م. عضو مؤسس لمنتدى الحوار الأدبي. مؤلف كتاب "أشواق النهضة والانبعاث قراءة في مشروع الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحي".
شارك في عديد من المؤتمرات والندوات المحلية والدولية داخل المغرب وخارجه.

منذ عقود وحركة الخدمة التي تسترشد برؤية المفكر التركي فتح الله كولن وهي تقدم نموذجًا جديرًا بالدراسة والتحليل في مجال الحوار والتسامح والتعايش، حيث تسعى إلى اقتراح حلول لأزمة الإنسان في الوقت الراهن وفي المستقبل، فهل يمكن لهذه الحركة ولخلفيتها الفكرية أن تكون مرشدا لفك التوتر الذي يعرفه الواقع الإنساني في الوقت الواهن؟

هذا ما تحاول الدراسة التي بين أيدينا أن تبرزه، حيث يتركز البحث في المدخل الأول على تحليل مكونات الرؤية الفكرية التي تنبني عليها رؤية فتح الله، وأما المدخل الثاني فسيعمل على النظر في الجانب العملي من خلال مجموعة من التجارب العملية التي تسجل حضورا بارزا في مجال تصحيح الرؤية وربط جسور رأب الصدع.

أما قبل

أعرفت الأحداث الجسام وشدائد الواقع، التي يمر منها العالم كله وتمر منها الإنسانية، بعض المفاهيم إلى الواجهة بالقوة، كمفهوم "الحوار" والمفاهيم الأخرى المرتبطة به كمفهوم التسامح والتعايش، وغيرها من المفاهيم الأخرى المؤثثة لهذا الحقل الدلالي. ورغم ذلك كله فإن الكثير من الغموض يعتري هذا المفهوم بفعل التفسيرات المختلفة التي تؤوّله وتفسره، وبسبب سيطرة الأيديولوجيات على هذه التفسيرات والتأويلات، حتى أصبح من الصعب لمس جوهره باعتباره قيمة أخلاقية سامية مساعدة على تجاوز أزمات الإنسان الوجودية ومختلف الصعوبات، التي تهدد كيانه في عالم اليوم.

وفي ظل تعدد التوصيفات الأيديولوجية للمفهوم صار من الصعب تأطيره معرفيا ووضع حد له. إن المفاهيم باعتبارها تصورات ذهنية تسبق التلفظ وتسبق الاصطلاح، وهي متأثرة بمجريات الواقع وتحولاته، الأمر الذي يبعدها عن جوهرها الأخلاقي، الذي يشكل الوقوف عليه مفتاحًا لحل أهم مشكلات الواقع الإنساني وأزماته، وخاصة في الوقت الراهن.

إن المأزق الذي تعيشه الإنسانية اليوم يفرض على كل فرد من أفراد المجتمع الإنساني استحضار جوهر مفهوم "الحوار"، وكل المفاهيم الأخرى التي تعززه وتضع دلالته الحركية أو العملية المتمثلة في التسامح والتعايش والمفاهيم الأخرى التي تصب في هذا الحقل الواسع.

أما بعد

في ظل هذه الصورة التي قد تبدو قاتمة، لا يخلو الواقع من علامات مضيئة تبدد العتمة السائدة، وتبدد شعور اليأس الذي قد يتسرب إلى كل مهتم، وغني عن البيان أن هذه العلامات المضيئة لا تشتغل بالشعارات ولا تبحث عن الصفوف الأمامية، ولا عن بطولة وهمية سريعة لا تلبث أن تتبدد عندما تنتهي الحاجة العابرة إليها، أي عندما تنتهي الحاجة إلى توظيف مفاهيم "الحوار" و"التسامح" و"التعايش". ولا مجازفة كذلك إذا تقرر بأن هذه العلامات هي أمل الإنسانية في المستقبل المتوسط والبعيد، وهي الأمل الذي سيبحث عنه من يعنيه الأمر، ومن يتطلع إلى جوهر الأشياء، في ظل بقاء الجوهر واستمرار حقيقته، وشتان بين الجوهر والقشور.

إن أهم مؤشر ينبغي الانتباه إليه هو مؤشر تميز المواقف وثباتها وعدم انحرافها عن المبدأ/المبادئ المعلنة. هذا التميز يؤكد بدوره بأنه صادر من رؤية عميقة الجذور، الأمر الذي ينبغي أن يكون منبعه عمقًا رؤيويًا وفكريًا ومتانة الوعي الثقافي ورسوخه، مع وضوح الخلفية الفكرية وجلاء مصدرها المركزي، زيادة على قوة منهاج التفاعل والتفعيل، وزيادة كذلك على ما أنجز من تراكمات عملية، فرضت نفسها على مجال البحث المعرفي من خلال ما أنتج من بحوث فكرية واجتماعية وتاريخية وأدبية وإعلامية، وغيرها، والتي تناولت المنجز بالدرس

لا يخلو الواقع من علامات مضيئة تبدد العتمة السائدة، وتبدد شعور اليأس الذي قد يتسرب إلى كل مهتم؛ هذه العلامات هي أمل الإنسانية في المستقبل المتوسط والبعيد.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

والتحليل واهتمت بتلك الظاهرة الفكرية الحركية الاجتماعية، ويكاد الجميع يجمعون على تميزها بنضج مواقفها، وتفردها بطبيعة الحلول التي اقترحتها ووفقت في تنزيلها وإنجازها.

فهل تبرز رؤية المفكر التركي فتح الله كولن، وتجربة الخدمة باعتبارها الحركة التي ظلت لعقود تسترشد بتوجيهاته، علامة بارزة تستطيع اقتراح حلول لأزمة الإنسان في الوقت الراهن وفي المستقبل، وخاصة في باب الحوار والتسامح والتعايش، عندما تصفو السماء ويتبدد الضباب الكثيف. بعبارة أخرى هل يمكن اعتبار تجربة هذا المفكر الحركي نموذجًا جديرًا بالدراسة والتحليل في مجال الحوار والتسامح والتعايش؟ وهل يمكن لهذه التجربة ولخلفيتها الفكرية أن تكون مرشدًا لفك التوتر الذي يعرفه الواقع الإنساني في الوقت الواهن؟

إذا كان الجواب بالإيجاب فإن شروط المقاربة ستفرض تحليل هذه الظاهرة من خلال مدخلين المدخل الأول فكري والمدخل الثاني مدخل عملي، وسيتركز البحث في المدخل الأول على تحليل مكونات الرؤية الفكرة التي تنبني عليها رؤية فتح الله، مع التركيز على مصادر هذه الرؤية ومقوماتها وأسسها، وتبين منهج تبليغها، وأشكال التعبير عنها فكريًّا، وأما المدخل الثاني فسيعمل على النظر في الجانب العملي من خلال مجموعة من التجارب العملية التي تسجل حضورًا بارزًا في مجال تصحيح الرؤية وربط جسور رأب الصدع وفك التوتر.

عالم ومفكر حاضر التأثير

تنطلق الدراسة من اقتناع مبدئي بأن فتح الله كولن هو أحد أهم مفكري الإسلام المعاصر وعلمائه، ومن أكثرهم إيمانًا بقيم الحوار والتسامح سبيلاً لتجاوز الاختلافات، وسبيلاً من سبل حل مشكلات العالم المتسمة بالتركيب والتعقيد، ويكاد يكون المفكر الإسلامي الوحيد، الذي لم يظل حبيس رؤيته النظرية ورهين دعوة حالمة مفصولة عن الواقع وعاجزة عن إيجاد طريقها إلى التنزيل، فميزة تراثه المكتوب والمنطوق والمنجز هي عدم الفصل بين الرؤية والفعل، أو بين "الفكر والحركية" بحسب لغته الاصطلاحية الرائجة في تراثه المترجم إلى العربية إذا وظفنا المفهوم الرائج في هذا التراث.

وفي مجال الحوار لم تبق دعوته حبيسة رؤية نظرية، لقد حول اقتناعاته إلى مبادرات عملية، وحوَّل رؤيته تلك إلى فعل من خلال الأعمال التي قام بها هو شخصيًّا، أو المشاريع والتصرفات والأفعال التي أوحى بها لمحبيه وللمقتنعين بفكره نظرًا لأهمية تلك المشاريع، والتي قدم النصح والتوجيه والإشراف الشخصي على بعضها، وبعبارة أخرى لقد تمكن فتح الله كولن من تحويل رؤيته الفكرية إلى

سلوك ممنهج قائم على المبادرة، وأفكاره في مجال الحوار والتعايش والتسامح مجال يؤكد هذا التوجه. ولا مجانبة للصواب إذا تقرر بأن الفكر والحركية هما وجهان لعملة واحدة، إلى درجة قد يتهيأ للمتأمل في أن منهج الرجل يقوم على المبادرة أولاً ثم التنظير وفلسفة المبادرة ثانيًا.

لا للتطرف، ونعم للاعتدال والحوار

لقد كانت التصريحات والمقابلات الصحفية، التي أدلى بها فتح الله كولن لمختلف وسائل الإعلام العالمية كافية لترسل رسائل قوية للعالم بأن الصراع الذي يراد جره وحركته إليه لا أثر له في اقتناعاته الفكرية ولا في منهاجه الحركي.

المواقف التي وقف عليها عدد من المفكرين والباحثين والشخصيات الفكرية من العالم كله والمتصلة بحقيقة مواقفه ورؤاه بخصوص العنف والإرهاب والحوار والتسامح والتعايش، قد تأكدت بمواقف فتح الله كولن في ظل الأزمة والحملة العنيفة التي تعرض لها.

إنني اعتبر فتح الله كولن رجل حوار وداعيًا إلى التسامح والتعايش منذ عقود، من خلال رؤيته الفكرية التي ظل ينادي بها سبيلاً لحل كل المشكلات ولتجاوز كل الخلافات والاختلافات، من خلال الإلحاح على ضرورة التركيز على المساحات المشتركة وتثمينها ابتغاء الصالح العام. ولعل هذا الأمر من بين أهم الأسباب التي رجحت اختياره أهم شخصية فكرية مؤثرة في وقت سالف، وهو أمر يرجع إلى اجتهاده

إنني اعتبر فتح الله كولن رجل حوار وداعيًا إلى التسامح والتعايش منذ عقود، من خلال رؤيته الفكرية التي ظل ينادي بها سبيلاً لحل كل المشكلات ولتجاوز كل الخلافات والاختلافات.

nesemat.com نسمات nesemat.com

العملي القوي في مجال الحوار ونشر قيم التسامح والتعايش، والدفاع عن ذلك في مختلف المحافل ومن خلال عدد كبير من المشاريع التي تخدم ذلك.

أصالة جذور الحوار والتسامح

قيم الحوار والتسامح بالنسبة لفتح الله كولن، ليست شعارات أيديولوجية يحتفل بها، وليست مجرد دعاية، بل هي جزء من رؤيته الفكرية، ونابعة من التزامه الديني، ومن استيعابه للمنظومة الأخلاقية المتكاملة المتمثلة في القرآن الكريم وفي سيرة النبي محمد ﷺ وسيرة أصحابه ﷺ، ولذلك صارت جزءًا من شخصيته، التي بلورتها مصادره الأصيلة[1]، فلا غرو أن تكون ممارسة الحوار والدعوة إلى التسامح والتعايش من صلب المنهاج الحركي الذي صار عليه طيلة عقود عديدة وإلى اليوم.

وبعبارة أخرى إنه من اللازم عدم فصل عموم رؤيته الفكرية عن الجانب الداعي إلى الحوار والتسامح والتعايش باعتبار ذلك مؤشرًا من المؤشرات الدالة على عمق القيم الأخلاقية التي ظل حياته كلها متمثلاً ومبلغًا لها ومنبهًا الناس إلى أهميتها بالحكمة والموعظة الحسنة، في دائرة الإسلام الوسطي المعتدل، البعيد عن التطرف والتزمت والعنف، وقد كان منهجه

nesemat.com نسمات nesemat.com

لقد وجد كولن في روحانية جلال الدين الرومي مجالاً خصبا للاستمداد، ومعينًا لبلورة رؤية راقية تتسم بالإبداع والتجديد في مجال الحوار والتسامح.

منهجًا موفقًا في نقل حقيقة الإسلام إلى آفاق بعيدة جدًا، وموفقًا في تحقيق سعادة الإنسان على امتداد الجغرافية، التي تواصل معها ووصلت إليها أفكاره.

مساهمة أبطال الروح في رؤى التسامح

لقد وجد كولن في روحانية جلال الدين الرومي مجالاً خصبًا للاستمداد، ومعينًا لبلورة رؤية راقية تتسم بالإبداع والتجديد في مجال الحوار والتسامح، وكما استمد من الرومي استمد كذلك من بديع الزمان النورسي، وخاصة فيما يمكن اعتباره محاورة فكرية للحضارة الغربية، فقد كان النورسي مهتمًا جدًا بالغرب وثقافته، وجعل قضية الحوار مع الغرب المسيحي ضمن أولوياته المنهجية والإصلاحية، وكان الحوار الإسلامي المسيحي أحد أهم القضايا التي اهتم بها النورسي في أدبياته في الرسائل[٢].

يحتل جلال الدين الرومي مكانة خاصة في رؤية فتح الله كولن، لأنه كان مُعِيناً له على صياغة رؤيته المتصلة بالنظرة الإيجابية للإنسان باعتباره مخلوقًا من مخلوقات الله تبارك وتعالى، لقد تشكلت عند فتح الله كولن بالاستفادة من هذه المصادر رؤية خاصة للحوار والتسامح والتعايش، على أساس الاتصال المباشر بالقرآن الكريم واستيعابه العميق لجل التراث المفسر له، بالإضافة إلى ما قدمته السنة النبوية، والسيرة النبوية وسيرة الصحابة الكرام، وعلى أساس الفهم العميق لهذه المصادر كلها وسداده في توظيف قيمها التوظيف المناسب، وبعبارة أخرى لقد تعززت مصادر فتح الله كولن الأصلية بما قدمه مولانا جلال الدين الرومي للإنسانية كلها من تراث غني لا ينكره إلا جاحد.

حظيت روحانية جلال الدين الرومي باهتمام الغرب، ويرجع ذلك إلى منهجه الذي يقوم على التسامح وقبول كل من اتجه إليه طلبًا للسكينة الروحية، دون التركيز على الدين أو العقيدة، واعتبر جلال الدين الرومي بهذه الطريقة فاتحًا للقلوب وطبيبًا عارفًا بأسقام النفوس والأرواح، فنجح في إرشاد كل من أقبل عليه إلى الترياق المناسب لقلبه وروحه.

استفاد فتح الله كولن من هذا المتصوف الذي أدرك حقيقة عصره، وحافظ على قدمه الأولى ثابتة على محورها، وتجول بالأخرى في عوالم متعددة باعتبارها عوالم إلهية لا حصر لها ترشد إليه وتدل عليه. اعتبر فتح الله كولن جلال الدين الرومي شخصية فذة حملت الدواء لفترة عصيبة مر بها العالم الإسلامي، وتمكن بفضل علمه وإدراكه العميق للوثيات عصره من أن يجد الوصفة المناسبة لتجاوز الأزمة الوجودية، التي كانت تمر منها الإنسانية، يقول فتح الله كولن متحدثًا بروح مفعمة بالاحترام والتقدير لهذا العلم العظيم كما يطلق عليه:

".. لقد كان جلال الدين الرومي واحدًا من هذه الشخصيات الشامخة في هذا الأفق. فقد نشرت هذه

الشخصيات العظيمة النور على الإنسانية فأنارتها، وتأملت عصرها ودرسته وحللته، وحصرت همتها على القضايا التي كان الناس في حاجة ملحة إليها.

أجل، لقد أعرض هؤلاء العظام عن جمع المعلومات السابقة وتدوينها في كتب، وشرعوا بدلاً من ذلك في تدبر العلاقة بين (الإنسان ـ الكون ـ الله)، فأحسنوا تقييمها، وقدموا الخطب والمواعظ التي تتماشى مع ظروف عصرهم، وحرروا مؤلفات قيمة بلغ صداها ما وراء العصور.. ومن ثم فلا بد من تناول مولانا جلال الدين الرومي من حيث هذه الخصائص أولاً؛ الحلول التي أتى بها كانت بمثابة ترياق للسموم والآثار السلبية التي راجت في عصره، وإكسير يداوي حتى أعتى الأمراض المستعصية"[٣].

وقد بلغ من اهتمام كولن بجلال الدين الرومي أن اعتبر احتضان جلال الدين الرومي للجميع بعمق وسماحة، وعظيم تساهله واجتهاده في جعل نفسه إكسيرًا للتخلص من آثار الواقع المفعم بالفوضى والفتنة والفرقة قد "هيأ أرضًا جديدة قابلة للنماء من أجل أمتنا التي فاق ممثلوها الجميع بفضل قيمهم الإسلامية وأفقهم الواسع ذي السماحة والتساهل"[٤].

أهم ما يسترعي اهتمام كولن في شخصية الرومي هو تلك الشحنة التي شحن بها عصره، فكانت سببًا من أسباب نجاح المجتمع في بناء دولته على التسامح والتساهل والتعايش وعلى الرحمة والشفقة، وهو يعتبر هذه القيم أحد أهم العناصر التي أسهمت في استمرارها طيلة ستة

نسيمات nesemat.com

إن الفكر والحركية لدى كولن هما وجهان لعملة واحدة، إلى درجة قد يتهيأ للمتأمل في أن منهج الرجل يقوم على المبادرة أولاً ثم التنظير وفلسفة المبادرة ثانيًا.

قرون وزيادة، وطبعت فترتها بحضور حضاري مميز أساسه التسامح والتعايش مع الآخر والمخالف في الدين والعقيدة، ويرد كولن تلك الإسهامات التي قدمها رجالات التصوف والدراويش مثل جلال الدين الرومي، ولذلك نجده مدافعًا صادقًا عن صدق التزام الرومي بالمصادر الأصلية ومنوهًا بروحانية جلال الدين الرومي بالنظر إلى ما حملته هذه الروحانية من قيم إنسانية سامية احتضنت الجميع، بل لقد شكل الرومي ملاذًا واسعًا لكل باحث عن الاطمئنان الروحي، وتمكن فعلاً من احتضان الجميع، ولعل هذه الخاصية هي التي تثير اهتمام كولن في شخصية الرومي، أو بالأحرى إن ما يثيره فعلاً هو عمقه الروحي أو كما يطلق عليه "روح الرومي"[٥].

يمكن القول بأن كولن كان في مسيس الحاجة إلى هذه الروح دعمًا لرؤيته الخاصة في باب التسامح والحوار والتعايش، ولأنه رأى الرومي شخصية تقف في عالمها الروحاني على أساس الشريعة وعلى أساس القرآن والسنة، والالتزام بالمصدرين يقول كولن:".. دارت حول هذه الشخصية العظيمة بعض القناعات الخاطئة التي ركز أصحابها على مفهوم الشفقة والسماحة الذي كان يتعامل به مع الناس، وغضوا الطرف عن عبادته العميقة وتمسكه بالكتاب والسنة"

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن الانفتاح الذي أبداه جلال الدين الرومي تجاه كل من لجأ إليه واحتضانه لهم إنما هو منطلق من عمق التزام الرومي بمصادر الإسلام الرئيسة القرآن والسنة وعمق عبادته.

إن نظرة كولن للرومي تقوم على أساس كونها شخصية ذات عمق ديني وبأن التزامها بالكتاب والسنة وحرصها على الالتزام به، تؤكد بأن الانفتاح الذي أبداه جلال الدين الرومي تجاه كل من لجأ إليه من أتباع الديانات الأخرى واحتضانه لهم إنما هو منطلق من عمق التزام الرومي بمصادر الإسلام الرئيسة القرآن والسنة وعمق عبادته، ولذلك فإن تسامحه والشفقة والرحمة التي كان يبديها تجاه كل من لجأ إليه إنما هو نابع من عمق عبادته وعمق اتصاله بالقرآن والسنة.

التقط كولن عن الرومي فكرة "الحب" التي ينبغي الإقبال بها على جميع مخلوقات الله تبارك وتعالى، والإنسان مكون مركزي في دائرة المخلوقات، ومن هنا يؤكد كولن بأن شرط الحصول على صفة إنسان يقتضي إظهار المودة والمحبة للمخلوقات جميعًا، بل إن إظهار المحبة نحو كل المخلوقات من شأنه أن ينتج رقي الإنسان وسموه، وكلما ارتقى الإنسان في هذه المقامات، كان ذلك سبيلاً لتجاوز المعيقات، التي تعيق الحياة الآمنة المطمئنة.

وبكلام آخر فإن ما يثير الانتباه في رؤية الرومي عند فتح الله كولن هو كون جلال الدين الرومي تسامى عن استثمار المبادئ والعقائد الإسلامية في مراوغات سياسية، لأن حياة المؤمن "مليئة بالأسرار، والروح المستقيمة المتفانية هي وحدها التي تحل شيئًا من لغز الأسرار الخفية لهذه الحياة لنستفيد منها في السمو والرقي بالآخرين، ومحور فكر الرومي أن الحياة المادية لا قيمة لها في الرحلة الثقافية والروحية التي على المرء أن يجتازها في هذا العالم، فالأبعاد الروحية والثقافية للحياة الإنسانية لها أثر عميق على أي محيط اجتماعي، تعزز وتحميه المبادئ السياسية والنظريات الاقتصادية التي تغذيها آليات الدولة"[٦].

فتح الله كولن والتحولات الكبرى في تركيا

إذا كانت الظروف التاريخية التي عاش فيها الرومي فترة مليئة بالأحداث الجسام كما يوضح كولن فإن هذه الظروف تكاد توحي بأن الأحداث نفسها التي عرفها واقع جلال الدين الرومي، يعرفها واقع فتح الله كولن الراهن، ولذلك فإن الدارس ملزم بعدم إهمال التحول الذي عرفه المجتمع التركي بكل مكوناته بعد إعلان الجمهورية، وخاصة التحول الكبير، الذي عاشت على إيقاعه المدن الكبرى، التي ستعرف هجرة أعداد كبيرة من سكان الأرياف والبوادي ومن الأناضول طلبًا للعمل وللعيش الكريم وطلبًا للتربية والتعليم.

اعتبر نزوح عدد كبير من سكان الأناضول قطيعة قطعت النازحين عن جذورهم الدينية والثقافية، السائدة في الأرياف، وهي جذور ثقافية إسلامية في المقام الأول بالنظر إلى الطابع المحافظ، الذي ظلت تتميز به منطقة الأناضول.

ساعدت هذه الوضعية الحركات المختلفة وضمنها الحركات ذات التوجه الإسلامي على استغلال هذا النزوح من أجل نشر أفكارها وتوسيع دائرة الأتباع والمناصرين، وقد يكون كولن من هؤلاء العلماء الذي حولوا هذا الوضع إلى فرصة إيجابية، بل وحولوا الطاقة الكامنة في هذه الشريحة الاجتماعية وغيرها إلى مصدر لجلب مصلحة عامة تعود بالفضل على المجتمع كله، وقد تميز كولن وسط عدد من العلماء والوعاظ بمقدرة كبيرة على فهم حاجات المجتمع التركي الحيوية والضرورية والماسة في راهاناته قبل أربعين سنة خلت، وكان عليه في ظل ذلك العمل ربط المجتمع كله وربط شريحة واسعة منه بقيم الجمهورية وتحويل طاقة المجتمع كله إلى مكون إيجابي يعود بالنفع على الجمهورية وقيمها.

بعبارة أخرى لقد اتجه اهتمام فتح الله كولن إلى العمل على ربط الشرائح الاجتماعية المختلفة وخاصة تلك التي نزحت من الأرياف ومن الأناضول نحو المدن بالهوية الثقافية للأمة التركية في إطار يخدم نظام الجمهورية التركية، وفي إطار لا يتصادم ومبادئ الكمالية، ويعد المجتمع في الوقت نفسه للمستقبل وللتحولات الكبرى التي كانت تلوح في الأفق سياسيًّا واقتصاديًّا ودوليًّا، بصورة تضمن الأمن والاستقرار والديمقراطية والرفاهية الاجتماعية والاقتصادية[٧].

بل إن الشحنة التي ركز كولن على بثها في المجتمع هي شحنة خلق الرابط/الروابط بين التحول الذي كان يدفع تركيا إلى اقتصاد السوق وإلى

ما يثير الانتباه في رؤية الرومي عند فتح الله كولن هو كون جلال الدين الرومي تسامى عن استثمار المبادئ والعقائد الإسلامية في مراوغات سياسية.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الرأسمالية والمساهمة في كل ذلك بل والمشاركة فيه بفعالية كبيرة، لكن مع تكييفه بحكمة وذكاء لكي لا تناقض تقاليد الإنسان الأناضولي، التي ترجع في العمق إلى قيم الإسلام الأصيل، الذي أسهم فيه البعد الروحي إسهامًا كبيرًا جدًّا، زيادة على ضرورة الالتزام بالقيم الأخلاقية التي كان يدعو إليها.

التشجيع في الاتجاه الذي حرص كولن على شحن شرائح المجتمع به وخاصة سكان المدن كان في حاجة ضرورية إلى أن يكيف، وأن يوجه توجيهًا يعود بالمنفعة على جميع أفراد المجتمع وخاصة الفئات التي لا تستطيع الإسهام في تراكم الثروة ولا في خلقها وإيجادها، لكنها تتوفر على قوة سواعدها وعلى همتها ورغبتها في إثبات وجودها، وعلى ثروة معنوية تستطيع خدمة مجتمعها ووطنها من خلال طاقتها الكامنة، إذا ما أتيحت لها الفرصة للقيام بما يلزم وللقيام بواجبها الثقافي والوطني.

ولذلك نجد كولن يتوجه نحو إحياء نظام الوقف الذي كان سائدًا خلال الدولة العثمانية، لكن مع تعديله بصورة تتناسب والتحولات التي عرفتها الجمهورية التركية، لقد أعاد كولن إحياء ثقافة التطوع والوقف وجدد في أساليبها وأشكالها عمليًّا ومعنويًّا، وأعطاها أبعادًا أخرى تتلاءم والمجتمع

لقد أعاد كولن إحياء ثقافة التطوع والوقف وجدد في أساليبها وأشكالها عمليًّا ومعنويًّا، وأعطاها أبعادًا أخرى تتلاءم والمجتمع العصري.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

العصري الذي تحولت إليه تركيا. وليس مبالغة إذا تقرر بأن الوقف هو أهم مجالات التجديد التي جدد كولن في أشكالها وأبعادها الفكرية والثقافية[٨].

الدعوة إلى العقل والحكمة لإرساء التوافق

يعتبر كولن نبذ الخلاف ضرورة ملحة من أجل المصلحة العامة، لأنه يعتقد بأن الفرقة والتنازع حاجز يمنع الاستقرار، الذي هو ضرورة حيوية لكل حركية إيجابية، ولكل مشروع يتوخى الرقي بالمجتمع وكل ذلك لا يتأتى إلا في ظل الشعور بالاستقرار.

ولتجاوز الاختلاف والفرقة والتنازع يقترح كولن شرطًا محوريًّا وجوهريًّا وهو ضرورة الرجوع إلى العقل وتحكيمه، لأن صمام القيادة إذا أسند -كما يعتقد- إلى المشاعر والأحاسيس وإلى العاطفة أدي إلى تحكم الأنانية وتوطين التعصب، والتعصب يجر المجتمع كله إلى الصراع والخصومة، ولذلك وجب تحكيم المنطق، والرجوع إلى العقل لتجاوز الاختلافات، فالموازنة العقلية والمحاكمة المنطقية للأحوال والأوضاع مؤداها التقاء كل مكونات المجتمع حول الحوار والعقل وصولاً إلى أرضية مشتركة من شأنه قطع داء التعصب والأنانية والتمركز حول الذات والتحكم في الناس والتسلط عليهم.

يؤكد الأستاذ فتح الله كولن أن بروز الاختلاف والتنازع واستحكام الفرقة يرجع في جذوره إلى فقر البنية العلمية والفكرية، وإلى فقر الحياة الروحية والقلبية إلى درجة الحرمان، ولذلك وجب رأب الصدع بالتفاهم "لأن التفاهم والتوافق مسألة عقلية ومنطقية، والوحدة التي تستطيع الاستمرار والبقاء هي الوحدة المبنية على العقل وعلى المنطق وعلى القلب بينما الإخاء والوحدة الموجودة حاليًا إخاء ووحدة قائمة على الأحاسيس والمشاعر في الأغلب. ومثل هذه الوحدة تكون ضعيفة وناقصة وغير كافية وقصيرة العمر. وهي عبارة عادة عن تجمعات ضد مجموعة معينة، أو اجتماع ولدته مشاعر الانتقام، أو اتفاق من أجل هجوم أو لصد هجوم... مثل هذه التجمعات القائمة على أساس من أحاسيس ومشاعر فوارة ليست إلاّ تموجات وحركات وقتية سرعان ما تزول، وهي بعيدة من أن تكون كافية لا من الناحية الكمية ولا من الناحية النوعية لبلد ولأمة محاطة بالأعداء من جميع الجهات، أما من زاوية مبادئنا المقدسة فبعيدة جدًا عن التصويب أو التجويز كما لا تعني شيئًا بالنسبة لمستقبل أمتنا"[٩].

يمثل هذا التحليل قراءة دقيقة لواقع ملموس ومحدد، وتحليلاً دقيقًا لأسباب غياب الاستقرار وسيادة التنازع، وهذا التحليل وإن كان تشريحًا لوضعية مرضية مزمنة، يلمح ضمنًا إلى المنهجية الكفيلة بإخراج المجتمع إلى بر الأمان والاستقرار.

القضية في هذا المقام ليست فكرية فحسب، بل هي قضية منهجية، فالاحتكام إلى العقل وضوابطه

من شأنه أخذ كل من يعنيهم مطلب الحق والحقيقة إلى نبذ التنازع وتجاوزه إلى نقط التقاء، والقفز على المواقف المرتكزة على العاطفة والأحاسيس والمشاعر، ولا ينبغي فهم هذه الدعوة على أنها نبذ مطلق للعاطفة وإقصاء لها، فهي جزء من تكوين الإنسان، لكن من الملح جدًا في نظر كولن أن يتم إخضاعها للعقل، لأن المشاعر إذا استحكمت قضت على التسامح وأقصت التعايش وضيقت مساحته، خاصة في واقع يسوده التنوع والاختلاف، هذا على فرض وجود واقع أو مجتمع خال من الاختلاف والتنوع. فالوحدة التي تقوم على العقل بالنسبة لكولن هي الوحدة التي يكتب لها الاستمرار والدوام، ويتاح لها رأب الصدع، ويمكن للمتمعن توسيع إطار هذه الصورة ليشمل العالم كله والإنسانية كلها.

يستخلص كولن منطق الاختلاف من تأمله في حقيقة الوجود والكون، فاعتقاده راسخ بأن الاختلاف سنة كونية بل هو رحمة، لأن الخالق طبع مكونات هذا الوجود بالتنوع ليكون دعوة للإنسان إلى التفكر، والتأمل في مكوناته دون استثناء أي مكون، بل إن التفكر فيه واجب ديني يدعو إليه القرآن الكريم، وأكدته سيرة رسول الله ﷺ.

إلحاح الأستاذ فتح الله كولن على العقل سبيلاً لتجاوز الفرقة والتعصب، يرجع إلى عينه الفاحصة في أسباب العلة والمرض، فإذا كان الطبيب لا يصف العلاج إلا بتحديد طبيعة المرض وتشخيص العلة وأسبابها وجذورها، فكذلك يفعل فتح الله كولن يحدد السقم ويصفه بدقة كما يفعل الطبيب المجرّب

nesemat.com نسيمات nesemat.com

ليس مبالغة إذا تقرر بأن الوقف هو أهم مجالات التجديد التي جدد كولن في أشكالها وأبعادها الفكرية والثقافية.

الحاذق، لأن إدراك ذلك يسهل منهجيًا اقتراح العلاج، فالوفاق الاجتماعي كما يطلق عليه يبدأ بتنازل القلوب عن أنانيتها، وامتلائها "بحب الإنسانية وبالشهامة والمروءة. وما لم يتم الابتعاد عن الأنانية وعن عبادة النفس وإرجاع كل شيء وكل الوسائل والأهداف إلى سلطان النفس الذي هو شرك خفي والقول: إن لم يكن هذا العمل بيدي فلا أريده حتى وإن كان خيرًا ما دام يتم بيد الآخرين وليس بيدي..

إن لم يتم التخلص من مثل هذه العقلية التي ترى أن الحق فقط معها وتابع لها، والتي تكفر وتضلل وتجرم كل من لم يتبعها، وإن لم يتم تخليص القلوب من مثل هذا التعصب الأعمى فلا يمكن الوصول -حسبما أرى- إلى أي تفاهم أو اتفاق"[١٠].

هذا التنبيه يقبل أن يكون دعوة إلى "عقد اجتماعي" على أساس تنازل الأطراف المعنية بالتنازع عن الأنانية ورغبة الانتصار للذات، والاعتقاد بامتلاك ناصية الحقيقة والمعرفة، وإرغام الغير على الإذعان وإتباع ما يملى عليه، لمصلحة نكران الذات ونبذ المركزية الذاتية والتواضع واحترام الغير فكريًا ومنهجيًا.

على أساس هذا الموقف العقلاني يقوم رفض فتح الله كولن إقحام الإسلام باعتباره دينًا وباعتباره منظومة أخلاقية توجه السلوك العام للمجتمع في

يعتبر كولن نبذ الخلاف ضرورة ملحة من أجل المصلحة العامة، لأنه يعتقد بأن الفرقة والتنازع حاجز يمنع الاستقرار، الذي هو ضرورة حيوية لكل حركية إيجابية.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

دائرة الأيديولوجيا، لأن الإسلام لا يقبل أن يكون مجالاً للتوظيف السياسي، ولكنه مصدر يستمد منه المجتمع طاقة الفعل الأخلاقي الضروري لكل فعاليات الفعل المجتمعي والفعل السلوكي، الذي يقع فوق كل التصرفات بما في ذلك التصرف السياسي. وإبعاد قيم الإسلام عن التوظيف الأيديولوجي يحقق فائدتين:

الفائدة الأولى: ترجع إلى طبيعة المنظومة الأخلاقية الإسلامية نفسها، التي هي الحد الأدنى الضامن لالتزام الذات أفرادًا وجماعات بما هو واجب لضمان الاستقرار والشعور بالأمن. وبعبارة أخرى إن هذا الحد الأدنى هو الذي يقي المجتمع من أن ينزلق إلى الفساد والإفساد وإلى التطرف والظلم والاستبداد.

والفائدة الثانية: فتكمن في جوهر الأخلاق الإسلامية الملحة على احترام المخالف واحترام التنوع، والاعتراف بحقه الإنساني بداية، قبل حقه الثقافي والسياسي. على أساس أن حماية المجتمع وضمان استقراره هي مسؤولية جماعية، وليس مسؤولية عقدية ولا طائفية ولا سياسية ولا قومية ولا عرقية.

ومن أجل الاتحاد والتوافق يوجه كولن نقده لكلِّ مَنْ وضع الدين تحت الوصاية وقرر التحدث باسمه وصيًّا على المجتمع، الأمر الذي نتج عنه تعدد مصادر هذه الوصاية، فعلى الرغم من تعدد سبل خدمة المجتمع على أساس ديني، فإن هذه الوضعية دفعت بعض الجماعات إلى اعتبار زعمائها مجددين على أساس ما قدموه للمجتمع من خدمات وما قاموا به من إنجازات، وهو ما نتج عنه أزمة اختلاف حاد بَلْقَنَ المجتمع ووزعه إلى جزر وقارات متباعدة.

الدعوة إلى التوافق سبيل من سبل التجديد

التجديد بالنسبة لفتح الله كولن سنة كونية وسيظل قائمًا إلى يوم القيامة كما يقول، وكل من يقدم خدمة صالحة للمجتمع ويعمل لمصلحة مجتمعه وكل من يبث في واقعه روح الحيوية ويرفع همته يعتبر في نظره مجددًا، وكل شخص يشتهر بعلمه وعمله في عصر يموج بالفتن والعداء للدين كما يقول يعتبر مجددًا، وهذه الطينة من المجددين ممكنة الوجود في كل زمان وفي كل مكان، لكن ما لا يقبله كولن هو أن يتحول فكر المجدد وتجديده إلى مصدر للصراع والاختلاف والتنازع ومصدر لمعارضة الآخر المخالف بسوء تصرف الأتباع السذج والجهلة منهم خاصة.

وحالة التشرذم التي يرصدها كولن ناشئة في نظره عن غياب خط منهجي ناضج يقي من الوقوع في النزاع، وكأنه يؤكد بأن منهج التجديد الفعلي هو منهج التسامح والحوار وقبول الآخر، والاعتراف بأن الاختلاف رحمة وبأن التنوع سنة كونية، ومصدر خصب يغني التفاعل الفكري داخل المجتمع، ويجدد مؤهلاته وإمكاناته[11] وعلى هذا الأساس يأتي

تذكير كولن المستمر بخطر منزع الانتصار للجماعة والشيخ، وخاصة عند استغلال أعداء الخارج لهذه العلل وتوظيفها في بث روح الفرقة والتنازع بين مكونات المجتمع الواحد.

إن قضية التسامح وتجاوز أسباب الفرقة الداخلية، أي تجاوز أسباب الفرقة بين مختلف مكونات المجتمع الواحد، مسألة مصيرية بالنسبة لفتح الله كولن يتوقف على مدى استيعابها وتفعيلها في حاضر الأمة ومستقبلها وتنزيلها من مستوى النظر إلى مستوى الفعل والسلوك، ويتوقف عليه وجود الذات أو عدمه، بل هو مفترق الطرق الذي تحافظ به الذات على وجودها أو تزول[١٢].

أهمية الفرد في بناء الروح المتجددة

قَبْل كولن حاول الأستاذ النورسي إيجاد أرضية مشتركة بين الرؤية الدينية المتشبعة إلى حد بعيد بتقاليد الدولة العثمانية، ومستجدات الحياة العصرية التي فرضتها ظروف التحولات التي صاحبت مرحلة ما قبل سقوط الدولة العثمانية، ومرحلة قيام الجمهورية، ويكفي الإشارة إلى التفاعل الإيجابي الذي أبداه النورسي تجاه نظام المشروطية الذي ميز المراحل الأخيرة من حياة الدولة العثمانية لندرك طبيعة القضايا التي كانت تشغل الفكر والمجتمع آنئذ، وعلى خطى النورسي صار الأستاذ كولن لكن مع تعميق النظر في ذلك بطابع خاص أو بطابع "كولوني". ثم تحويل ذلك إلى فرصة إيجابية.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

يستخلص كولن منطق الاختلاف من تأمله في حقيقة الوجود والكون، فاعتقاده راسخ بأن الاختلاف سنة كونية وأنه رحمة، لأن الخالق طبع مكونات هذا الوجود بالتنوع ليكون دعوة للإنسان إلى التفكر.

ولقد قام النظام الجمهوري في تركيا على مرتكزات محددة وشُدّد على عدم الانحراف عنها، وجعلت سلطة القانون مظلة تظلل كافة أطياف المجتمع، وفي ضوء ذلك نحت كولن رؤيته المعتدلة والوسطية بالتركيز على الفرد، المدعو إلى وعي وجوده ووعي دوره عنصرًا فعالاً داخل هذا الوجود الصغير الذي هو تركيا الجمهورية لأن هذا الوجود الصغير جزء من مكونات الوجود الكبير الذي يجد هذا الفرد في ثقافته ما يدعوه إلى الحفاظ عليه وجعله صرحًا من صروح الارتقاء الروحي والأخلاقي، وهما أمران ركز عليها كولن في رؤيته حين اعتبر الانتماء إلى الوطن وإلى الجمهورية مسلكًا تعبديًّا.

من هنا حرص كولن في توجيهه للمجتمع وإرشاده له على ضرورة وعي الفرد دوره هذا والالتزام به، لأنه في صميم ما يحرص الدين عليه. وقد كان حرص كولن شديدًا على ضرورة التزام الفرد -باعتباره المكون الأساس في الجماعة- بكل القيم الأخلاقية التي يقوم عليها الإسلام.

من الأهمية بمكان التذكير بأن خطاب كولن الداعي إلى ضرورة التزام الفرد بقيمه الأخلاقية النابعة من دينه، خطاب يراعي كافة الشرائح

إن قضية التسامح وتجاوز أسباب الفرقة بين مختلف مكونات المجتمع الواحد مسألة مصيرية بالنسبة لكولن، وهي مفترق الطرق الذي تحافظ به الذات على وجودها أو تزول.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الاجتماعية وكافة الإثنيات الثقافية والدينية، لافتًا انتباه كافة الجماعات إلى أهمية القيم الأخلاقية التي ترقى بالأفراد باعتبار ذلك مشتركًا تنخفض فيه نسب الاختلاف.

العولمة والبعد الكوني في رؤية كولن

إن طابع "العولمة" الأهم هو مقدرتها على التسرب إلى المجتمعات دون الخضوع لأدنى رقابة، وعلى هذا الأساس فإن "العولمة" في حاجة إلى التأمل العميق، وأن ينعم فيها النظر، والحاجة ملحة إلى فتح حوار ونقاش جاد وصادق بخصوصها بين مختلف الأطراف الفاعلة داخل المجتمع الدولي، حوارًا لا يستثني الدول ولا مكونات المجتمع المدني أفرادًا وجماعات. وبكلام آخر على كل من يهتم بالظواهر الثقافية والاجتماعية، والأفكار التي اهتمت بقضية العولمة وناقشتها واقترحت منهجًا للتعامل معها خدمة لمصلحة الإنسانية ومستقبلها.. على هؤلاء جميعا تقع مسؤولية الوقوف عند هذه التجارب من أجل مقاربتها وإبراز معطياتها.

تبرز في هذا الإطار تجربة فتح الله كولن ورؤيته ظاهرة جديرة بالدرس والتحليل، وقد حظيت باهتمام عدد من الدارسين والباحثين الغربيين، الراصدين لظاهرة العولمة والتحولات الاجتماعية والثقافية الفكرية، المرافقة لها. ويجري الاهتمام بتجربة فتح الله كولن بالنظر إلى الرؤى المتقدمة جدًا، التي اقترحها و إشرافه على المنجز الذي تم تحقيقه بتوجيه منه أو بإشرافه المباشر وغير المباشر في مناطق مختلفة من العالم.

هناك سؤال قد يطرحه النقاد والمتابعون لظاهرة الخدمة هو هل اهتمام كولن بالغرب واقتناعه بضرورة فتح حوار بناء مع هذا الغرب في إطار من التسامح والحوار البناء مصدره اقتناع مبدئي في الرؤية أم هو أمر ناشئ عن انتقاله للإقامة في الغرب وخاصة في أمريكا؟

إن شمولية التصور الذي يسترشد به كولن يتأسس على اقتناع مبدئي هو وجود فهم خاطئ للإسلام بالنسبة للغرب، وهو أمر يرجع في نظر كولن إلى الذات التي توقفت عن الإسهام كما كانت في القرون الماضية في الحضارة الإنسانية، وتوقفت عن تمثيل قيمها الأخلاقية التي يمثلها الإسلام باعتباره دينًا سماويًا، وقصورها بل وعجزها في الوقت الراهن عن تبليغ حقيقة هذه القيم إلى العالم والعمل على بث روح الثقة في نفس الإنسان الغربي. ولتصحيح هذا الوضع نلاحظ بأن فتح الله كولن كان سبّاقًا إلى اقتراح رؤية واضحة من أجل مصالحة بين منظومة القيم الإسلامية والغرب، الذي يمثل التطور العلمي والديمقراطية والحداثة وحقوق الإنسان والتطور الحضاري، ومقام فتح الله كولن في الغرب[١٣] يجد

مبرره المنهجي في حرصه الشديد على تصحيح تلك النظرة السلبية التي تختزنها ذهنية الإنسان الغربي، والتي تدفعه إلى نوع من المواقف العدائية تجاه الإسلام والمسلمين، والناشئة عما تسرب من أفكار تعتبر الإسلام دينًا غير متسامح وبكونه دين عنف وتطرف.

ولقد شكلت أحداث ١١ سبتمبر المؤسفة ضربة موجعة بالنسبة لكولن لأنها كادت تقضي على كل الجهد الذي بذله باعتباره مفكرًا إسلاميًّا وعالم دين يحمل على عاتقه هم تصحيح صورة الإسلام باعتباره دين تسامح وحوار ودينًا يقبل التنوع. جاءت الأحداث لتهدم كل ما تم بناؤه في هذا المجال، ولترسخ صورة أخرى يرفضها فتح الله كولن كل الرفض لأنها لا تمت إلى حقيقة الإسلام بصلة، ولتعيد رسم صورة أخرى قاتمة هي كون الإسلام دينًا يدعو إلى الإرهاب وإلى العنف ودينًا أبعد ما يكون عن التسامح ودينًا لا يقبل التنوع، وبكونه كذلك دينًا يرفض العقل ويرفض العلم ويرتكز إلى رؤى رجعية غير منفتحة على العصر ومجرياته وغير منفتحة على الجوانب الإيجابية التي تطرحها العولمة.

وفي الوقت الذي كان فيه عدد من الشخصيات الدينية الإسلامية في العالم الإسلامي وبعض العلماء منتشين بما تم إنجازه من أثر عنيف بفعل التفجيرات دون الاهتمام بآلاف الأبرياء الذين قضوا في هذا الحدث الأليم، وفي الوقت الذي كان فيه بعض هذه الشخصيات يبحثون عن مبررات للعمل الإرهابي من خلال التصريحات في وسائل الإعلام، خرج فتح

إن خطاب كولن الداعي إلى ضرورة التزام الفرد بقيمه الأخلاقية النابعة من دينه، خطاب يراعي كافة الشرائح الاجتماعية وكافة الإثنيات الثقافية والدينية، باعتبار ذلك مشتركًا تنخفض فيه نسب الاختلاف.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الله كولن منددًا بالأحداث ومؤكدًا بأن الإرهابي لا يمكن أن يكون مسلمًا وبأن الإسلام ليس دين إرهاب، ومؤكدًا بأن استباحة دماء الأبرياء ليست من الدين في شيء وبأن الإسلام نفسه يلح على احترام مخلوقات الله تعالى وتوقيرها.

يذكر ريتشارد بينسكوفيك Richard Penaskovic بأن العالم الغربي بعد الأحداث الأليمة تملكه الخوف، ولم يعد هناك إعلامي يتحدث عن إسلام معتدل، على الرغم من أن عددًا واسعًا من المسلمين عبر العالم كانوا يعتبرون أنفسهم معتدلين ويؤكدون بأن الإسلام دين الاعتدال، وهنا يبرز في نظر ريتشارد بينسكوفيك Richard Penaskovic شخصية فتح الله كولن والدور الذي يمكنه القيام به باعتباره قنطرة بين هذا الإسلام المعتدل أو بين الإسلام والغرب، بالنظر إلى رؤيته للسلم والسلام والتسامح والحوار، وبالنظر كذلك إلى رؤيته المتفائلة للعلاقة المستقبلية بين الإسلام والغرب، ويستشهد لتأكيد هذه الملاحظة باقتناع فتح الله كولن بما آل إليه العالم في إطار العولمة، التي جعلته مجرد قرية عالمية، وأكدت الأحداث نفسها بأن العالم الذي أصبح قرية بالنظر إلى تطور وسائل التواصل قد سهل سرعة انتقال معلومة الاعتداء على

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن قضية الحوار بالنسبة لكولن لا تقف عند حدود حوار الذات ذاتها، ولا عند حدود تأكيد البعد المتسامح المميز للمنظومة الأخلاقية الإسلامية بل يتجاوزها إلى الفضاء الأرحب المتمثل في كوكب الأرض من خلال الدعوة إلى حوار عالمي.

الولايات المتحدة الأمريكية وتمكن الغالبية العظمى من سكان العالم من التعرف على هول المأساة، التي حصلت خلال الساعتين اللتين تلتا الحدث[١٤] وتتلخص رؤية كولن في هذا الإطار وحسب ريتشارد بينسكوفيك (Richard Penaskovic) في أن العالم في إطار العولمة قد أوجد عدة مشكلات ينبغي التفكير في حلول لها على المستوى العالمي، لأنها مشاكل عامة تعني الإنسانية كلها.

إذا كانت العولمة قدَر العالم المعاصر، فإن هذا القدر قد أنتج سلبيات كثيرة أهمها سرعة انتقال الأفكار السلبية والأفكار الهدامة، وانتقال أفكار التطرف والعنف بكل أنواعه، ولذلك فإن العالم كله وخاصة حكماءه مدعوون إلى الجلوس إلى حوار صريح وبناء، لإيجاد حلول شاملة تحد من سلبيات العولمة هذه، وكأن لسان حال فتح الله كولن يدعو إلى "ميثاق عالمي" لترشيد العولمة لكيلا تصير وبالاً على الإنسانية كلها.

قضية الحوار بالنسبة لكولن لا تقف عند حدود حوار الذات ذاتها، ولا تقف عند حدود تأكيد البعد المتسامح الذي يميز المنظومة الأخلاقية الإسلامية، بل تتجاوزه بمسافات، فدعوة كولن تتجاوز في ضوء هذا الاقتناع الحدود الضيقة إلى الفضاء الأرحب المتمثل في كوكب الأرض من خلال الدعوة إلى حوار عالمي، والذي يدفعه إلى هذه الدعوة وحرصه عليها، هو روح المسؤولية التي تطبع مواقفه وتطبع تصرفاته، فتمثله العميق لقيم الإسلام تشعره بالمسؤولية تجاه هذا العالم بكل مكوناته، وتجاه كل فرد من أفراد المجتمع الإنساني، وكولن من هذا المنظور ليس مجرد عالم مسلم يذود عن حمى القيم الدينية التي ينتمي إليها، بل مفكر واسع الرؤية يعتبر هموم العالم من همومه وينبغي البحث لها عن حلول متزنة.

التاريخ في بناء الإنسان

يتميز منهج كولن بخصوصية بناء نماذج بشرية واقعية، وليس مجرد صورة نظرية توجد في حدود اللغة الواصفة، نماذج بشرية جديدة تتجاوز الأنانية الذاتية التي يحركها الوطن القومي أو العرق وحتى الدين، بل ويحركها غايات أخرى أسمى تتجاوز الأفق السياسي إلى أفق أوسع هو الأفق الإنساني. وغني عن البيان أن هذا النموذج الإنساني لا يمكن أن يكون منسجمًا مع هذه الأفاق إلا إذا تربى في ظل فضاء يحرص على الحوار والتسامح ويدعو إلى التعايش، ويلح على تمثل قيمه الإيمانية والأخلاقية التي تطلب على الخصوص في التاريخ.

التاريخ مكون محوري وفعال في إيجاد الإطار البشري المنشود، يقول كولن[١٥]:"الماضي مدرسة مليئة بالأمثال والعبر المأخوذة من الحياة. والذين يستطيعون معرفة كيفية الاستفادة من ثمرات هذه

المدرسة وتقييمها تقييمًا جيدًا يستطيعون حكم المستقبل بكل نجاح. ذلك لأن اليوم يشبه الأمس، والأمس يشبه أمس الأمس.. الألوان هي المتغيرة فقط، فحكم القوة مؤقت وزائل، أما حكم الحق والعدل فباق. وإذا لم يتحقق هذا الآن فالحق آت عن قريب دون ريب لذا فأفضل سياسة هي أن تكون بجانب الحق والعدل"[١٦]، فعبارات هذا الكلام تؤكد استحكام العقل والتعقل في مقابل التعصب والعاطفة، ففي الوقت الذي تنفتح فيه المحاكمة العقلية على المستقبل مستحضرة مبدأ عدم دوام الأوضاع على ما تبدو عليه في الراهن، ومستحضرة ما قد يأتي به المستقبل من تحولات وتغيرات ومن مراجعات، في ضوء ذلك يلح كولن على أنه من الضروري أن تكون عند النموذج الإنساني الذي يستطيع إعادة توجيه دفة الأحداث والتاريخ في الاتجاه الإيجابي القدرة على وزن الأمور بمقياس التسامح والتجاوز وخفض الجناح للناس حتى وإن كانوا من أشد المتشددين من أجل ما يمكن تحصيله من منافع معنوية للمجتمع الخاص والمجتمع العام في المستقبل، وكما ينطبق هذا على الدائرة الضيقة التي تضم أشقاء الوطن والعرق والدين ينطبق كذلك على الدائرة الأوسع التي تضم كل فرد من أفراد الإنسانية كلها.

يلفت كولن في مقال بعنوان "حركة نماذجها من ذاتها" الانتباه إلى طبيعة النموذج الإنساني الذي يؤثث حركة العمل التطوعي المعروفة بـ"الخدمة"، والتي

إن العالم في إطار العولمة قد أوجد عدة مشكلات ينبغي التفكير في حلول لها على المستوى العالمي، لأنها مشاكل عامة تعني الإنسانية كلها.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

استطاعت أثناء شق طريقها أن توجد الإطار البشري المنفتح على العالم والمتصالح مع واقعه ومحيطه الضيق والواسع على أساس منظومة القيم التي تمثلها، والتي حرص فتح الله كولن كل الحرص على غرسها في هذا الجيل الذي تكون في رحم ولادة هي رحم القيم الأخلاقية السامية المتشبعة بالروحانيات، والمشدودة إلى التاريخ، والواعية بحاجات الواقع، والمتفتحة على المستقبل والمدركة للواقع ولمجريات الأحداث، لتستحق بذلك صفة "الإنسان الجديد".

يلح كولن على ضرورة أن يتم الاهتمام بهذه الحركة وأن يهتم بها، بمعنى أن تكون محط اهتمام من يريد الخير لهذا العالم[١٧] يقول: "إن هذه الحركة ظاهرة يجب أن تشرح ويتم الوقوف عندها بشكل جدي، فقد قررت فئة قليلة ملك الحب قلبها أن تنطلق لنيل رضاه تعالى إلى المشرق وإلى المغرب وإلى أرجاء الأرض جميعًا في وقت لم يخطر فيه هذا بخاطر أحد.. انطلقت دون أن تهتم بآلام الغربة وبفراق الأحبة، ملؤها العزم والثقة... طوت في أفئدتها بعشق خدمة الإيمان لواعجَ الفراق، وَحُبَّ الوطن، وآلامَ فراق الأهل والأحبة... قليل من الناس شعروا مثلهم وعاشوا الجهاد في سبيل الله مثلهم

إن شمولية التصور الذي يسترشد به كولن يتأسس على اقتناع مبدئي؛ هو وجود فهم خاطئ للإسلام بالنسبة للغرب، وهو أمر يرجع في نظر كولن إلى الذات التي توقفت عن الإسهام في الحضارة الإنسانية.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

وقالوا وهم ينتشرون في المغرب وفي المشرق مثلما قال حواريو الرسل "خضنا دروب الحب فنحن المجانين..." (الشاعر نيكاري)... ذهبوا وهم في ميعة الشباب يحملون آمالاً وأشواقًا دنيوية تشتعل في قلب كل شاب، لها جاذبية لا تقاوَم فضلا عن هذه الفترة النضرة من مرحلة الشاب، ذهبوا في عصر طفت فيه المادية والأحاسيس الجسمانية على المشاعر الإنسانية، وهم يكبتون تلك المشاعر والآمال المشتعلة في صدورهم باشتياق إلى وصال آخر أقوى منها وأكثر التهاباً وتوهجاً وهم ينتشرون في مشارق الأرض ومغاربها ويسيحون حاملين في أفئدتهم تلك الجذوة المشتعلة من نشوة الرعيل الأول"[١٨].

عندما يتحدث كولن عن الإنسان الجديد باعتباره البشارة التي يقدمها للعالم أو لنقل يقترحها على العالم، وباعتباره إنسانًا جديدًا مسكونًا بالهم والهمة ومؤمنًا إيمانًا يسمو بروحه، ومتسلحًا بالعقل منهجًا للموازنة والمحاكمة العقلية، وبالعلم طريقًا للبناء، عندما يتحدث عنه يبدو وكأنه يلمح إلى نماذج أخرى وظفت سلبًا لأغراض شريرة وجرى استقطابها عن طريق إيديولوجيا العنف، وغرر بها بوسائط كثيرة منها التاريخ وبطولاته.

لقد وظفت حركات الإرهاب التي تنشط باسم الإسلام، والإسلام منها براء، تاريخ الصحابة وجانبًا من سيرة الرسول على أنها بطولات تمجد العنف والقتل وإرهاب الناس، لكن منهج فتح الله كولن يوظفها ببعد يقوم على التسامح وعلى المحبة وابتغاء الخير للإنسانية في كل مكان "هدفهم المرسوم في آفاقهم سعادة الإنسانية ورضوان الله تعالى حظوظهم كحظوظ الربانيين والصحابة"[١٩]. وفي الوقت الذي يقوم فيه منهج كولن على إرساء الثقة في القيم التي يحملها هذا الإنسان الجديد ويبشر بها، نجد خطاب الإرهاب يعمل على زرع الكراهية ويقوض كل المقومات الأخلاقية التي جاء بها الإسلام. فعمق التجديد الذي يحمله هذا النموذج البشري هو روحه المفعمة بالحب وإرادة الخير للإنسانية في كل مكان.

فضلاً عن ذلك يقول كولن يجب "ألا ننسى أننا لا يمكن أن نبلغ مشاعرنا وأفكارنا إلى أرواح الناس عن طريق الحدة والوجه العبوس، ولكن بالبسمة الحلوة التي تعلو وجوهنا من أجل ذلك يجب أن يقابل الناس صدرا رحبا حتى لا يخشى أحد ألا يجد مكانًا فيه عند إرادة دخوله، وهذا يدعونا إلى التزام المنهج والسبيل الذي كان يتبعه أبطال الإرشاد الذين جعلوا القرآن والسنة مرشدهم ودليلهم من أمثال مولانا جلال الدين الرومي والإمام الرباني، ومولانا خالد البغدادي، وبديع الزمان سعيد النورسي، فإن وجدنا اختلافات فرعية فيما بينهم نظرًا لظروف عصرهم فلا يغيب عنا أنهم كانوا يقومون، ويفتحون

بالرحمة، ويبثون الشفقة فيمن حولهم، يفتحون صدورهم للجميع، وكانوا بلا يد لمن ضربهم وبلا لسان لمن سبهم، وبلا قلب لمن كسر خاطرهم.

ومن ثم فإن الوظيفة التي تقع على عاتقنا هنا هي أن نقتدي بهذه الشخصيات التاريخية، وأن نتضامن فيما بيننا، وأن نستخدم القوة الخفية للإنسانية في صالح الإنسانية"[٢٠]. ■

إن المأزق الذي تعيشه الإنسانية اليوم يفرض على كل فرد من أفراد المجتمع الإنساني استحضار جوهر مفهوم "الحوار".

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الهوامش

(١) ينظر في تفصيل هذه القضية: محمد جكيب، أشواق النهضة والانبعاث قراءات في مشروع الأستاذ فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر،٢٠١٣ .

(٢) The Gülen movement in turkey, the politics of Islam and modernity, CAROLINE TEE: I.B. TAURIS, LONDON. NEW YORK 2016: pp 119-122.

(٣) جلال الدين الرومي: رجل العشق والحماس المتزن، جهود التجديد، دار النيل للطباعة والنشر، ط٢٠١٧/١ القاهرة، ص ٣١٥ ـ ٣٢٢: ٣١٥ ـ ٣١٦.

(٤) نفسه: ص ٣١٦.

(٥) نفسه: ص ٣١٧.

(٦) انظر فتح الله كولن، الرؤية والتأثير تجربة فاعلة في المجتمع المدني، مايمول أحسن خان، تر: أحمد سعيد عبد الوارث ومحمود علي جمعة، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٥: ص٣٠.

(٧) للتوسع ينظر: de Louis-Marie Bureau, la pensée «islamisme modéré» Fethullah Gülen, Aux sources de l: PP 111-115.

(٨) نقاط الالتقاء والاتحاد، الموازين، أو أضواء على الطريق، تر: أورخان محمد علي، دار النيل، ط٨/ القاهرة، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٣م: ص٦٢.

(٩) نقاط الالتقاء والاتحاد، الموازين: ص ٦٢ ـ ٦٣.

(١٠) نقاط الالتقاء والاتحاد، الموازين: ص ٦٣ ـ ٦٤.

(١١) نحو تنوير إسلامي: حركة فتح الله غولن، حاقان يفوز، تر: شكري مجاهد، منتدى العلاقات العربية والدولية، ط٢٠١٥/١: ص ٦٤-٦٥.

(١٢) نفسه: ص ٦٢.

(١٣) بغض النظر عن الأسباب المباشرة التي دفعته إلى ترك وطنه تركيا

(١٤) Fethullah Gülen, un pont entre Islam et Occident, in Société civil, démocratie et islam: perspectives du mouvement Gülen, Sous la direction d'Erkan Toguslu, l'Harmattan, Paris 2012 pp155 :167-P 155 -156.

(١٥) حرصنا في هذه الدراسة على التركيز على الاستشهاد بنصوص الأستاذ فتح الله كولن، وسيلاحظ القارئ كثرتها في بعض الأوقات وفي هذا حرص على تجسيد ما وصلنا إليه من استنتاجات حين البحث في رؤية الرجل.

(١٦) الموازين، دار النيل للطباعة والنشر، ط٨/ القاهرة، جمهورية مصر العربية ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م: ص١٣٢ ـ ١٣٣.

(١٧) الأحداث الأخيرة التي مرت بها الخدمة أكدت بأن هذه الشريحة الاجتماعية التي استنشقت هواء تركيا، لم يصدر عنها أي سلوك يتسم بالعنف والتطرف تجاه النظام الحاكم في تركيا رغم شتى أنواع التنكيل التي تعرضت له، مستحضرة ما سيحمله المستقبل من تحولات

(١٨) حركة نماذجها من ذاتها، مجلة حراء، عدد ١٣، ديسمبر ـ أكتوبر ٢٠٠٨.

(١٩) نفسه.

(٢٠) جهود فتح الله كولن، جهود التجديد، دار النيل للطباعة

الخدمة
نموذج عالمي للتعليم وللحوار

إيان ج. ويليامز

البروفيسور إيان ج. ويليامز يحاضر في الدراسات الإسلامية والدينية في كلية التربية والقانون والعلوم الاجتماعية في جامعة برمنغهام سيتي، في المملكة المتحدة.

وقد نشر أوراقاً علمية عديدة في المؤتمرات الأكاديمية الدولية حول الخدمة و تأثيرها على الصعيد العالمي.

إن المجتمع يتطور ويتدهور وفقًا لطبيعة علاقة أطراف المجتمع الواحد ببعضهم البعض، وكذلك وفقًا للضمير الجمعي الذي يظهر أثناء نشاط الحركات المختلفة سواء الأخلاقية أو التعليمية أو السياسية، وجميعها تكون محاولات تصحيحية لمسار المجتمع، لكن الملاحظ الجلي أن معظم الدراسات الاجتماعية منذ نشأتها في القرن التاسع عشر تحصر مفهوم الحركة الاجتماعية في الحيز السياسي، وذلك بسبب طبيعة الحركات السياسية التي انتشرت في القرن التاسع عشر والقرن العشرين والتي كانت تركز جهودها في العمل السياسي من أجل إحداث تغيير شكل الحكم أو طبيعته.

ولكن الأمر يختلف مع حركة الخدمة الناشطة في المجتمع لا من أجل أغراض سياسية ولكن لأهداف اجتماعية وإنسانية عامة، وتحاول الدراسة التي بين أيدينا أن تلقي الضوء على طبيعة حركة الخدمة الاجتماعية بمفهومها الواسع، وفهم طبيعة مشروعاتها، وهل من الإمكان أن نطلق عليها حركة اجتماعية أم أن هذا سيعد مغالطة لطبيعة عمل الخدمة؟

قبل أكثر من عشر سنوات بدأ اهتمامي بكتابات وأعمال الأستاذ فتح الله كولن، والتقيت مع عديد من أعضاء مشروع الخدمة، وزرت عديدًا من المؤسسات والمدارس والجامعات ومؤسسات الحوار بين الأديان التي تستلهم أفكارها من الأستاذ كولن وذلك في مسقط رأسه في تركيا وكذلك على النطاق العالمي.

وخلال السنوات الماضية، شاركت في مؤتمرات أكاديمية ركزت على "حركة كولن" باعتبارها تجديدًا معاصرًا للإسلام، وبحثت في دوافعهم وأهدافهم وأسسهم الاجتماعية والدينية من جهة عقيدتهم وممارستهم للإسلام. بالإضافة إلى ذلك، قابلت عديدًا من الصحفيين والكتاب المشاركين في وسائل الإعلام المطبوعة والتلفزيونية ممن لهم اتصال بأفكار كولن داخل تركيا وخارجها.

الحوار ومجتمع المتطوعين

إن البعد المهم لفتح الله كولن يتمثل في الحوار بين الأديان، ومحاولاته دخول مجال الفكر العربي المسلم باعتباره موازنة عكسية في مواجهة التيارات المتشددة، ففتح الله كولن يحتضن في وقت واحد عدة جوانب من الفكر والممارسات الإسلامية التقليدية والمبتكرة على حد سواء، وهذا المزيج من الخصائص والقدرات والمؤهلات يميزه عن غيره من العلماء والإصلاحيين، الأمر الذي وفر له القدرة على التغيير. ففتح الله كولن عالم، وناشط سلام، ومفكر، وزعيم حركة دينية مدنية، ومصلح اجتماعي، ومرشد، بالإضافة إلى كونه شاعرًا وكاتبًا، حفَّز وألهم جيلاً من المسلمين في تركيا وخارجها في حركة اجتماعية دينية متعددة الأعراق، صاغها هو نفسه من "مجتمع المتطوعين".

خصوصية كولن

يَلفت الأستاذ بولاج انتباهنا نحو مدى موثوقية أفكار كولن وأهميتها، مشيرًا إلى أن كولن يمثل أحدث إحياء لتقليد العلماء، مثل العلماء المسلمين السابقين؛ حيث يمتلك دراية متميزة لا تشوبها شائبة بالمصادر والعلوم والمنهجيات الإسلامية. ويستدرك بولاج قائلاً: غير أن كون المرء عالمًا وحده لا يكفي؛ إذ ينبغي أن يكون "ذا جناحين" بمعنى أن يكون على دراية بالعلوم الإسلامية، ولديه في الوقت نفسه وقوف على العلوم الغربية والفكر الغربي. والحقيقة أنه -من بين العلماء المعاصرين- قد يكون كولن هو أول ممثل لخاصية "ذي الجناحين" تلك، وذلك لما يمتلكه من فهم عميق للعلوم الإسلامية، ومعرفة واسعة بالسيرة وعلم الحديث، واستيعاب شامل للأصول الإسلامية؛ فكتابه "تلال القلب الزمردية" عمل مهم من حيث الفكر والتراث الصوفي. بالإضافة إلى أن أهم خصائص كولن أنه يحلل القضايا المعاصرة ويقدم لها حلولاً باستخدام قواعد أصول الفقه وعلم الحديث[1].

إن التركيبة التي يقدمها لنا كولن فريدة من نوعها، فهو يسعى إلى تطوير حياة الناس من خلال التعليم والحوار، الأمر الذي قد يتعارض مع المفاهيم الثقافية

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن كولن يعد ممثل لخاصية "ذي الجناحين" وذلك لما يمتلكه من فهم عميق للعلوم الإسلامية، ومعرفة واسعة بالسيرة وعلم الحديث، ويقدم حلولاً للقضايا المعاصرة باستخدام قواعد أصول الفقه وعلم الحديث.

والعقائد الدينية السائدة، فالأفكار التي يقدمها تسعى إلى تحفيز الفرد والمجتمع نحو تحقيق مفهوم الإنسان الكامل، وهذا المفهوم لا يمكن أن يتحقق إلا في مجتمع حر وعادل، ونظرًا لأن أهداف وأفكار كولن لها ما يبررها في المصادر الإسلامية الراسخة فليس لأفكاره مشكلة من جهة الشرعية أو الأصالة.

والواقع أنني أرى أنه مثلما ساعدت جهود كولن ومشروع الخدمة في تقوية المجتمع في تركيا، فإن هذه الأفكار سوف يكون لها التأثير نفسه في العالم الإسلامي على النطاق الأوسع، غير أن سرعة التأثير وامتدادها ستعتمد بشكل طبيعي على وجود الخدمة في العالم.

كولن ضد التصنيف

بحسب كولن لا يمكن تحقيق إرادة الله والسلام العالمي إلا من خلال وجود حضارة شاملة تدمج قيم الشرق والغرب، ويستشهد كولن في كثير من الأحيان بالآية القرآنية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣).

فالشرق والغرب -لدى كولن- متماثلان في الأهمية، والأمر بالنسبة له محاولة للجمع بين أصحاب الرؤية الإيمانية والحضارة الغربية، فالمسلم وفقًا له هو المتتبع لقوانين الله المتعلقة بالسبب والنتيجة، مستهدفًا بذلك تحقيق النجاح والتنمية وتفعيل قيم الحضارة الإسلامية التي حافظت على ديناميكيتها الروحية. في هذا المستوى من التفكير والمنطق يعارض كولن فكرة التصنيف؛ (مسلمٌ وغير مسلمٍ، شرقٌ وغربٌ)، ويرى أنه ينبغي أن يكون كل منهم جزءًا من الحضارة المستقبلية الشاملة التي تسعى إلى تحقيق التوازن والسلام في العالم.

الخدمة والتعريفات السائدة للحركات

لم يتفق علماء الاجتماع على تعريف مانع وجامع لمفهوم العمل الجماعي، أو مفهوم الحركة الاجتماعية التي من شأنها أن تلبي ما تطلبه الأفكار المختلفة السائدة في أي حقبة، أو تتناسب بشكل جيد مع الحقائق المختلفة التي يتم دراستها. وبالتالي فالتعريفات المعاصرة لماهية الحركة الاجتماعية تخضع لتأثيرات السياق، أو تركز على مميزات محددة للحركة، لذا فهي تختلف اختلافًا كبيرًا من حيث الإطار المرجعي، والوزن النسبي على مستوى الإدراك والتحليل، وعلاقاتها المختلفة، ومجموعات عملها المتداخلة، وسنستعرض بعض المفاهيم المقترحة في السنوات الأخيرة للحركات الاجتماعية.

فهناك من يرى أن الحركة الاجتماعية هي محاولة جماعية لعدد من الناس تهدف لإحداث تغيير في سلوك الأفراد أو المؤسسات والهياكل المجتمعية[٢]، وأن الحركات الاجتماعية لها صفات؛

فهي أولاً: شبكات غير رسمية، ثانيًا: تستند على مفهوم التضامن المشترك، ثالثًا: تتعامل مع قضايا متنازعة، رابعًا: تستخدم أشكال الاحتجاج المختلفة. كما يشتمل مفهوم الحركة الاجتماعية على ثلاثة أبعاد تحليلية: (١) ممثل جماعي يحدده تضامن جماعي محدد (٢) يتنازع مع طرف آخر من أجل السيطرة وتسيير الموارد التي يثمنها كل منهما (٣) وهذا التحرك يقتضي الخروج على النظام الذي يحدث فيه الإجراء المبتغى تعديله[٣].

هذه التعريفات تتفق في فكرة مفادها مواجهة أصحاب السلطة المكتسبة وتحديهم، والسعي إلى إجراء إصلاحات هيكلية، باستخدام أساليب خارج المؤسسات قد تشمل انتهاك المعايير القانونية والدستورية المقبولة.

وهذه التعريفات مستمدة من نماذج محددة لحركات جماعية ومناهجها النظرية للتغيير الاجتماعي التي انتشرت في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية والجنوبية من أواخر ستينيات القرن الماضي وما بعدها، ورغم أن تلك النماذج تتسم بالتطور والانتشار، فلديها -في الوقت نفسه- نقاط ضعف كبيرة تستدعي على وجه الخصوص وجود نماذج معاصرة دينية-اجتماعية.

فالنماذج النظرية التي لدينا جامدة لدرجة تجعلها غير قادرة على استيعاب جميع الحركات الاجتماعية أو معظمها، وهي في الوقت نفسه واسعة لدرجة لا تمكنها من التمييز بين الأنواع المختلفة من الحركات، فالتعريفات لا تصف بشكل مناسب

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن التركيبة التي يقدمها لنا كولن فريدة من نوعها، فهو يسعى إلى تطوير حياة الناس من خلال التعليم والحوار، فالأفكار التي يقدمها تسعى إلى تحفيز الفرد والمجتمع نحو تحقيق مفهوم الإنسان الكامل.

مفهوم الاستمرارية بين الموقع الهيكلي للممثل والعالم الثقافي والفكري الذي يتم تحديده وخدمته. وبالإضافة إلى ذلك، فعلم الاجتماع الخاص يتعامل بشكل متزايد مع الحركات التي لا يمكن اختزالها في سبب اجتماعي واحد محدد، فبشكل متزايد تحولت الحركات الاجتماعية إلى مبادرات عالمية تعمل داخل مجتمعات متعددة الأشكال والاحتياجات، كما أن لدينا اختلافات بين الحركات من حيث التركيز والغرض.

وعلى هذا النحو، فالكثير من أدبيات البحث المتعلق بالحركة الاجتماعية نجدها تعمم نتائجها على الحركات المختلفة دون النظر إلى زمنها أو مكانها، أو كونها تركز على حركات فردية وتتمركز في وقت ومكان واحد، وفي كلتا الحالتين سعت تلك الدراسات إلى إنشاء تحليلات موحدة، واعتمدت على السياقات التي تتجذر فيها حركات المعارضة أو الاحتجاج، مما يشير إلى أن المنظور الذي انطلق منه المنظرون الاجتماعيون اعتمد بصورة حصرية على الحركات الاجتماعية والظواهر الجماعية التي كانت موجودة في نهاية القرن العشرين سواء أكانت اجتماعية-سياسية أو دينية-سياسية.

وقد فشلت هذه التصورات في ملاحظة العنصر

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن الحركة الاجتماعية هي محاولة جماعية لعدد من النا س تهدف لإحداث تغيير في سلوك الأفراد أو المؤسسات أو الهياكل المجتمعية.

السياسي في الحركات الجديدة، وتجاهلت العمل الخيري والإيثاري والتطوعي، بينما يساعد ذلك في فهم ديناميات المشاركة في الأنشطة التي لا يستفيد المشاركون فيها بشكل مباشر، كما فشلت تلك المفاهيم في معالجة الدوافع الدينية. فعلى سبيل المثال نجد الإسلام السني يمنح ويكفل للأفراد والجماعات التحرك لإحداث تغيير اجتماعي إيجابي بالتوافق[٤].

بالإضافة إلى وجود انفصال حاد في تلك التصورات النظرية بين الأحداث المعاصرة وتلك الواقعة بالماضي، في حين أن هناك تغييرات ذات أصل اقتصادي وسياسي، وتغييرات تنشأ وتكتسب أهمية من المواقف المتعلقة بالقيم الدينية والأخلاقية والثقافية، وهناك حركات تهتم بقيم المساواة والحرية والكرامة والإيثار والحفاظ على البيئة والأخلاق، بالإضافة إلى قضايا حقوق الإنسان الأساسية، والأخلاق والثقافة القانونية[٥].

يقول إيرل 'لقد جادل عديدًا من المنظرين البارزين بأن (الحركات الاجتماعية الجديدة) أقل توجهًا وسعيًا لتحصيل نتائج سياسية، وبدلاً من ذلك فهي تهتم أكثر بالقيم والمعتقدات الثقافية[٦]، وهو ما يؤكده منظّر اجتماعي آخر وهو كُوبمانس بقوله: إن بعض الحركات الاجتماعية "تقوم من خلال دمج الابداعات الجديدة بإدخال عنصر جديد في تفاعلاتها، بل تنشئ وتعيد صياغة جديدة للهوية ولطرق العمل، وللمطالب، وهذا بدوره يلهم الحركات الأخرى[٧].

ولننتقل إلى الحديث عن المخزون الثقافي والتربوي لحركة كولن للمجتمع المدني، ورؤيتها الديمقراطية التشاركية التعددية وتوافقها مع الإسلام، وممارستها للخدمة في مختلف الثقافات، باعتبار أنها حركة اجتماعية معاصرة لا تركز على توقع حالة الصراع باعتبارها حتمية، ولا تقترح تخريب النظام الاجتماعي عبر القفز على العلاقات الاجتماعية الموجودة، ومثل هذه الحركات التي تشترك في خاصية عدم التصارع قد تنشأ عن تقاليد دينية أو علمانية مختلفة ولكنها ليست بالضرورة علمانية، كما لا يتم تحديدها باعتبارها قائمة على أساس من الطبقية أو المادية، ودعونا ننتبه إلى مصادر مثل هذه الحركات، التي ليست دنيوية بل وريثة للتقاليد الروحية المعدلة لتتعامل مع العصر الحاضر. وبالتالي فإن فكرة مثل هذه الحركة تفترض استخدام القوة التعاونية "الناعمة" بدلاً من القوة "العنيفة" العدائية.

حركة كولن قوة ناعمة

لقد وُصفت المبادرات المستلهمة من أفكار كولن بعديد من الأوصاف مثل كونها؛ مدنية، ثقافية، سياسية، تريد أن تكون في الواجهة، صراعية، رجعية، رد فعلية، حصرية، طائفية، غربية، تنافسية، إسلامية، وسطية، متصالحة، تعددية، ديمقراطية، إيثارية وسلمية[٨]، فكيف يمكن تعريف مثل هذه الرابطة وفقًا لنظريات الحركة الاجتماعية، هل هي حركة

مجتمع مدني، رد فعل لأزمة، حركة أو نظام صوفي، حركة سياسية، أو عمل جماعي يحض على الإيثار؟

عبر عملي الميداني الخاص وملاحظات الآخرين يوجد دليل واضح على أن حركة كولن تُسهم بصورة كبيرة في مساعدة الطلاب المتفوقين حيث تفتح آفاقهم على أهداف جديدة، وقد شجعت الخدمةُ على المشاركة الطوعية في شبكة من المدارس والجامعات العالمية، وطوَّرت علاقات ثقة بين قادة الأديان والمجتمعات عبر مؤسسات الحوار بين الأديان، وسعت لخلق أهداف مشتركة لمجتمعاتهم[٩].

إن هذا العمل المدني يعمل عبر مؤسسات تقع خارج الهياكل المؤسسية الرسمية للحكومة بشكل أساسي، كما أنها متميزة عن المنظمات التجارية، وبالتالي فهي -في المقام الأول- لا تسعى لإنشاء مشاريع تجارية لتوزيع الأرباح على مديريها أو أصحابها؛ بل إنهم مجموعة عمل تتمتع بالاستقلالية في الإطار القانوني، والناس أحرار في الانضمام إليهم أو دعمهم طوعًا[١٠]. وكما يعرف هيفنر "المجتمع المدني" بأنه "جمعية طوعية خارج نظام الأسرة مستقلة، توفر للمواطنين فرص فهم وممارسة العادات الديمقراطية المتمثلة في التجمع الحر، والحوار غير القسري والمبادرة الاجتماعية الاقتصادية"[١١].

وكما يقول ويلر: "إنّ الحركات ذات المرجعية الدينية تغفل في كثير من الأحيان عن البنى الاجتماعية والسياسية للحداثة"، بينما نجد الخدمة تشكل جزءًا كبيرًا من المجتمع المدني وتسهم بشكل كبير في

إن نهج الخدمة وخاصة في مؤسساتها التعليمية هي البناء من القاعدة إلى أعلى فهي تسعى من خلال تعليم الأفراد إلى إنشاء مجتمع متناغم وشامل على أساس ليبرالي عام.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الحفاظ على كل من الترابط والتواصل الاجتماعي، ورأس مالها في ذلك وجود مجتمع مدني وديمقراطي. والجانب الطوعي في الارتباط بالخدمة يعد مهمًّا، حيث ينضم الأفراد بحرية إلى الجمعيات والخدمات التي يختارونها، كما يتمتعون بحرية الخروج دون أي تكلفة، وسواء كان الدافع الأساسي لمثل هذه المشاركة التطوعية هو تحقيق الذات أو التعبير عن الذات أو تنمية الذات أو التعبير عن الإيمان، فالمهم هو تحقيق المثل العليا للمجتمع المدني[١٢].

إن نهج الخدمة وخاصة ما تتبعه في مؤسساتها التعليمية هي البناء من القاعدة إلى أعلى فهي تسعى من خلال تعليم الأفراد إلى إنشاء مجتمع متناغم وشامل على أساس ليبرالي عام.

فـ"التعليم" هو الأساس المنطقي الذي يؤكد كولن على أولويته دائمًا في الحركة بغض النظر عما إذا كان النظام الاجتماعي والسياسي مشلولاً أو كان نظامًا يعمل كالساعة"[١٣]. وفي حين يوصف عمل الخدمة بأنه عمل مجتمع مدني ذي بعد إيماني، فإن خطابها وممارستها في مدارسها على سبيل المثال يؤكدان فكرة أن الدين والدولة قد ينفصلان في الإسلام، وهذا الأمر لا يمثل تهديدًا للإيمان بل إنه قد يمنع من استغلاله والتلاعب به من قبل الدولة. وبالتالي، فإننا

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن التعليم هو الأساس المنطقي الذي يؤكد كولن على أولويته دائمًا في الحركة بغض النظر عما إذا كان النظام الاجتماعي والسياسي مشلولاً أو كان نظامًا يعمل كالساعة.

أمام حركة تقوم بتحويل الفرد والمجتمع إلى "مجتمع أخلاقي" ومن ثم مجتمع متقارب يتبنى الحوار.

ولكن إن عدنا إلى التاريخ لأجل فهم الواقع التركي فسنجد أنه منذ إنشاء الجمهورية التركية في عام ١٩٢٣، واجهت الأمة التركية سلسلة من الأزمات في تطورها لكي تصبح مجتمعًا مدنيًا ديمقراطيًا حقيقيًا[١٤]، ودعونا لا ننسى التفريق بين الأزمة والصراع؛ فأثناء الصراع يتنازع الخصوم على التعاريف المتعارضة للأهداف والعلاقات؛ على سبيل المثال المعنى المقصود من وراء إنشاء مجتمع مدني، وفي حين أن الصراع العدائي يظهر كصراع على السيطرة وتخصيص الموارد التي تعتبر حاسمة من قبل الأطراف المعنية، إلا أن الأزمة تثير رد فعل لاحق من جانب أولئك الذين يسعون إلى تصحيح الخلل الذي حدث في النظام، فالفرق بين الأزمة والصراع العدائي واحد فقط. لذلك يمكن أن نسأل السؤال التالي: هل تعد حركة كولن جزءًا من الأطراف المتنازعة والمتعنتة أم أنها تمثل مجموعة عمل جماعي، أم غير ذلك؟

بعض الحركات المدنية داخل وخارج السياق الديني تكون مثل ما ناقشه كلٌّ مِن زالد وماكرثي، رد فعل للأزمات الأخلاقية كما تتصورها مجموعات المصالح، وقد تتراوح الموضوعات هذه بين وجهات نظر مختلفة بدءًا من موضوعات مثل: الحق في الحياة، ونزع السلاح النووي، والتحالفات المناهضة للحرب، ومجموعات دعم طالبي اللجوء، إلى القضايا التي تركز على الثروة والسلطة والفقر كما حدث على سبيل المثال في لاهوت تحرير أمريكا اللاتينية[١٥].

ومع ذلك، فإن الملاحظة التاريخية تشير إلى أن مشروع الخدمة لم ينشأ ردًّ فعل للأزمات والصراعات (وهي السمة المستوطنة في المجتمع التركي منذ عام ١٩٥٠) ولكن فتح الله كولن قام بتحفيز وتنشيط بعض القيم المدفونة، كالتوق للمثل العليا والآمال في تجديد الهوية الوطنية، وربما القيام بتغيير على نطاق العالم، ولولا مبادرات التحرير الاقتصادي والسياسي لـ"تورجوت أوزال"، التي سيطرت على المشهد الوطني التركي في الفترة من ١٩٨٣ إلى ١٩٩٣، والتي ساعدت في تكوين الحركات الاجتماعية الجديدة وظهورها، لما كان من المتصور وجود حركة "الخدمة" بريادة فتح الله كولن في تلك الحقبة الزمنية.

وبالنسبة لشبكة من الفاعلين المتحمسين، وبأعداد غفيرة من "متطوعين" في هذه الحركة، فلابد من وجود عدد من المشاركين والداعمين الماليين والأعضاء المحتملين ذوي المهارات الفكرية والمهنية اللازمة، فالاستعداد للخدمة سابق على وجود مناسبة للخدمة، إذ الحركات الاجتماعية تتطلب وقتًا لتتطور ولا تتشكل بشكل كامل من قشر البيض المكسور. وكما يجادل "كوبمانز" فأنَّ توفر المناخ السياسي لا يُترجَم تلقائيًّا وفوريًّا إلى

زيادة في العمل ولا يكفي لظهور مجموعة من الإصلاحيين، ويمكن القول: إن هناك مراحل جنينية دفينة واضحة أسهمت في تشكل مشروع الخدمة[١٦].

في الواقع هناك بيانات صريحة من الأستاذ كولن نفسه بأنه ليس قائد "حركة" بالمعنى المتداول للمفهوم، وبدلا من مصطلح " الحركة" يفضل استخدام مصطلح "متطوعو الخدمة" لأن هذا لا يشير إلى نشاط المواجهة أو العزلة السياسية، ويصر على أن الخدمة التي يقدمها المتطوعون يجب ألا تنطوي على صراع أو تنبني على رد فعل، ويقترح كولن توصيفًا بديلاً لما تقوم به الخدمة حيث يعرفها بقوله: "إنها حركة تُنشِئ نماذجها الذاتية" ونتيجة لذلك يرى أنه يجب تقديم خدمة المتطوعين هذه في إطار عمل إيجابي مستمر لا يترك مجالاً للارتباك والاقتتال والفوضى، يقول كولن: إنه يتم تحقيق ذلك من خلال الاستغناء عن المصلحة الدنيوية والمادية مقابل الخدمة، والالتزام الأخلاقي الذي يبني الثقة، والممارسات الشاملة الجامعة للبشر، والصبر الفعال والسعي الإيجابي الاستباقي للصالح العام"[١٧].

ويمكن القول إن الخدمات التطوعية تسعى لنيل رضا الله فقط، وكولن يشجع جميع الأفراد المتعاطفين مع آرائه على خدمة مجتمعاتهم والإنسانية جمعاء بما يتوافق مع هذا الموقف السلمي المستمر دون مواجهات وبعيدًا عن السياسة. وفي حين قد يرغب النقاد في وصف "الخدمة" على أنها تهديد للوضع الراهن داخل تركيا نفسها، فهناك دليل على أنه سواء داخل حدود الجمهورية التركية أو على المستوى

إن الخدمة -بصورة ضمنية- تقدم التراث القرآني والنبوي عبر مؤسسات المدارس والجامعات والإمداد الطبي ومبادرات الحوار بين الأديان باعتبارهما المصدرين الأساسيين اللذين تستلهم منهما عملها.

nesemat.com نسمات

العالمي شجعت "الخدمة" على التجدد السياسي المتسامح والمفتوح لأفراد المجتمع.

إن الخدمة في كل فاعلياتها تعتمد على النصوص الإسلامية والسيرة النبوية بصورتها التي تمثلت في التقاليد الصوفية الأناضولية، وفي الوقت نفسه تستخدم الخدمة خطابًا حداثيًا في مجال التعليم وتسعى لتحقيق مستوى عال من العلوم التجريبية باعتبارها لغة دولية اليوم. ولذلك نستطيع أن نقول: إن الخدمة وبصورة ضمنية تقدم التراث القرآني والنبوي عبر مؤسسات المدارس والجامعات والإمداد الطبي ومبادرات الحوار بين الأديان باعتبارهما المصدرين الأساسيين اللذين تستلهم الخدمة منهما عملها.

أولوية التعليم

التعليم هو أولوية حركة الخدمة، فغياب العدالة -بحسب كولن- ليس هو فحسب ما يعوق التعليم الجيد بل الاعتراف بحقوق الإنسان وإظهار الاحترام والتسامح تجاه الآخرين كذلك[١٨]،حيث يقول "... إذا كنت ترغب في إبقاء الجماهير تحت السيطرة، فما عليك سوى تجويعهم معرفيًا، ولا يمكن للجماهير الخلاص من هذا الطغيان إلا من خلال التعليم فقط، فالطريق إلى العدالة مرصوف بالتعليم

إن القرآن يخاطب المجتمع بأسره ويوكل إلى المجتمع تنظيم الواجبات المتعلقة بالإدارة، فينبغي على الناس أن يتعاونوا من خلال تقاسم هذه الواجبات المجتمعية، وإنشاء الأسس التنظيمية لأدائهم تلك المهمات.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

العالمي الجيد، وهذا وحده هو ما يمنح الناس الفرصة لتحقيق الفهم والتسامح الكافيين لاحترام حقوق الآخرين. وكما لاحظتُ في السياق الوطني، تركز المدارس على إيجاد مفكرين مستقلين يعرفون القراءة والكتابة حيث سيكونون بدورهم عوامل للتغيير من أجل المساواة واحتضان الجميع والعدالة داخل المجتمع.

من جانب آخر لا نستطيع إغفال " الروحانية" الواضحة في كتابات كولن كما لاحظها ميشيل وهذه الروحانية لا تشمل فقط تعاليم القرآن والسنة، بل تتضمن أيضًا الأخلاق والمنطق والصحة النفسية والعاطفية، فالمصطلحات الأساسية لدى الخدمة هي "الرحمة" و "التسامح"، حيث يعتقد كولن أنه يجب غرس الصفات "غير القابلة للقياس الكمي" في الطلاب إلى جانب التدريب في التخصصات "الدقيقة"[١٩].

والجدير بالذكر هنا أنه لا يوجد منهج واحد تلتزم به المدارس، فهي تعتمد مناهج ومقررات الدولة التي توجد فيها، وهذا يؤدي إلى الانفتاح الشامل الذي يعد سمة معبرة عن "الخدمة"، إلى جانب المثالية المتفائلة عن مستقبل الإنسانية وبناء نظام اجتماعي جديد، ويستشهد كولن على ذلك بقوله: "إن التطورات الهائلة في تكنولوجيا النقل والاتصالات جعلت العالم قرية صغيرة، وفي هذه الظروف ينبغي على جميع شعوب العالم أن تتعلم كيف تشارك هذه القرية فيما بينها، وأن تعيش معًا في سلام وتعاون متبادل، ونحن نعتقد أن ما يجمع الشعوب -بغض النظر عن الإيمان والثقافة والحضارة والعرق واللون والبلد- أكثر مما يفرقهم. وإذا شجعنا عناصر العيش المشترك في سلام وفتحنا عيون الشعوب على الأخطار المدمرة للصراعات والتقاتل، فقد يكون العالم غدًا أفضل مما هو عليه اليوم"[٢٠].

ولو أطلقنا على "الخدمة" تسمية "طريقة" فذلك يمكن أن يكون فقط من جهة أن المتطوعين ينطلقون من دينهم ويؤدون وظيفة الدعوة معتمدين على عالمية الخطاب القرآني والخطاب السنني، ويسعون بجد للوصول إلى حالة الإنسان الكامل. وفي الوقت نفسه فإن من السمات البارزة للخدمة أن المشاركين يقرون ويلتزمون بالعادات الثقافية والتراكيب السياسية للسياق الوطني الذي يعملون فيه سواء في داخل تركيا أو خارجها.

لقد دعم كولن مبادرات هدفها تحقيق المجتمع الديمقراطي المتعدد والحر في تركيا، وفي رؤيته تعد الأخلاق الفردية محورًا رئيسيًّا لبناء وتعزيز العدالة داخل المجتمع، وانطلاقًا من هذه الرؤية فقد دعم كولن المبادرات التركية للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، على أساس أن المجتمع التركي سيحظى بفرصة الاستفادة والتعلم من المنجزات

العلمية الأوروبية، والغريب في الأمر أن الأوساط الإسلامية والعلمانية في ذلك الوقت كانت تقف ضد هذه المبادرات باعتبارها خطرًا على الهوية الإسلامية أو الهوية القومية، بينما كانت النتيجة المنطقية لمبادرة الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي هي مزيد من فرص الحوار والتسامح والتعايش وتكوين العلاقات مع مختلف الأعراق والأديان[٢١].

موقف كولن من الإسلام السياسي

ينتقد كولن "دور الدين في السياسة"، ويعارض باستمرار المشاركة المباشرة في السياسة الحزبية لأن العالم الحديث موجود في "تجربة تعددية" ويتخذ موقفًا مضادًا ضد هؤلاء الذين ينزلون الدين إلى مستوى الأيديولوجية السياسية[٢٢].

إنه ليس مع أولئك الذين خلقوا صورة سلبية عن الإسلام من خلال تحويل الإسلام إلى أيديولوجية، كما يؤكد دائمًا على التمييز بين الإسلام والإسلاموية؛ فهو ليس من أنصار استخدام الإسلام كأيديولوجية سياسية وفلسفة حزبية، تقوم باستقطاب المجتمع وتقسيمه إلى المؤمنين وغير المؤمنين، بل إنه يدعو أولئك الذين يفكرون بطرق مختلفة إلى احترام بعضهم البعض وإلى التسامح ودعم السلام والمصالحة.

ومن وجهة نظري فإن جهود الأستاذ كولن ستساعدنا في فهم المكانة الحقيقية للدين[٢٣]، فالأستاذ كولن يرى أن القرآن يخاطب المجتمع بأسره ويوكل إلى المجتمع تنظيم الواجبات المتعلقة بالإدارة، وبالتالي ينبغي على الناس أن يتعاونوا من خلال

إن "الخدمة" تلعب دور الوسيط المجتمعي؛ حيث تدعو المجتمع إلى تحمل مسؤوليته ضمن الحدود القانونية، وتساعد على إنشاء مساحات عامة مشتركة للتوصل إلى اتفاق حول تقاسم المسؤولية في إطار الفعل المجتمعي.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

تقاسم هذه الواجبات المجتمعية، وإنشاء الأسس التنظيمية لأدائهم تلك المهمات. والإسلام يوصي بأن تكون الحكومة مؤسسة وفقًا لعقد اجتماعي ينتخب الناس المسؤولين ويقومون بإنشاء مجلس لمناقشة القضايا المشتركة، وأن يشارك المجتمع ككل في مراقبة وتقويم الإدارة[٢٤]، والنظم الديمقراطية الحديثة تقوم بذلك من خلال الحكومة والبرلمان.

إن كولن يسعى إلى الإجابة عن الأسئلة التي يقدمها جميع الأشخاص في المجتمعات الحديثة المعقدة مثل: كيفية تطوير الصفات الإنسانية، والسلوك الجيد، وحب الآخرين، وتحسين الذات، والرغبة في خدمة الآخرين، وإحداث تغيير إيجابي في العالم، والمثابرة في مواجهة النكسات والفشل[٢٥]، وبالتالي فـ"الخدمة" تلعب دور الوسيط المجتمعي؛ حيث تدعو المجتمع إلى تحمل مسؤوليته ضمن الحدود القانونية، وتساعد على إنشاء مساحات عامة مشتركة للتوصل إلى اتفاق حول تقاسم المسؤولية في إطار الفعل المجتمعي، بما يتجاوز مصالح الحزب السياسي أو وظائفه. وهذا بدوره يولد طاقات الأفراد المبتكرة، ويبقي النظام مفتوحًا للجميع، وينتج ابتكارات وحركات جديدة،

إن كولن يشجع جميع الأفراد المتعاطفين مع آرائه على خدمة مجتمعاتهم والإنسانية جمعاء بما يتوافق مع هذا الموقف السلمي المستمر دون مواجهات وبعيدًا عن السياسة.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

ويطور النخب الثقافية، ويعمل على المناطق والمجالات التي تم استبعادها وتهميشها، ويركز الضوء على الإشكالات الحقيقية داعيًا للعمل من أجل الوصول إلى مجتمع ديمقراطي مفتوح.

نحتاج أن نتذكر أن الأستاذ كولن بدأ عمله بفعالية في فترة من التاريخ التركي تميزت بالانقسامات المصطنعة بين الناس، حيث كان التطرف الأيديولوجي وما يكتنفه من صراعات هو المسيطر في المجتمع[٢٦]، الأمر الذي قوض الأمن والاستقرار، وقد أكد كولن أن علاج هذا الوضع الأليم يكمن في التعليم باعتباره مركز التحديث الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ووسيلة التقدم والرفاهية. فإذا تلقى الأفراد تعليمًا جيدًا فسيُكوِّنون مجتمعًا يحترم سيادة القانون وحقوق الإنسان والتنوع والاختلاف والثقافات الأخرى، فالأشخاص المستنيرون الذين يتمتعون بالخلق القويم ويمارسون أنشطة إيثارية قادرون على تحقيق العدالة الاجتماعية والسلام في المجتمع وفي العالم، فالتعليم هو العلاج الأنجع للأمراض التي تصيب المجتمع[٢٧].

لقد قدم النموذج التعليمي "للخدمة" -بالفعل- في أثناء تطوره من مدينة أزمير عام ١٩٨٤ حلولاً للمناطق التي تعاني من مشكلات عرقية – إقليمية، وجعلت الخلافات قابلة للتفاوض، ودعت الطلاب وغيرهم إلى التعايش بسلام في التنوع. ودعت إلى الحوار بين مختلف أطياف المجتمع وبين مختلف التقاليد العرقية والدينية حول العالم، ودائما تدعو إلى السلام والمحبة، الأمر الذي اجتذب كثيرًا من رواد الأعمال الذين أسهموا لخدمة تلك الأهداف، فأنشأوا مدارس ومؤسسات الخدمة في أكثر من ١٠٠ دولة حول العالم. وهكذا نستطيع أن نرى أن العمل الإيثاري يدعونا إلى البحث عن التغيير وتحمل المسؤولية، فهو يعطي الأفراد صوتًا في المجتمع ويمكن الفرد والجمهور من استيعاب مساحة الاختلاف، وتعزيز التضامن من أجل السلام والتماسك الاجتماعي[٢٨].

إن طبيعة "الخدمة" هي حالة من نكران الذات من أجل خير المجتمع والإنسانية، فالمتطوعون لا يسعون لتحقيق طموحات شخصية أو مادية أو سياسية، وبالتالي فاهتمام الخدمة اجتماعي، لأن التفاعلات مبنية على العلاقات الاجتماعية وتحددها الروابط المتبادلة التي تربط الناس ببعضهم البعض. وهذا في حد ذاته يعد هدفًا لأن الأفراد والجماعات يعملون بشكل جماعي لبناء ما يعبر عنهم باعتبارهم مجتمعًا مدنيًا. إن الخدمة -في الأساس- مبادرة مدنية وأيضًا حركة مجتمع مدني، فهي ليست مثيرة للجدل أو معارضة أو متعارضة أو سياسية. لقد بدأت نموذجًا للخدمة الإيمانية، وهي تشبه إلى حد كبير الصوفية ولكنها ليست كذلك فقط، إنها حركة إنسانية غير سياسية ومبادرة إيثارية للمتطوعين

تقوم على أساس تغيير الفرد وتعليمه. كما يركز جزء من هذا التعليم أيضًا على زيادة وعي الفرد حول الحقوق القانونية وحقوق الإنسان المحددة دستوريًا، وتعمل على تقوية التعددية الديمقراطية التشاركية والمساواة في الحقوق بين الجنسين.

لقد تم الاعتراف بالدور الإيجابي الذي تقوم به الخدمة في مجال الحوار بين الثقافات والأديان، لذلك فالعمل الجماعي للحركة هو نتيجة الجمع بين معانيها وقيمها ونواياها وأهدافها وأعمالها ونتائجها، لذلك فـ "الخدمة" تقدم نفسها إلى الجمهور الأوسع (الإنسانية جمعاء) وتتفاعل معه، وتقوم بذلك ضمن الحدود القانونية، وقد أظهرت ديمومة ومثابرة في الحفاظ على مسارها باعتبارها "قوة ناعمة" ضمن هوية متماسكة وسلمية داخل وخارج بلد المنشأ.

المشاركة الجمعية

إذا نظرنا إلى الحركات ذات الإستراتيجيات السياسية العلنية في المقام الأول فسنجد أنها تسعى إلى تغيير الحقائق الخارجية للمجتمع وغالبًا ما يكون لها أهداف مادية محددة، وتميل إلى التركيز على التغيير على مستوى الحكومة أو على المستوى الاقتصادي، أو تنحو لفرض اتجاه سياسي معين. لكن إذا وجهنا نظرنا إلى الحركات ذات البعد الإيماني فسنجدها تميل إلى التحول الداخلي باعتباره وسيلة وهدفًا للتغيير في أنظمة القيم؛ مستهدفة الحفاظ على المجتمع أو تجديده من خلال التركيز على الأفكار والمعتقدات والقيم والمعايير والهويات(٢٩).

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن طبيعة "الخدمة" هي حالة من نكران الذات من أجل خير المجتمع والإنسانية، فالمتطوعون لا يسعون لتحقيق طموحات شخصية أو مادية أو سياسية.

وهذا ما يفعله كولن؛ فهو يحاول في كتاباته حشد العناصر الروحية العالمية ضمن التقاليد والرموز والتعابير (الإسلامية/ الصوفية) الموروثة من أجل النهوض بأنظمة رمزية جديدة تقيم مستقبلاً جديدًا وترشد إليه. ومن المثير للاهتمام أن هذا النهج ذو طبيعة شاملة لا يرتبط بثقافة أو تراث أو هوية وطنية واحدة.

لقد نشأت الخدمة في تركيا ولكنها أصبحت عابرة للحدود بشكل متزايد، وهي تمثل مقاربة جديدة للعلاقة بين الإيمان والعقل والتعايش السلمي في الديمقراطيات الليبرالية مع التنوع الديني والتعليم الروحي(٣٠)، وبالتالي فهي ليست قوى معادية لمواقف معارضة. لقد تجنبت الحركة بشكل منهجي العمل السياسي المباشر المثير للجدل، وبدلاً من التوجه العدائي، قامت بجهود على مستوى الفضاء الإعلامي لتنشيط الحياة الديمقراطية، كما قامت بجهود للجمع بين الأفراد والجماعات المتعادية لحثهم على التعاون المشترك من أجل خدمة المجتمع.

ومن الأمثلة البارزة على هذه الجهود إنشاء "مؤسسة الصحفيين والكتاب" في تركيا، التي جمعت بين الأكاديميين والعلماء ورجال الدولة والصحفيين الذين يتبنون وجهات نظر مختلفة وحتى متضاربة في

لقد تم الاعتراف بالدور الإيجابي الذي تقوم به الخدمة في مجال الحوار بين الثقافات والأديان، لذلك فالعمل الجماعي للحركة هو نتيجة الجمع بين معانيها وقيمها ونواياها وأهدافها وأعمالها ونتائجها.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

منتدى "أبانت" وفي المؤتمرات المختلفة، حيث تُواصلُ من خلال هذه المنصات إبراز الأمور العاجلة إلى الواجهة للمشاركة في روح بناءة من أجل العمل على علاجها، والبدء في مفاوضات بشأن القضايا التي تسببت في توترات واشتباكات على مدى عقود.

لقد حظي "منتدى أبانت" على وجه الخصوص بتقدير واسع النطاق كمنتدى فعال لحل المعضلات التي يتوق الكثير من الناس في المجتمع التركي إلى مناقشتها وحلها بشكل مفتوح، وهكذا أسهمت الخدمة في تدريب المجتمع على إمكانية العيش المشترك، والإحساس المشترك بالمواطنة دون الحاجة إلى الصدام، وعلى أساس من الاحترام المتبادل والوصول إلى الحل الوسط.

ونظرًا لأن القضايا التي يتم مناقشتها تدخل حيزًا عامًا فهي تصل إلى دوائر صنع القرار، مما يحول المبادرات إلى إمكانيات للتغيير الاجتماعي دون أي مواجهة عدائية أو استفزازية، فهذه المبادرات تسمح بخلق مساحة للحديث وبالتحدث دون جدال وباحترام الغير والاستماع إلى وجهة نظره. ومن ثم فهذه المبادرات تخلق نوعًا آخر من الحوار يختلف عن الحوار التصادمي مع الأنظمة وقوى صنع القرار داخل الدولة، ولكنه لا يثير الحفيظة، لأن الأستاذ كولن يعلم بحكمة الدور المناسب للمؤسسات الاجتماعية، وبالتالي يساعد في تحديد ما يمكن أن تصبح عليه الديمقراطية التشاركية دون الدخول في دوامات الصراع[٣١].

إن الحراك الجمعي مثل الخدمة يقدم نموذجًا جديدًا، فهو يعيد تعريف الفضاء العام، ويعيد إنتاج قواعد جديدة للإدراك وبالتالي ينتج واقعًا يتجاوز ما هو موصوف في خطاب الهيمنة الحالي. كما تمتلك الخدمة خطابًا واضحًا، دائمًا يقوم على أهمية الحوار سواء الديني أو السياسي بين الفاعلين الاجتماعيين المنفصلين. ومع ذلك، فقد أثارت هذه الفعاليات- كما هو الحال مع الحركات الاجتماعية الأخرى- حفيظة مجموعات القوى القائمة في تركيا وخارجها؛ فأي حراك جمعي لم تبدأه مؤسسة السلطة، يُنظر إليه باستياء من تلك المؤسسة لأنها تميل إلى اعتبار أي عمل جماعي مستقل تهديدًا محتملاً عليها، وإذا أثبت الحراك الجماعي المستقل نجاحه أو فعاليته، تتجمع مؤسسة السلطة ضده، بمنطق أنه تعدى على أرضيات تحتاج مجموعات المصالح الخاصة إلى احتكارها من أجل متابعة مشاريعها وخططها المعينة والاحتفاظ بسلطتها.

ورغم ذلك فإن جوهر الحركة هو التعليم الذي يعالج العلاقات بين الناس، وبين الإنسان ونفسه وينعكس على السلوك الفردي للإنسان. لذلك لا تشجع الخدمة المنطق العدائي للتغيير، سواء في تركيا أو في أي مكان آخر، ويشجع الأستاذ كولن الناس

على خدمة الإنسانية من خلال التعليم ومن خلال مؤسسات الحوار بين الثقافات والأديان، مستهدفًا سد الفجوات بين الشعوب وإقامة روابط من أجل الصالح المشترك والسلام العالمي. وقد أوضح كولن أن أكبر ثلاثة أعداء للمجتمع هم الجهل والفقر والانشقاق الداخلي. والمعرفة ورأس المال الفعال والاتفاق هي العلاج الفعال للقضاء على هؤلاء الأعداء الثلاثة المتربصين بالمجتمع، لكن الجهل هو المشكلة الأكثر خطورة بينهم، وهزيمته من خلال التعليم يعد دائمًا أهم وسيلة لخدمة الآخرين، فالتعليم هو الأداة الأكثر فاعلية للتغيير الإيجابي. إن علاج كل مشكلة في حياة البشر تعتمد في النهاية على مبادرة وقدرات البشر أنفسهم، وبالتالي فتخفيف حدة الفقر يتم من خلال العمل وحيازة رأس المال من أجل بذله في خدمة الآخرين. أما الانشقاق الداخلي فالتغلب عليه يتم عبر السعي لنشر قيم الحوار والتسامح، والعيش المشترك[٣٢].

لقد قدمت الخدمة صورة زمنية لرحلة مستمرة لهجرة شارك فيها المسلمون بشكل مستمر منذ أن هاجر النبي ﷺ في الظروف الخطرة إلى مدينة ليست مسلمة، وما تقوم به الخدمة اليوم هو تلبية لدعوة تلك الهجرة الأصلية. وكذلك قدمت صورة زمنية للجهاد الحقيقي والنضال الروحي الداخلي والخارجي مع القوى الأنانية الجماعية السياسية المنتشرة. إنه سرد للأبعاد والرموز الأخروية، إن الخدمة تمثل المفهوم القرآني لشخصية النبي محمد ﷺ ذلك الإنسان الكامل، وعلى كل شخص يعترف بشرفه وقدره أن يقتضي به ويكون رحمة للعالمين"■

يشجع الأستاذ كولن الناس على خدمة الإنسانية من خلال التعليم ومن خلال مؤسسات الحوار بين الثقافات والأديان، مستهدفًا سد الفجوات بين الشعوب وإقامة روابط من أجل الصالح المشترك والسلام العالمي.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الهوامش

***ترجمة: صالح القاضي**

(١) Bulac, Ali "The Most Recent Reviver in the 'Ulama Tradition" in Robert A. Hunt & Yüksel A. Aslandogan[eds] Muslim Citizens of the Globalized World: Contributions of the Gülen Movement. Somerset, NJ, USA, The Light, Inc & IID Press, 2007.100102-.

(٢) Zald, M & McCarthy, J "Religious Groups as Crucibles of Social Movements" in Denerath, N.J, Hall, P.D, Schmitt, T, & Williams, R.H Sacred Companies: Organizational Aspects of Religion and Religious Aspects of Organizations, Oxford, Oxford University press, 1998. 329.

(٣) Melucci, A. Challenging Codes: Collective action in the information age. Cambridge, Cambridge University Press. (Reprinted 1999; First edition 1996.) Michel, Thomas, Sufism and Modernity in the Thought of Fethullah Gülen. The Muslim World, Special Issue, Islam in Contemporary Turkey: the Contributions of Gülen, 95(3), 2005, 2030-.

(٤) Melucci 1999; 113

(٥) Edwards, B. & McCarthy, J. D. Resources and Social Movement Mobilistion. In: Snow, D. A., Soule, S.A. & Kriesi, H. eds. The Blackwell Companion to Social Movements. Oxford, Blackwell, 116–52, 2004.120.

(٦) Earl, J. (2004) Cultural Consequences of social

Movements. In: Snow, D. A., Soule, S.A. & Kriesi, H. eds. Framing Processes, Ideology, and Discursive Fields, The Blackwell Companion to Social Movements. Oxford, Blackwell 2004.513.

(٧) Koopmans, R. Protest in Time and Space: The Evolution of Waves of Contention. In: Snow, D. A., Soule, S.A. & Kriesi, H. eds. 2004.25.

(٨) White, Jenny B. Islamist Mobilization in Turkey: A Study in Vernacular Politics, Seattle, University of Washington Press, 2002.112.

(٩) Gülen, Fethullah, Criteria or Lights of the Way. London, Truestar, 2000.21.

(١٠) Zald, M & McCarthy, J "Religious Groups as Crucibles of Social Movements" in Denerath, N.J, Hall, P.D, Schmitt, T, & Williams, R.H Sacred Companies: Organizational Aspects of Religion and Religious Aspects of Organizations, Oxford, Oxford University press, 1998, 226.

(١١) Hefner, R. W. ed. Democratic Civility: The History and Cross-Cultural Possibility of a Modern Political Ideal. New Brunswick, Transaction Publishers 2004.10.

(١٢) Weller, P. G. Religions and Social Capital: Theses on Religion(s), State(s) and Society(ies) with Particular Reference to the United Kingdom and the European Union, in The Journal of International Migration and Integration XI(2), 2005, 272.

(١٣) Gülen, Fethullah Toward a Global Civilization of Love and Tolerance. Somerset, New Jersey, The Light Inc, 2004.199.

(١٤) Ahmad, F 'The Historical Background of Turkey's Foreign Policy' in Martin, L.G & Keridis, D, The Future of Turkish Foreign Policy, Cambridge, Mass, MIT Press, 2004.9.

(١٥) لاهوت التحرير هو مزيج من اللاهوت المسيحي والتحليلات الاجتماعية-الاقتصادية الماركسية، التي تشدد على الاهتمام الاجتماعي بالفقراء، والتحرر السياسي للشعوب المضطهدة، وهو ما كان يمثل الممارسة السياسية لعلماء الدين في أمريكا اللاتينية في خمسينيات وستينيات القرن العشرين. (المحرر)

(١٦) Koopmans, R. Protest in Time and Space: The Evolution of Waves of Contention. In: Snow, D. A., Soule, S.A. & Kriesi, H. eds. 2004.3.

(١٧) Gülen, Fethullah Toward a Global Civilization of Love and Tolerance. Somerset, New Jersey, The Light Inc, 2004.210214-.

(١٨) Ünal, A. & Williams, A. Fethullah Gülen: Advocate of Dialogue. Fairfax, VA, The Fountain, 2000.2223-.

(١٩) Michel, Thomas, 'Gülen as Educator and Religious Leader.' In: The Fountain (2006), 110)

(٢٠) Ünal, A. & Williams, A. Fethullah Gülen: Advocate of Dialogue. Fairfax, VA, The Fountain, 2000.277.

(٢١) Yilmaz, I. 'State, Law, Civil Society and Islam' in Contemporary Turkey. The Muslim World Special Issue, Islam in Contemporary Turkey: the Contributions of Gülen, 95(3), 2005, 399.

(٢٢) Yilmaz 2005. 397; Unal & Williams 2000. 36

(٢٣) Unal & Williams 2000. 158.

(٢٤) Gülen 2004. 223.

(٢٥) Michel, Thomas, 'Gülen as Educator and Religious Leader.' In: The Fountain (2006), 354.

(٢٦) Çetin, M. Voluntary Altruistic Action: Its Symbolic Challenge against Sinecures of Vested Interests. Presented at second Annual Conference on Islam in the Contemporary World: The Fethullah Gülen Movement in Thought and Practice, organized by the Department of Religious Studies at the University of Oklahoma, Norman, Oklahoma, the Institute of Interfaith Dialog, Texas, and Petree College of Art and Sciences at Oklahoma City University, November 3–5, 2006, at University of Oklahoma, Norman, Oklahoma, U.S.A, pp.21.

(٢٧) Gülen 2000. 4.

(٢٨) Aslandogan & Çetin, 2007:46–59.

(٢٩) Melucci 1999. 156.

(٣٠) Aslandogan, Y. A. & Çetin, M. 'Gülen's Educational Paradigm in Thought and Practice. In: Hunt, R. A. & Aslandogan, Y. A. Muslim Citizens of the Globalized World: Contributions of the Gülen Movement. Somerset, New Jersey, IID Press & The Light Inc, 2007.vii.

(٣١) Weller, P. G, 'Fethullah Gülen, Religions, Globalization and Dialog. In: Hunt, R. A. & Aslandogan, Y. A. (2007) Muslim Citizens of the Globalized World: Contributions of the Gülen Movement, 2007.86.

(٣٢) Ünal, A. & Williams, A. Fethullah Gülen: Advocate of Dialogue. Fairfax, VA, The Fountain, 2000.305331-.

التلال الزمردية
مقاربة معاصرة لفهم التصوف

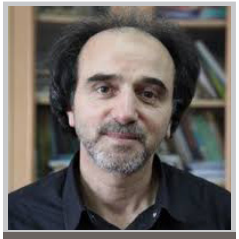

أنس أركنه

تخرج في كلية العلوم الدينية بجامعة ٩ أيلول، وعمل لسنوات عديدة كاتبًا وصحفيًا بجريدة زمان التركية، كما عمل مستشارًا أكاديميًا لعدد من دور النشر، وله كتاب تحت عنوان "فتح الله كولن، جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية" وقد ترجم إلى العديد من اللغات

إن كتاب التلال الزمردية يُشكِّل تصديًا للانحرافات الصوفية والفكرية والقلبية، وهو في ذات الوقت يُعدُّ نوعًا من الدفيئة والحصن ضد النزعات المادية والعقلانية التي تهدد النفس الإسلامية، ونتاج جهود تسعى إلى أن تجذب من جديد العمليات الفكرية والعقلية والقلبية المشتتة إلى قلب التقاليد ومركزها.

أما الدراسة التي بين أيدينا فهي بحث مهم لفهم الفكر الصوفي الإسلامي ومنطلقاته وموضعه داخل المنظومة الدينية بلا إفراط أو تفريط وبالاستناد على النصوص الشرعية الأصلية. وفي هذه الدراسة يجول الكاتب جولة عميقة بين مختلف الأزمنة والشخصيات، ويحلق بنا في أفق الجزء الثاني من كتاب التلال الزمردية للأستاذ فتح الله كولن، حيث يلتقط لنا بعضًا من ثمرات ذلك الكتاب الذي يعد -وبحق- رؤية جديدة تسهم في إثراء الفكر الصوفي.

لقد اضطلع التصوُّفُ بدور بارزٍ في تشكيل المجتمعات الإسلامية على مر العصور، فلم يبتعد المسلمون عن الواردات الصوفية في أية حقبة، وصار التصوُّفُ وسيلة شوق واشتياق للبقاء في دائرة الإسلام، وطريقة جذابة للوعي الإسلامي، خاصة بالنسبة للجموع الغفيرة من الناس، لذلك فإن الحضارة الإسلامية حضارة "تصوف، ومعنى وعرفان" بقدر ما هي حضارة "فقه ومنهجية".

وبهذا التأثير الواسع للتصوّف الإسلامي، تظهر لنا الحدود الميتافيزيقية التي تمتد إليها النظرة الإسلامية العالمية، فيما وراء الحقائق الذهنية والفكرية والاجتماعية لعقيدة التوحيد الإسلامي ومفهومه، ومن زاوية أخرى يمثل التصوُّف إشارة واضحة إلى مدى حساسية المسلمين تجاه مُثُلهم المعنوية والأخلاقية، لذلك صار التصوف روحًا للتقاليد الإسلامية التي تبعث الحياة في كل عصر، ودون معرفة المبادئ والدعائم الأساسية للتصوف الإسلامي لا يمكن فهم وكشف منطق الدور الخاص الذي لعبه التصوّف قرونًا طويلة في الفكر والمجتمعات الإسلامية.

التوحيد هو حقيقة التصوف

إن التصوف الإسلامي وفلسفته يقومان على "التوحيد" (أي: حقيقة وحدانية الله تعالى) في كل المجالات، وذلك على النقيض من الفلسفة التعددية الغربية (المفهوم التعددي بأشكاله). وإن إرادةَ الله وعلمه وقدرته المحيطة تشمل كلًّا من التسلسل الهرمي للمعرفة (الأبستيمولوجيا) وكل أنواع الفعل الإنساني أيضًا.. وبعبارة أخرى: التوحيد هو المبدأ الأساس الذي يفسر وجود الإنسان على الأرض ورسالته فيها، ومفهوم التوحيد يمثل حقيقة حية ونابضة في كل لحظة من حياة المسلمين، ويدور المحور الرئيس للتصوف الإسلامي حول هذا التوحيد..

ونظرًا لأن العديد من الباحثين الغربيين عجزوا عن أن يدركوا مفهوم التوحيد المتأصل في الفكر الإسلامي إدراكًا صحيحًا زعموا عدم وجود صورة موحدة متفق عليها في التصوف الإسلامي.. والحقيقة أنه يكمن في أساس هذه الادعاءات تأثير عميق لحقيقة أن الفهم الغربي للمعرفة ذو طابع تعددي؛ لأن المفكر الغربي العادي ينظر إلى الإنسان والتاريخ والمجتمع والثقافة من منظور الجدلية التعددية، فـ"التعددية" تهيمن على طريقة التفكير في الغرب في كل المجالات، وتاريخ الغرب في جدلية الأفكار والمدارس والصراعات والاختلافات "تاريخ صراع" كامل، وهم يتعاملون مع قضايا الفكر والإيمان في العالم الإسلامي من هذه النقطة الجدلية.

أجل، إذا نظرنا إلى لغة الصوفية المؤسّسين وتعاريفهم لمفهوم التصوف والحياة الصوفية يتضح أن هناك تنوّعًا ملحوظًا.. والواقع أنه بقدر ما يعتمد هذا التمايز على ملاحظات مختلفة؛ فإنه يشير إلى مستويات مختلفة أيضًا من الذكاء والكفاءة والعناية الإلهية، ولكن عند النظر إلى الأمر من منظور أوسع، يتضح أن التصوف الإسلامي تشكَّل بالكامل في فلك "التوحيد" وضمن التقاليد الإسلامية...

والسمة الأبرز للمتصوفين المسلمين هي محاولتهم وسعيهم الدائم للوصول إلى التوحيد رغم اختلاف ملاحظاتهم التي يستندون إليها، فمفهوم التوحيد يشمل التجارب الصوفية جميعها بكل أعماقها وتفاصيلها، وعليه فليس هناك أيُّ تباين في أساس التوحيد.

نعم، لقد أنتجت التجارب الروحية والعرفانية المتنوعة مدارس صوفية مختلفة، وقد اكتسبت كل مدرسة على مرّ التاريخ نمط الطرق الصوفية، حيث شكلت أساليبها وآدابها وأركانها ومراسمها الخاصة بها تدريجيًّا، ومع ذلك، فإن التصوف والعرفان الإسلامي لم يضرا أبدًا بالروح التوحيدية وبنية التقاليد الإسلامية؛ بل إنه شَكَّل واحدةً من أكثر التجارب عمقًا وحماسةً في البنية التوحيدية للحضارة الإسلامية، وتجاهلًا لهذه الحقيقة، اعتبر بعض الباحثين الغربيين التصوف الإسلامي بعيد كل البعد عن الدين الإسلامي.

اتجاهات نقدية غير موضوعية

ولا ريب أن الفهم السلفي والحداثي في العالم الإسلامي قد ساهما في تكوّن مثل هذا الرأي، ففي مثل هذه المقاربات، أمكن عزل التصوف الإسلامي عن المظهر العام للحضارة الإسلامية، لدرجة أنه أصبح يُختزل في مجموعة من التجارب الروحانية الفردية أو اليوغا أو الجلسات التأملية! وهذا بطبيعة الحال غيرُ مقبول من حيث الحقائق التاريخية ومن حيث قدرة الإسلام على إنتاج تجربة روحية واسعة،

nesemat.com نسمات nesemat.com

يعد التوحيد هو المبدأ الأساس الذي يفسر وجود الإنسان على الأرض ورسالته فيها، ومفهوم التوحيد يمثل حقيقة حية ونابضة في كل لحظة من حياة المسلمين.

وكما يعلم كل باحث حكيم ومنصف، أنه على الرغم من استخدام المصطلح الصوفي بأشكال وأنماط تعبيرية مختلفة في الظاهر، إلا أنه ظل دائمًا ضمن الإطار والحدود العامة للأصول والنصوص الإسلامية، وعلى الرغم من وقوع بعض الظواهر التي تخل بحدود التشريع الإسلامي بين الحين والآخر.

إلا أن التصوف الإسلامي -ككلّ- لم يتجه أبدًا إلى تجاوز الإسلام من الداخل، ولم يتسبب في أي انحراف وانحلال في الشخصية الثقافية الإسلامية، يقال إن بعض الاتجاهات التي تتعارض مع المظهر والتقاليد الصوفية المركزية في التاريخ الإسلامي تحاول أن تلقي بظلال انتقادها على التقاليد الصوفية بشكل عام، وبغض النظر عن مستوى التأثير الذي أحدثته تلك الاتجاهات، إلا أنها لم تستطع أن تُبعد التصوف الإسلامي عن المبادئ والقيم المركزية للتشريع، كما حاولنا التعبير عنه؛ حيث لم تجد هذه العناصر أية قاعدة جماهيرية واسعة أبدًا، وظلت دائمًا مجرد ظاهرة استثنائية.

أبعاد الفكر في الحضارة الإسلامية

ومما لا شك فيه أن النفوذ بشكل أفضل إلى جزئيات التصوف الإسلامي يتطلّب عزمًا على القيام برحلة

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن التصوف والعرفان الإسلامي لم يضرا أبدًا بالروح التوحيدية وبنية التقاليد الإسلامية؛ بل إنه شَكَّل واحدة من أكثر التجارب عمقًا وحماسةً في البنية التوحيدية للحضارة الإسلامية.

طويلة وعميقة صوب أعماق العرفان، ولا شك أن سباقًا طويلًا كهذا يستدعي مطالعة جميع مظاهر التاريخ الصوفي الإسلامي الحافل.

سأتطرق إلى ملامح العمل الذي قام به الأستاذ المحترم محمد فتح الله كولن، وسأركّز على ثلاثة مظاهر وأبعاد مختلفة للدين والثقافة والحضارة والتقاليد الإسلامية؛ لأنه ما لم تُفهم هذه الأبعاد الإسلامية الثلاثة فهمًا جيدًا، بمعنى ما، فلن يُفهم أيضًا كيف يطبق المسلمون دينهم، وكيف يعبرون عن معتقداتهم وعن مفهومهم للأشياء، وكيف يُفصحون عن جهودهم للتقرب إلى الله، ومع هذا فإننا، وبدون الدخول في تكهنات طويلة يُسعى إلى إنتاجها وتسويقها فيما يتعلق بأصل التصوف الإسلامي وهيكله ونظامه العرفاني؛ سنكون قد ذكرنا مكانته بين التقاليد الأساسية، وباختصار إنني سأحاول الكشف عن ثلاثة أنظمة مختلفة من المعرفة والحكمة تمنح الثقافة الإسلامية هويتها الأساسية لعدة قرون، وذلك من خلال تناول حديث اشتهر في علم الحديث باسم "حديث جبريل":

عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا"، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ"، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: "أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ".

وفي بقية الحديث يسأل ذلك السائلُ النبي ﷺ عن الساعة، فيجيبه عليه السلام "مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ"... قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: "يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟"، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ".

تحتوي هذه العبارات بيانًا بسيطًا وواضحًا للغاية، ولكنها تبرز لاحقًا ثلاثة أبعاد ومظاهر مختلفة للفكر والحضارة الإسلامية، وعليه فإن الفكر الإسلامي عرف الحياة الدينية في ثلاثة فروع مختلفة؛ الإيمان والإسلام والإحسان، ومع أن هذا التعريف لا يرد في القرآن صراحة، إلا أن مضمون العديد من الآيات ومدلولها يعبر عن هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد ركّز على مر القرون كلٌّ من العلماء التقليديين والمفكرين الإسلاميين المعاصرين

على هذه الأبعاد الثلاثة المختلفة للإسلام.

البعدُ الأول هو الإيمان: ويشكل ركيزةَ أسس المعتقدات الإسلامية، أي إنه يشمل "الإيمان والعقيدة"، وسرعان ما أنتجت صياغة هذه المبادئ نظامًا ومظهرًا مهمًّا تجسّد في علم العقيدة وعلم الكلام الإسلامي، ولقد خدم علم العقيدة والكلام الإسلامي مسيرة وضْع وترسيخ الأسس الإسلامية للتفكير والاعتقاد الصحيح على مر العصور، فالإسلام يقدم نظامًا عقديًّا تفصيليًّا فيما يتعلق بكيفية الإيمان، إنه يرسم لوحة واسعة وشاملة للإيمان في مسألة كيفية فهم النفس والبيئة والعالم.

وكيفية تحديد صفات الله وأسمائه وإرادته ومشيئته وقدرته، ووجود الله ووحدانيته، والملائكة والكتب والأنبياء.. إنه يقدم خريطة واسعة تتضمن مختلف مجالات الحياة البشرية مثل أفعال الإنسان وإرادته الجزئية ومسؤوليته والحساب والقدر والآخرة والمعاد.. كل هذا مجال يتمتع فيه الإيمان بتعبير قوي ومعرفة سليمة لغة وفكرًا، والمسلمون مُلزَمون بالكشف والتعبير عن إيمانهم في كل هذه المجالات. أجل، فالإيمان يشكل بُعدَ الكلام والعقيدة في الحضارة الإسلامية.

البعد الثاني هو الإسلام: وهو في الثقافة الإسلامية، يحتوي على الأركان الأساسية الخمسة، وقد أفرز تفصيل القول في هذه الأسس "منهجية التشريع والفقه الإسلامي" بعد قرون طويلة، وكان فقهاء ومجتهدو الإسلام ينطلقون من هذا الأساس في إصدار الأحكام المنظمة لحياة المسلمين الدينية

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن التصوف هو رحلةُ عرفان، ونظام المعرفة والحكمة الأعمق والأكثر تميزًا فيما يتعلق بـ"الله-الكون-الإنسان"، وتجربة خاصة للغاية تحقّق التطور والتحول الروحي والقلبي والمعنوي.

والاجتماعية على مدار تاريخ طويل، ويمكن القول إن أصول التشريع الإسلامي وفروعه هي البعد الأكثر تميزًا في الحضارة الإسلامية، هذا البعد هو مجال الإسلام والاستسلام، وهو يكشف لنا عن المظهر الخارجي للمنهج الإسلامي بشكل عام، وهو عبارة عن الأوامر والنواهي، والممارسات القرآنية والنبوية، ومعه تراث الشريعة الإسلامية الذي تم تدوينه، والنوازل والمدونات الفقهية الخاصة بالأصول والفروع التي أنتجها ونقّحها المشرعون المسلمون من الأصول الإسلامية على مر العصو، وقد أنتج هذا فكرًا ومنهجية نظاميةً هكذا لدرجة أنه لم يتسنَّ لأي دين أو حضارة إنتاج مثل هذا الفكر النظامي والانضباط التشريعي، ومن هذه الزاوية يمكن القول: إن التراثَ الحقوقي الإسلامي معجزةٌ إسلامية مذهلة.

البعد الثالث هو الإحسان: والذي ورد ذكره أيضًا في الحديث، ويمكننا أن نحمل هذا البعد على التصوف في الثقافة الإسلامية، ومما لا شك فيه أن مبدأ الإحسان هو مبدأ أساس لجأ إليه الفقهاء وعلماء الكلام والأصوليون على حد سواء من وقت لآخر، إلا أن الصوفية تبحَّروا في هذا المبدأ بشكل أعمق وبمزيد من التفصيل والتدقيق؛ فقد تناولوه

nesemat.com نسمات nesemat.com

حين طور الفقه والكلام أسسًا أكثر منطقية وعقلانية تحافظ على المسافة ما بين العبد وربّه، أراد الصوفية جعل هذه العلاقة أكثر حيوية وإحساسًا وقربًا.

كمجال من مجالات القلب، وبينما يركز الفقهاء على السلوكيات أو الأفعال الصحيحة؛ ويركز علماء الكلام على نقطتي التفكير والإيمان الصحيحتين؛ ركز الصوفية على الرؤية الصحيحة والمشاهدة الحقيقية عبر حصرهما في مجال القلب.. ويمكننا أن نعرف هذه الأبعاد الثلاثة بأنها تخصّ الجسد واللسان والقلب، الأول يعبر عن ساحة الفقهاء، والثاني عن ساحة علماء الكلام، والثالث عن ساحة الصوفية، وقد وسّع الصوفية مجال الإحسان والقلب إلى الحدود التي تزيد عن دائرة الفقهاء والكلاميّين، وأنشؤوا نظامًا صوفيًّا خاصًّا في هذا المجال، وهم بهذا العمق أبرزوا التجربة المعنوية والقلبية للحضارة الإسلامية.

نشر الصوفية تجاربهم ومشاهداتهم الروحية على ساحة واسعة بحيث إنهم يرون الحياة الإسلامية الحقيقية عبارة عن ذلك الإحساس والفهم المحيط به، بالإضافة إلى ذلك، لم يتركوا مبدأ "الإحسان" عند حد الكمال في الإيمان والاستسلام، لكنهم أنشؤوا بمصطلحاتهم الصوفية الخاصة تصوّرًا أصليًّا تمامًا لـ"الإنسان-الوجود-الكون"، والتصوف من هذه الناحية رحلةُ عرفان، إنه نظام المعرفة والحكمة الأعمق والأكثر تميزًا فيما يتعلق بـ"الله-الكون-الإنسان"، ويمكن للإنسان تحصيله نتيجة لتحول روحي ونفسي؛ لذلك فهو تجربة خاصة للغاية تحقّق التطور والتحول الروحي والقلبي والمعنوي.

وعلى حين طور الفقه والكلام أسسًا أكثر منطقية وعقلانية تحافظ على المسافة ما بين العبد وربّه، أراد الصوفية جعل هذه العلاقة أكثر حيوية وإحساسًا وقربًا، وبينما شدَّد الفقه والكلام على أن الله منزهٌ عن الأشياء والمخلوقات مراعاة لمبدأ التشبيه والتنزيه؛ أكّد التصوّف على قربه تعالى منها بشكل أكبر.. وبينما ركز علماء الكلام عملهم حول قداسة الله وتنزيهه دائمًا كثّفَ الصوفيون حديثهم عن قرب الله إلينا أكثر من كل شيء.. وكما فصّل الفقهاء والمتكلمون القول في مبدأ الإيمان والإسلام، وشكلوا أصول الحضارة الإسلامية وفروعها، فقد فصل الصوفية أيضًا القول في مبدأ الإحسان ووضعوا الأسس المعنوية للحضارة الإسلامية.

لقد كانت هذه الأبعاد الثلاثة حاضرة في قلب التشريع الإسلامي، وبالتأكيد لم تؤدِّ إلى أية تجزئة في عقائد المسلمين وشخصياتهم، بل أفرزت المظهر الديني والاجتماعي للوحدة الإسلامية ومفهومَ التوحيد لعدة قرون، فهذه الأبعاد الثلاثة جزءٌ لا يتجزأ من الإسلام.. وعلى حد تعبير الأستاذ فتح الله كولن: هذه الأبعاد ثلاثة أوجه لشيء واحد، وكما أن الإسلام لم يكن بلا فقه وبلا كلام فإنه لا يمكن أن يبقى بلا تصوف، بالطبع ظهرت مفاهيم ومظاهر مختلفة في المجالات الثلاثة، لكن المنهج المعروف باسم أهل السنة -والذي يشكّل الجسم الرئيس

للتشريع الإسلامي- يمثل هذه الصورة والخط الإسلامي ذا الأبعاد الثلاثة الذي طُبّق في حياة الرسول ﷺ والأجيال الثلاثة التي جاءت من بعده بشأن فهم الإسلام وتفسيره وانتقاله إلى الحياة الاجتماعية، ولذلك فإننا نشترط ضرورة أن يتوافق أي اجتهاد وأي مظهر صوفي أو كلامي أو فقهي مع الأصول الإسلامية، وبمقارنته مع تلك الأصول نفهم ما إذا كان يتوافق أو لا يتوافق مع معايير أهل السنة هذه.

اجتهادات علمية عبر العصور المختلفة

ولما كان التصوف الإسلامي يشير إلى مجال وتجربة أكثر ذاتية وشخصية مقارنة بأنظمة الفقه والكلام؛ كانت تجربته واختباره أيضًا مرهونان بظروف وجهود أكثر خصوصية، وبالنظر إلى تجارب هذا المجال القائمة على الذاتية، يمكننا بسهولة أن نخمن أن كثيرًا من الجدالات الفكرية والعقدية قد وقعت في هذا المجال عبر التاريخ الإسلامي، وخلال قرون عديدة أفرزت المناهج الإسلامية شخصيات مؤهَّلة ومحقِّقة ومدقِّقة في هذه المجالات الثلاثة، ولقد أوصل هؤلاء تجاربهم وخبراتهم واجتهاداتهم التي يمكن اعتبارها ذاتية في المجالات الثلاثة كلها إلى تفسير وأساس قوي عبر تمريرها من خلال معايير أهل السنة، ومن هؤلاء الحارث المحاسبي، وأبو طالب المكي، والكلاباذي، والإمام الغزالي، والقشيري، والهجويري، والإمام الرباني، والأستاذ بديع الزمان، وغيرهم...

لقد تدثر الإسلام بالتفسيرات والاجتهادات

nesemat.com نسيمات nesemat.com

لا ينبغي النظر إلى الحياة المعنوية في الإسلام في إطار المصطلحات الصوفية المعروفة فحسب؛ لأن المصطلحات المتشكلة في الطرق الصوفية لم تظهر إلا بعد القرن الثالث الهجري.

المتنوعة المشروطة بالالتزام بحدود النصوص العامة، ومن هذا المنطلق فإنه بقدر ما سمح بتكون المذاهب الفقهية السنِّية والكلامية المتنوعة؛ سمح كذلك بتكون تعاليم صوفية ومؤسسات اجتماعية متنوعة.. وعلى حين ظل كلٌّ من الفقه والكلام مرتبطًا بقواعد منهجية حازمة للغاية.

ظلّ التصوف خصوصية داخلية في الإسلام لا يمكن المساس بها، وقد تبوأ التصوف مكانة مهمة في قلب كل مؤمن على المستوى الفردي أيضًا، وربما أن سمو التصوف وحماسَه الذي لا يقف عند أية حدود للعاطفة الإنسانية كان له أثرٌ في أن يظل خصوصية داخلية ويتجاوز الحدود المركزية والشكلية بين الحين والآخر، ذلك لأن التصوف وَضَعَ -عند تطبيق المثل الدينية وتجسيدها على واقع الحياة- نظامًا مؤثّرًا ومحمّسًا لمفهوم العبودية من خلال مخاطبته "الأحاسيس والمشاعر" القلبية والعاطفية السامية لدى الإنسان، وهدفه أن يربط بشكل دائم المؤمنين أو السالكين بالجوهر الحي للإسلام، في حين اضطر كل من الفقه والكلام إلى البقاء في دائرة النصوص الصريحة للقرآن الكريم والسنة النبوية، وإذا ما انتهكنا هذه الحدود الصريحة نكون قد تجاهلنا

nesemat.com نسمات nesemat.com

لم يكتف المسلمون فقط بقبول القيم الإسلامية وتبنيها في كل عصر، فقد كانوا يرغبون في الإحساس بها ومعايشتها بعمق في ضمائرهم وقلوبهم كنظام أخلاقي وروحي ومعنوي.

الحدود الشرعية والعقلية والاجتماعية على حد سواء.

معاني لا تقف عند حدود المصطلح

ورغمَ ما اتخذه التصوف من شكل مؤسّسيٍّ في بعض جوانبه على يد الطرق الصوفية الكبيرة المؤسِّسة، إلا أنه يتضمن تعاليم إسلامية معنوية أوسع من ذلك، وبالتالي لا ينبغي النظر إلى الحياة المعنوية في الإسلام في حيِّز وإطار المصطلحات الصوفية المعروفة فحسب؛ لأن الشكل الأول للمصطلحات الصوفية والصبغة المؤسسية المتشكلة في الطرق الصوفية لم تظهر إلا بعد القرن الثالث الهجري، ومع ذلك، فقد عاش قبل هذه الفترة صوفيون عظام، ولم توجد الحياة المعنوية الإسلامية في هذه المؤسسات فحسب، لا قبل ذلك ولا بعده..

فعلى الرغم من أنه كانت هناك حياة معنوية كبيرة ومتسقة في القرون الثلاثة الأولى من الإسلام -والتي نسميها عصر النبي ﷺ والسلف الصالح- إلا أنه لم تتم مطالعة هذا النمط من الحياة ضمن أي من المصطلحات الصوفية.. وقد قال أبو الحسن البوشنجي عن التصوف الذي كان بدأ لتوه في أن يتشكل ويأخذ الطابع المؤسسي في عصره: "التصوف اليوم اسم بلا حقيقة، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم"، ربما أن البوشنجي بقوله هذا أشار إشارة لطيفة إلى الاسم والمصطلحات والشكلية الصوفية، والتي كانت بدأت تنتشر في ذلك الوقت (القرن العاشر الميلادي).. ولكن هناك شيء آخر واضح أراد التعبير عنه؛ ألا وهو أن التصوف كان في عصر السلف حيويًّا نشطًا بكل عمقه وبساطته وحماسه المعنوي، فإن يستنتج من هذا معنى من قبيل أن الاسم والمصطلحات ليست ذات أهمية كبيرة، فما الفائدة إذًا من قراءة أيِّ دراسة تتناول المصطلحات والموروث الصوفي؟ قد يعلق سؤال هكذا ببعض العقول، وبطبيعة الحال فإن قراءة المصطلحات فقط لن تعطي ذلك الحماس المعنوي القديم والخبرة العميقة، إلا أنَّ معرفة هذه المصطلحات ضرورية ومفيدة لنا من عدة زوايا.

إن لكل مجتمع ديني نظامًا معنويًّا روحيًّا وميتافيزيقيًّا أنتجه خلال تاريخه الطويل، والمسلمون يدخلون في علاقات اجتماعية ثقافية مع أتباع تلك الأديان في كل مكان، ويتعرضون إلى حد ما لهذه التأثيرات الثقافية، والوضع بالنسبة للأجيال المسلمة التي ولدت ونشأت في تلك المناطق بصفة خاصة يبدو أكثر تعقيدًا، لذلك فإن معرفة المسلمين العوامل المعنوية للثقافة الإسلامية ضرورةٌ لا بد منها، من ناحية أخرى، فإن علاقة المسلمين المعاصرين بالتصوّف ليست أفضل منها في الفترة التي عاش فيها البوشنجي.

ليست الحياة القلبية فقط هي ما ضاع في عصرنا، ولكن اختفى أيضًا التمكن من المصطلحات

الصوفية والإلمام بها، فكم من الناس يعرفون اليوم عصر القشيري والهجويري والغزالي والعالم الصوفي الثقافي الواسع في ذلك العصر؟

لا شك أننا لا نقصد من السؤال هنا مجرد التأكيد على عدم الحاجة لمناقشة منهج منضبط لم يبق منه سوى اسمه فحسب؛ لأن المسلمين لم يكتفوا فقط بقبول القيم الإسلامية وتبنيها في كل عصر، فقد كانوا يرغبون في الإحساس بها ومعايشتها بعمق في ضمائرهم وقلوبهم كنظام أخلاقي وروحي ومعنوي، ولا تزال رغبتهم وطلبهم هذا حيًّا بقدر ما كان في الماضي، ومستمرًّا اليوم وسيظل مستمرًّا في المستقبل، لهذا السبب كان من المهم الوقوف على المصطلحات الصوفية بعضَ الشيء، ومعرفة أساسيات تعاليم التصوف الإسلامي السُّني، وإطاره وحدوده؛ لأن التحولات الفكرية والروحية اليوم ليست بأقل مما كانت عليه في الماضي.

مراحل تطور التصوف الإسلامي

وإذا أشرنا ههنا بإيجاز إلى عملية تشكل نقاط التحوّل المهمة في تاريخ التصوف الإسلامي عبر إعادة تفسير الحياة والمصطلحات الصوفية في إطار المعايير الإسلامية السُّنية، فإنني أعتقد أن أهمية كتاب أستاذنا محمد فتح الله كولن هذا ستُفهم بشكل أفضل.. صحيحٌ أن التصوف كافح وناضل بشكل واضح لقرون طويلة من أجل التواجد في التسلسل الهرمي للفكر الإسلامي، وهذا لم ينشأ فقط من خلال مواقف التيارات السلفية التي

إن التصوف ظهر أولًا في صورة الزهد والرقائق، والتوكل والقناعة والعزلة، ثم دخل في مرحلة المحبة والعشق والرضا، وهذه المفاهيم قد شكّلَت المفهوم الصوفي لتلك الفترة.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

تجلت في العصر الحديث تجاه المنهج الصوفي، ذلك أن مسألة قبول الصوفية ظهر كحقيقة أكثر وضوحًا، لا سيما في مرحلة أو اثنتين من التاريخ الإسلامي، والآن دعونا نتناول هذا بإيجاز:

إن التصوف الإسلامي قبل إضفاء الطابع المؤسسي عليه في صورة الطرق الصوفية، ظهر أولًا في صورة الزهد والرقائق، والتوكل والقناعة والعزلة، ثم دخل في مرحلة المحبة والعشق والرضا، أي إنَّ هذه المفاهيم قد شكّلَت المفهوم الصوفي لتلك الفترة، ثم تجسدت حول مفاهيم الجذب والانجذاب والسكْر المعنوي والفناء، وذلك قبل مجيء أبي طالب المكي، والقشيري، والهجويري..

ومما لا شك فيه أنه ظهرت خلال تلك الفترة شخصيات بارزة مؤثرة جعلت بعض جوانب التصوف مثيرة للجدل، مع هؤلاء أفرز التصوف الإسلامي منهج سكر وجذب محفوف بالمخاطر، يستدعي في الأذهان نقاطًا محظورة ظاهريًّا من حيث روح التوحيد، وتوصف بـ"الشطحات".

من هذه الشخصيات ذو النون المصري (ت: ٢٤٦هـ/٨٦١م)، والبسطامي (ت: ٢٦١هـ/٨٧٥م)، والحسين بن منصور الحلاج (ت: ٣٠٩هـ/٩٢١م)،

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن "إحياء علوم الدين" أول دراسة منهجية موحدة تناولت وتقصت مختلف المظاهر الصوفية من ناحية دمجه في النظرة السنية الوسطية، وكذلك من ناحية المعايير العامة للإسلام السني.

وآراء هؤلاء وأحوالهم التي يمكننا وصفها بأنها صوفية السكر والفناء كان لها تأثير عميق بالفعل على الصوفية في وقتهم، ومع ذلك ظهرت هناك أيضًا شخصيات زودت مظاهر التصوف لهذه الفترة في التقاليد السّنّيّة الوسطية وجمعت المبادئ الصحيحة للتصوف الإسلامي.

ومن هؤلاء الحارث المحاسبي (ت:٢٤٣هـ/٨٥٧م)، وأبو نصر السراج (ت: ٣٧٨هـ/٩٨٨م)، والكلاباذي (ت: ٣٨٠هـ/٩٩٠م) وأبو طالب المكي (ت: ٣٨٦هـ/٩٩٦م)، وقد كان كتاب المكي المسمى "قوت القلوب" واحدًا من أولى الدراسات التي برزت في هذا السبيل رغم ما سبقه من دراسات مستقلّة عن التصوف... وكانت الرسالة القشيرية (ت: ٤٦٥هـ/١٠٧٢م)، التي اشتهَرت في الغرب أيضًا مثلما اشتهرت في العالم الإسلامي، تمثل مرجعية مهمّة تخدم هذا الغرض، ويمكننا أن نذكر هنا أيضًا كتاب "كشف المحجوب" للهجويري (ت: ٤٧٠هـ/١٠٧٧م).

إحياء علوم الدين وأثره في الحياة الصوفية

ولكن لا هذا ولا أيًّا من المؤلفات التي كُتبت قبله وبعده في العالم الإسلامي أثّر تأثيرًا عميقًا في التصوف الإسلامي بقدر ما أثَّرَ "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي؛ إذ إن كتابه لاقى قبولًا لدى الجميع بدءًا من أكثر الدوائر تطرفًا وصولًا إلى جموع عريضة من الشعب، بل ووصولًا إلى الأوساط العلمية باعتباره مرجعية بلا منازع، كان كتاب الغزالي "إحياء علوم الدين" أول دراسة منهجية موحدة تناولت وتقصت مختلف المظاهر الصوفية من ناحية دمجه في النظرة السنية الوسطية، وكذلك من ناحية المعايير العامة للإسلام السني.

ولا ريب أن مكانة الغزالي العِلمية وشخصيته المؤثرة من كل النواحي أسهمت بشكل كبير في تحقق هذا، فليست هناك أية محاولة في التاريخ الإسلامي قرَّبت التصوف إلى الكيان السني الوسطي، وحببت فيه جماهير كبيرة من الناس بقدر ما فعل هو، لقد وجَّهَ الغزالي ما يكفي من الانتقادات للفلسفة اليونانية التي كانت ثمة محاولات لدمجها في الفكر الإسلامي إبان عصره، وعلى الرغم من أنه كان يصارع تلك الاعتبارات الفلسفية المنتشرة، إلا أنه لا يمكن أبدًا وصف كتابه "الإحياء" بأنه عمل فلسفي، فالغزالي في كتابه هذا وضع برنامجًا ثقافيًّا إسلاميًّا كاملًا بدءًا من تربية اللطائف القلبية والروحية والنفسية، على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع، وصولًا إلى المجال الأخلاقي والاجتماعي والثقافي؛ فالإحياء نظام كامل يمنح الإنسان رؤيةً كاملة للعالم، وباختصار يُعتبر الغزالي نقطة تحوُّلٍ عند مفترق طرق شكلته المظاهر الفكرية والفلسفية والصوفية في العالم الإسلامي بداية القرن الثاني عشر.

وقد كان كلٌّ من محي الدين بن عربي (ت:

٦٣٨هـ/١٢٤٠م) ومولانا جلال الدين الرومي (ت: ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) أكثر الشخصيات جاذبية في التصوف الإسلامي بعد الغزالي وحتى الإمام الرباني، وعلى الرغم من أن مولانا أثار اهتمامًا أوسع في الغرب أيضًا كنظام فكر وطريقة، إلا أن تأثير ابن عربي في التصوف الإسلامي كان أكثر شمولاً وكثافة بعد الغزالي.

ابن عربي الصوفي الأكثر جدلاً

وكما هو معروفٌ، فابن عربي -الذي يعد واحدًا من أكثر الشخصيات الصوفية تأثيرًا وإثارة للجدل وبروزًا في تاريخ التصوف الإسلامي- نظّمَ مفهوم "الوجود" أو "وحدة الوجود" الذي ظهر في قلب التصوف الإسلامي، وفي الغرب كثيرًا ما تمت مقارنة تعبيراته وتفسيراته بالتفسيرات الحلولية والواحدية، وصار بسبب تفسيراته هذه الصوفي الأكثر جدلًا حتى الآن.. ومع ذلك، أنشأ نظامًا عرفانيًا أثر على جميع الاتجاهات الصوفية اللاحقة، ولم يستطع أي صوفي جاء من بعده أن يبقى بعيدًا عن دائرة تأثيره، آراؤه لم تؤثر فقط على الصوفية المسلمين، بل عبرت حدود الإسلام وأثرت حتى على التصوف المسيحي -إن جاز التعبير- في العصور الوسطى، لقد طور ابن عربي فهمًا خاصًا به فيما يتعلق بـ"الوجود والولاية"، إلا أن الجانب الأكثر إثارة للجدل فيه كان مفهوم "وحدة الوجود" الذي طوّره.

وقد صار هذا المفهوم العرفاني الداعي إلى وحدة الوجود واحدًا من أكثر القضايا نقاشًا وجدلًا وخطورة في تاريخ التصوف الإسلامي، ولقد انتقلت المفاهيم

يُعتبر الغزالي نقطة تحوُّل عند مفترق طرق شكلته المظاهر الفكرية والفلسفية والصوفية في العالم الإسلامي بداية القرن الثاني عشر.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الصوفية -التي تشير إلى الفكر الكوني في التصوف الإسلامي مثل الولاية ووحدة الوجود والإنسان الكامل والأعيان الثابتة- من خلاله تقريبًا، وتحوّلت إلى التعاليم الصوفية اللاحقة وصارت نظامًا، لهذا السبب، يعتبر ابن عربي والنظام العرفاني الذي أسسه نقطة تحول في تاريخ التصوف الإسلامي بالفعل.

الإمام الرباني الغزالي الثاني

من ناحية أخرى، ثمة فائدة في الإشارة بإيجاز إلى الإمام الرباني وعصره، الذي نشأ في شبه القارة الهندية، وكان أحد المحققين الأصفياء باعتباره أيضًا نقطةَ تحوّلٍ بارزة، فالإمام الرباني هو من أرباب الصف الأول ضمن ترتيب الشخصيات البارزة والمؤثرة التي عاشت في العالم الإسلامي في أواخر القرن السادس عشر والربع الأول من القرن السابع عشر الميلاديين، فمن ناحية كان يناضل داخليًا مع الآراء الصوفية التي أثرت بشكل أو بآخر في جميع المدارس الصوفية تقريبًا منذ ابن عربي وحتى اليوم.

ومن ناحية أخرى مع تأثيرات تعاليم الهند الشرقية والبوذية الشرقية كتهديدات خارجية.. وعلى الرغم من أن كفاحه لم يكن معروفًا كثيرًا في الغرب، لكنه كان بمثابة فترة غزالية ثانية في التجربة الصوفية

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن بديع الزمان سعيد النورسي إنسانٌ جامع، لذلك فإن أعماله تنفذ وتمتد إلى كل مجال من مجالات التشريع والفكر والتقاليد الإسلامية، وله تأثيرٌ كبير على الفكر الإسلامي الحديث في تركيا .

الإسلامية، هذا لأن إعادة جذب التجارب الصوفية -التي كانت ابتعدت عن القيم المركزية للإسلام السُّنِّي- إلى المركز من جديدٍ بوعي وتأثير كبيرين قد جاء بانتقادات مهمة لوجهات النظر الوجودية والصوفية، ولكنه رغم أن الإمام الرباني يجد تلقي مبدأ وحدة الوجود خطيرًا وغير كامل، فقد وصف محي الدين بن عربي بأنه ولي من أهل القبول والتحقيق.

أجل، من المعروف أن التصوف الإسلامي زاخرٌ بالعديد من الشخصيات المهمّة والمؤثرة، إلا أننا أشرنا هنا إشارة موجزة إلى الملامح العامة والشخصيات التي كان لها تأثير طويل ومنتظم على التصوف والعرفانية الإسلامية.

النورسي وكليات رسائل النور

وربما يكون من الضروري أن نتطرق هنا إلى الأستاذ بديع الزمان، وهو أحد صناع العقول العظام في عصرنا وله دور مهم في حياة الفكر التركي الإسلامي، فعلى الرغم من أنه بدأ يُعرف حديثًا في الجغرافية الإسلامية الواسعة إلا أنه كان شخصية مهمة ومرجعية في كل مجالات العلوم الإسلامية، إن عمله الفريد "كليات رسائل النور" مع كونه العمل الوحيد الذي يتناول بشكل منهجي ويفصل القول للمرة الأول في تاريخ الإسلام بشأن "الإيمان" -الذي يعد القيمة الأساسية والمركزية للإسلام بصفة عامة- فإنه يضفي فهمًا عميقًا في المعرفة والعرفان على مواضيع مثل الأسماء والصفات والذات والتجلي والمعرفة والمشاهدة التي هي مبادئ مركزية في التصوف... ومما لا شك فيه أن كتابه ليس عملًا يهدف في المقام الأول إلى الكشف عن مبادئ التصوف الإسلامي وتحديدها، ربما أكثر من ذلك، إنه يتناول المبادئ العامة للأصول الإسلامية للدين، ونظام الإيمان والفكر، ويحللها ويشرحها، بل وما هو أكثر من ذلك، إنه يؤكد أيضًا على المعايير الرئيسة لوجهة نظر إسلامية شاملة.

إن بديع الزمان سعيد النورسي إنسانٌ جامع، لذلك فإن أعماله تنفذ وتمتد إلى كل مجال من مجالات التشريع والفكر والتقاليد الإسلامية، وله تأثيرٌ كبير على الفكر الإسلامي الحديث؛ من حيث أنه يقدم كلًّا من العقيدة وعلم الإلهيات الحقيقي، والتفكير السليم، وطريقة العمل الصحيحة والإيجابية على حد سواء.. ولكن عند النظر بعناية أكبر ومن خلال نافذة المنهج الصوفي، يُرى أن كليات رسائل النور تقدم في كل مبحث من مباحثها تقريبًا الأسس الرئيسية التي تقوم عليها الحالة المعنوية الإسلامية، وفي كل موضع من عمله، يشعر المرء بأنه أمام عقلٍ كفءٍ وجذّاب للتقاليد الإسلامية السنية، يتمتع بمرجعية كبيرة في جميع مجالات التقاليد الإسلامية تقريبًا؛ فبفضل قوّته في التفسير وقدرته على التعبير والمعرفة يتناول مفهوم "الوجود" لابن

عربي ومفهوم "الشهود" للإمام الرباني، ويلفت الانتباه إلى جوانبهما الخاطئة والناقصة.

ويذكر بديع الزمان كلًّا من الإمام الغزالي وابن عربي والإمام الرباني من وقت لآخر، ويعتبر كلًّا من الإمام الغزالي والإمام الرباني بصفة خاصة محقّقين ومدقّقين في العلوم الصوفية والعرفانية، وعلى الرغم من أنه يلفت الانتباه إلى الجوانب الخطيرة في مفهوم "الوجود"، إلا أنه يصف ابن عربي بالمحقق في مواضيع المعرفة، إلى جانب ذلك فقد كان -على حد علمي- أحد العلماء الذين حللوا مفهوم "الوجود" للإمام الرباني، بل وربما كان الأول، ومع ذلك، فإنه لا يؤسس مدرسة معرفة وتصوف بشكل تقليدي، ووفقًا له، فإن أهم مشكلة في العصر الحديث تتمثل في أن الكفر والإلحاد صارا منتشرَين على نطاق واسع كتيار سياسي واجتماعي وثقافي.. لذلك فإنه بدايةً يعرّف طريقته ومنهجه بأنه "مسلك الصحابة".. ومن الواضح أن مهمته تحمل محتوًى أوسع وأكثر اجتماعية مقارنة بالمدرسة الصوفية.

فتح الله كولن والتلال الزمردية

بعد هذه الملاحظات دعونا نذكر أن التصوف الإسلامي أيضًا شهد عبر تاريخه الطويل مظاهر تنتهك حدود التشريع الإسلامي بين الحين والآخر، إلا أنّ شخصيات مهمة نشأت وظهرت في كل فترة أعادت تلك الآراء إلى داخل المعايير الإسلامية السُّنّية وضوابطها.

إننا لا نعتزم هنا مناقشةَ المجالات الخطيرة في

إن التصوف شهد عبر تاريخه الطويل مظاهر تنتهك حدود التشريع الإسلامي بين الحين والآخر، إلا أنّ شخصيات مهمة ظهرت في كل فترة وأعادت تلك الآراء إلى داخل المعايير الإسلامية السُّنّية وضوابطها.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

التصوف الإسلامي بتفاصيلها، ولكن المقصد الرئيس وراء كل هذا الغوص المرهق الذي نضطلع به هو لفت الانتباه إلى أهمية عمل الأستاذ محمد فتح الله كولن، وإلى مكانته الخاصة في التراث الصوفي الإسلامي، ولقد حاولنا أن نطالع سلسلة "التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح"، ونتابعها مبحثًا تلو الآخر مع محيط الأصدقاء المقربين، وأستطيع القول إننا في أثناء تلك المطالعات دائمًا ما كنا نشعر بالأمان، وعلى الرغم من أن الكتاب كان يحتوي كثيرًا من المواضيع والمباحث الصوفية المرهقة، التي تتطلب دقّةً وحَيطةً، إلا أننا تنفّسنا باستمرار هذه الثقة والطمأنينة ونحن نتجول في حماية هذه المرجعية والأسلوب الحقيقيين الجادين، فلا ريب أن الأستاذ واحد من الحلقات الأخيرة في تقليد العلماء القدامى، ومرجعية من بينهم، إنني أعتبر قول شيء عن حياته وشخصيته العلمية هنا من نافلة القول؛ فعندما تتجولون بين سطور كتابه هذا ستشاهدون تضلُّعَهُ من العلوم الإسلامية.

ولكن دعونا نؤكد ثانية على أن عمله هذا سوف يأخذ مكانه كأحد المراجع الرئيسة للتصوف الإسلامي السني على غرار الإمام الغزالي والإمام الرباني والأستاذ بديع الزمان؛ إذ إنه يضع -وعلى

إن كتاب الأستاذ كولن سوف يأخذ مكانه كأحد المراجع الرئيسة للتصوف الإسلامي السني على غرار الإمام الغزالي والإمام الرباني والأستاذ بديع الزمان.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

نطاق أوسع- المصطلحات الصوفية على أساس صحيح من خلال ترسيخه مبادئ "الحذر واليقظة" للمعنويات الإسلامية السُّنية، ثم إن حساسيتَه واهتمامه وحذره الشديد حول المشاهدات الصوفية لا يشكل جانبه الذي ينعكس منه على المقالات الواردة في الكتاب فحسب، فكل قارئٍ، أيًّا كان حجم درايته بعالم التعبير والأسلوب والفكرة؛ يعرف هذا الاهتمام والحذر والعمق من خلال عالمه الروحي والفكري والاجتماعي كله.

ولقد لاحظت عدة مرات في سلسلة "التلال الزمردية" أن بعض المفاهيم والتعبيرات والتفسيرات، التي عبر عنها بين الحين والآخر فيما يتصل بالحياة والتجربة الصوفية، قد تطابق تمامًا مع أسلوب التعبير والتفسير والرأي الذي استخدمه في مجالس العلم والذكر قبل عشرين عامًا، وهذا يدل على معرفته العميقة بالمصطلحات الصوفية والتجربة والمشاهدة ووقوفه عليها.

أجل، بالفعل توجد في التصوف الإسلامي قضايا لا يملك حتى أصحاب الكلمة والقول في هذا المجال القدرة على تقديمها بطريقة سهلة، بل وحتى كتابتها وصياغتها بالألفاظ، وقد شاهدنا عدة مرات أن الأستاذ يتحدث في هذه المجالات كلها بوعي وراحة حقيقيين، يبدو الأمر كما لو أنكم أمام عقل وأسلوب حلَّ هذا النوع من القضايا والمواضيع وفصل القول فيها وهو لا يزال بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر، ربما هناك الكثير يمكن قوله في هذه المسألة، ولكن دعونا نختتم هذا الإسهاب المرهق بقول بضع كلمات حول التعبير والأسلوب والمحتوى والغرض من الكتاب دون الدخول في مجال المختصين أكثر من ذلك.

كولن وتحليل مفاهيم التجربة الصوفية

بدايةً يجب القول إن هذه الدراسة ليست دراسة عامة لتاريخ التصوف الذي يجري فيه تناول التحولات الروحية والمعنوية التي عاشها الصوفية المسلمون عبر التاريخ الإسلامي، إنه بصفة عامة، يعبر عن المبادئ التي تقوم عليها المعنويات الإسلامية؛ وعن تحليل راشد تمخَّضَ عن عقلٍ كفءٍ ومرجعيٍّ في العلوم الإسلامية بشأن عالم مفاهيم التجربة الصوفية الإسلامية ومصطلحاتها.

هنا ينفذ الأستاذ إلى البنية الداخلية والقلب من المعنويات والتصوّف الإسلامي من خلال تحليل المفاهيم الأساسية الرئيسة للفكر الصوفي.. وبينما يحلّل المفاهيم واحدًا تلو الآخر، يحافظ بعناية وحساسية على البنية التكاملية للتصوف الإسلامي، وهذا واحدٌ من أهم جوانب هذا الكتاب أصلًا، ويمكن لأي شخص ينظر إلى تاريخ التصوف الإسلامي نظرة عامة أن يتعرف بسهولة على البنية الجزئية وغير المنظمة لمختلف التجارب والمشاهدات عبر القرون

الطويلة، وعلى الرغم من هذا المظهر المشتت، فقد أفرز التصوف الإسلامي تكاملًا رائعًا في المعرفة وفهمًا كبيرًا للتوحيد، ولكن البراعة تكمن في العين التي تستطيع رؤية هذا البناء التوحيدي كتلةً واحدة..

إن "التلال الزمردية" عبارةٌ عن تحليل تلك العيون للتصوف الإسلامي تحليلًا منهجيًّا، يتم من خلال التقاطه وتصفيته عبر معايير حساسة، إن عمله هذا ليس ساحةً تلاقت فيها التجارب الصوفية على منوال باقي الأعمال الغابرة، على العكس من ذلك، إنه يحرص بشدة على إبقاء مختلف الخبرات والأحوال المعنوية والروحية، داخل دائرة التشريع الإسلامي السنّي بحساسية ومسؤولية كبيرين.. وبعبارة أخرى، إنه من خلال تفسيراته حول المصطلحات الصوفية، يكشف الأسس الشرعية للفكر الصوفي السنّي، ومن ناحية أخرى، فإنه إزاء حتى أكثر التعبيرات تجاوزًا وغرابة للمرجعيّات الصوفية، كان يحاول أن يتناولها من جانبها الذي يحافظ على بقائها داخل حدود الشريعة، ويتبع منهجًا توفيقيًّا وتأليفيًّا قدر المستطاع.

وكما هو معروف، كانت هناك عاصفة مستعرة حول بعض المفاهيم الصوفية في التاريخ.. ومع ذلك فإن الأستاذ محمد فتح الله كولن يتعامل مع مثل هذه المفاهيم والتفسيرات بحساسية كبيرة وشعور واعٍ بالمسؤولية، إن ما يُعرف في التصوف الإسلامي باسم "الشطحات" ويضغط على الحدود الظاهرية للشريعة وينتهكها، يشكل أحد" المناطق الخطرة" في التصوف الإسلامي، وقد تحقق تفسيرها وإبقاؤها

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن الأستاذ كولن ينفذ إلى البنية الداخلية والقلب من المعنويات والتصوّف الإسلامي من خلال تحليل المفاهيم الأساسية الرئيسة للفكر الصوفي.

ضمن حدود الشريعة فقط على يد أشخاص يتصفون بالمرجعية والحصافة في تاريخ التصوف الإسلامي؛ لأن هذا العمل بينما يتطلب إحاطةً وشمولًا من جهة، يتطلب إحساسًا حقيقيًّا بالمسؤولية من جهة أخرى، وإلا فلا مفر من ارتكاب الخطأ الذي وقعت فيه بعض المقاربات السلفية المعاصرة، إنهم ومن أجل الحفاظ على ما يسمى بالحدود الظاهرية للشريعة الإسلامية، اتجهوا إلى إنكار هذه التجربة الإسلامية الواسعة إنكارًا تامًّا؛ فتسببوا في حدوث ضحالةٍ مذهلةٍ في المعنويات والحكمة الإسلامية والحكمة في مثل هذه المفاهيم.

ولو جاز التعبيرُ فالتلال الزمردية تعيد صياغة التصوف وتحلله وتنظمه ضمن مبادئ الإسلام السني لإبقائه في قلب التقاليد الإسلامية، ويمكن القول إن المصطلحات الصوفية تخضع لتفسير جديد لأول مرة بهذا القدر، ومثل هذه العملية المجهِدة تتطلب بالطبعِ وعيًا ووقوفًا عميقًا على جميع العلوم الإسلامية تقريبًا، ومن خلال استخدام هذه المرجعية وتفعيل هذه الحساسية؛ قرَّبَ الأستاذ المحترم المصطلحاتِ الصوفيةَ إلى عالم العقل والسلوك لدى المسلم المعاصر.

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن التلال الزمردية تعيد صياغة التصوف وتحلله وتنظمه ضمن مبادئ الإسلام السني لإبقائه في قلب التقاليد الإسلامية، ويمكن القول إن المصطلحات الصوفية تخضع لتفسير جديد لأول مرة بهذا القدر.

شرح معرفي عرفاني

التلال الزمردية، وإن لم يتناول المدارس الصوفية الإسلامية بالدراسة من حيث وجهات نظرها واصطلاحاتها وطرق تفكيرها، إلا أنه ركز بعناية وحساسية فائقة على المفاهيم المركزية للتصوف..

هنا تُقدم وجهات نظر الصوفية بشأن الوجود، ووجهات نظرهم بشأن علم الكلام، ونظريات المعرفة، ولكن في إطار ثقافة وفلسفة صوفية منظمة ومنهجية إلى حد كبير، وبالطبع لا يتم التعبير عن كل هذا تحت هذه العناوين مباشرة، بل من خلال المفاهيم الأساسية للتصوف..

هنا يقدم الأستاذ محمد فتح الله كولن تفسيرًا قويًّا للمفاهيم الصوفية مثل حكيم حاذق متخصص بالمعاني، وينادي نداء بصير، ليس فقط على مفاهيم العلم والحكمة التي تشكلت في التجارب الخاصة للصوفية فحسب، بل وعلى مفاهيم العصر الجافة التي صارت غريبة على ذاتها وأكثر مادية.

التلال الزمردية لا تصنع فلسفة صوفية جافة بحتة، فلا تقتصر أي من مباحثها على نشاط عقلي وفلسفي مكثف؛ فكلُّ مبحث فيها طُوِّر بحذر وتيقظ عقلي وفكري حقيقي ينتهي بترسيخها على أساس عملي في الحياة الفردية والاجتماعية بالنسبة لمن نذروا أنفسهم لخدمة الحق في هذا العصر، وهذه الحساسية تستند، في الوقت نفسه، إلى مبدأ أساسٍ لتجربة التصوف الإسلامي السني أيضًا.

ويتمسك الأستاذ بمبدأ آخر، ألا وهو "حقيقة ضرورة أن تكون الولاية وريثة لمهمة النبوة".. وهذا يعني أنه ينبغي للتصوف الإسلامي، على الرغم من كل عمقه، أن يخاطب سلوكيات الأفراد الاجتماعية، والحماسَ والإثارةَ التي يشعرون بها عند تبليغ الإسلام، وكذلك مشاعر الإحسان والتضحية وكل أنواع الخير التي سيفعلونها لصالح الإنسانية، بقدر ما يميل إلى تحسين جوانبهم الأخلاقية والروحية والعرفانية، بحيث تكون على الوجه الأكمل، فإن لم يتحول إلى مشروع اجتماعي، ولم يعمل على رفعة الناحية الأخلاقية والروحية العامة للمجتمع، مثلما يُربي نفوس الأفراد واحدًا واحدًا، فقد اعتبر ذلك غير مقبول.

ويمكن القول: إن هذه الدراسة -بسبب جوانبها هذه- هي المثال الأول والوحيد.. ومما لا شك فيه أن التصوف تهيئة وإعداد معنوي وفردي، ولكن كلَّ مبلغ ومرشد وخادم يخدم المجتمع والإنسانية العامة ينبغي أن يكون لديه هذا التجهيز والعُدَّة، وقد تحملت سلسلة التلال الزمردية هذه المهمة.

التلال الزمردية لا تكتفي فحسب بالنقل من تاريخ التصوف الحافل فيما يتعلق بالعالم والنفس الإنسانية، كما أنها تضع نتائج وتصوغ توليفات جديدة بوعي كبير، وتفصل العديد من الأفكار والمفاهيم الصوفية المجملة المبهمة وتوضحها؛

فكما هو معروف، تتسم لغة التصوف ومصطلحاته بالغموض والإبهام أحيانًا نظرًا لأنها تعتمد على تجارب ومشاهدات خاصة وشخصية، حتى إن الصوفية يريدون أحيانًا تخصيص ملاحظاتهم بشكل أكبر عن طريق صنع تلبيسات وإبهامات واعية مقصودة، وفي مثل هذه الحالات، يكاد يكون من المستحيل فهم الجمل والعبارات، ومن يدري! فربما أراد الصوفية بفعلهم هذا إظهار أنهم لا يرضون بأن تصير مشاعرهم ومشاهداتهم العالية عادية مبتذلة، فتصرفوا بحذر كي لا ينحرف بأي شكل مَن هم أقل منهم مستوًى من السالكين؛ فيسيؤوا تفسير هذه المشاهدات والعواطف العالية.. فيوضح الأستاذ بأسلوبه الخاص العديدَ من التعاليم والمبادئ الصوفية التي ظلت مخفية ومبهمة لسبب أو لآخر، فهذه الامتيازات العالية، التي تتطلب معرفة عميقة، ترضي وتُشبعُ المرء عقلًا وقلبًا وروحًا.

تستند التلال الزمردية في تفسير المفاهيم والمشاهدات الصوفية على "الصحو والتمكين"، لأن الصحو والتمكين لا غنى عنه، مثله مثل أصل من أصول الدين؛ فجميع التكاليف الشرعية تخاطب العقل والفطرة السليمة والنفس الواعية، وإنها لَحقيقة أن العمق المعنوي في الإسلام يتضمن منطقةً تتجاوز معايير العقل ومقاييسه بشكل مباشر.

وبمعنى آخر: هناك مجالات للعمق الصوفي؛ بحيث إن الأحاسيس العالية والتجارب والاكتشافات والمشاهدات لا تكون غالبًا مجرد أنماط من التعبير اللغوي، وليست حقائق يمكن التعبير عنها وفهمها

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن التصوف تهيئة وإعداد معنوي وفردي، ولكن كلَّ مبلغ ومرشد وخادم يخدم المجتمع والإنسانية العامة ينبغي أن يكون لديه هذا التجهيز والعُدَّة، وقد تحملت سلسلة التلال الزمردية هذه المهمة.

بقوة العقل وحده في الإدراك والفهم.. والصوفية في مثل هذه الأماكن إما أن يُفسحوا مكانًا للعبارات التي تستند إلى الحذر واليقظة بصفة عامة، أو يسكتوا عنها، أو يلجؤوا إلى العبارات التي تتجاوز الحدود العقلية والشرعية وتُسمى بـ"الشطحات" في التراث الصوفي..

كيف رأى كولن شطحات الصوفية؟

إن "الشطحات" واحدة من أكثر مناطق التصوف الإسلامي خطورة، إنها تشير إلى انهزام الصوفية لمشاهداتهم وتعرضهم لأحوال الجذب والسُّكْرِ المعنوي، وبمعرفة وحساسية ومسؤولية إيمانية وحكمة كبيرة يقترب الأستاذ كولن من العبارات التي تنبئ عن شطحات، وعبر كشفه عن الجوانب التي ما زالت ضمن حدود التشريع الإسلامي في مثل هذه التعبيرات؛ فإنه يجذبها إلى المبادئ السنية المركزية ويفسرها.

ووفقًا للمبدأ المقبول الذي يحظى بقبول عام في التصوف الإسلامي السني، فقد التُمس العذر لأصحاب مثل هذه الأحوال والعبارات على اعتبار أنهم يعيشون حالة من السكر المعنوي والجذب، أما في حالة الصحوة واليقظة، فلا تُقبل مثل هذه العبارات، ولقد حافظَ الأستاذ محمد فتح الله

nesemat.com نسمات nesemat.com

عندما بدأت التلال الزمردية تعطي أولى علامات تكوّنها جاءت اجتماعية المحتوى والأسلوب بشكل أكثر.. وكانت علاماتها الأولى في الوقت نفسه تتزامن مع فترة عقمٍ تكونت حول المعنويات الإسلامية.

كولن بتفسيراته هنا، على الاحترام والأدب الرفيع للسلف عاشقي هذه المعرفة، وقدم تفسيرًا حكيمًا لمثل هذه الأحوال والسلوكيات، فوضع بذلك مبادئ المنهج في مقاربة هذه الأمور، في حين حدثت عبر التاريخ الإسلامي مواقف محزنة بسبب الاقترابات الضحلة التي مُورست تجاه المنتسبين إلى أهل السُّكْر المعنوي والجذب.

الحكمة والمعرفة

التلال الزمردية لم تظهر باعتبارها سلسلة تم التفكير فيها والتخطيط لها مسبقًا؛ فقد بدأت تتشكل تدريجيًّا نتيجة للحاجة، وكما هو معروفٌ فما جلس الأستاذ ولا بدأ في الكتابة أو الحديث عن أي فكر لم يمر بألم المخاض، لم يكتب لمجرد الرغبة في الكتابة، فالفِكرُ عنده متداخل مع الحركة والعمل.. فكما أنَّ كلَّ عمل يتغذَّى بفكرة معينة، فإن كل خطوة وحركة تمهد الطريق لأفكار ومشاريع جديدة.

وعندما بدأت التلال الزمردية تعطي أولى علامات تكوّنها جاءت اجتماعية المحتوى والأسلوب بشكل أكثر.. كانت علاماتها الأولى في الوقت نفسه تتزامن مع فترة عقمٍ تكونت حول المعنويات الإسلامية.. وبينما كانت تناشد الإحساس المادي والعقلاني المفرط للعصر من ناحية؛ كانت من الناحية الأخرى تحاول أن تقدم للميول الصوفية التي بدأت تظهر حديثًا المبادئَ الأساسية والأسس السنية للحياة الصوفية الصحيحة.. واضحٌ أن الأستاذ قد استقبل واستشعر مبكرًا إشارات حقبة جديدة في المعنويات الإسلامية، ذلك أنه قال في إحدى جلساته "إنني أقدم المفاهيم أولًا، ثم سأتحدث بشأن هذه المفاهيم".

وإنني كشأنِ كثيرٍ من الناس، لم أستطع إدراك ماهية تلك الكلمات آنذاك.. ومع ذلك، وكلما مر الوقت وبدأت التلال الزمردية تتجسّد، بدأتُ أُلاحظ في يومنا نشوءَ اهتمامٍ وميلٍ متزايد نحو المعنويات الإسلامية في كل من العالم الإسلامي والغرب، ومن الواضح أن مثل هذه الاتجاهات، عقليًّا وفكريًّا وسيرًا وسلوكًا، ستصير أكثر أهمية في المستقبل القريب، فالحركات المتشددة والأساليب الفكرية الكثيفة ليست مطلوبة اليوم كثيرًا سواء في الشرق أو الغرب، فالبشرية في كل مكان في حاجة ماسة إلى تركيبة معنوية وروح الوحدة، ولا يمكن أن يتشكل التسامح والمصالحة والحوار والإخاء إلا على أكتاف الأشخاص الذين يتمتعون بهذا العمق الروحي والمعنوي.

أدرك الأستاذ هذه الحاجة مقدمًا، وتصديًا منه للانحرافات الصوفية والفكرية والقلبية المحتملة تناول مبادئ ومفاهيم التصوف والمعنويات الإسلامية في إطار مبادئ الإسلام السُّني؛ مفسّرًا إياها بأسلوب جديد وغني، ومن ناحية أخرى، فإن اليوم

يشهد حالة من الاستغراب تجاه المعنويات الإسلامية تُشعر بوجودها بالفعل، فالمسلمون يواجهون تحديًا من كل من القيم الغربية وحياة الرفاهية الناتجة عن التكنولوجيا المادية الحديثة، وهذه المرحلة تجبر الهوية الإسلامية والشخصية الإسلامية على تحول روحي ومعنوي في العديد من المجالات..

إن التلال الزمردية لتشكّل نوعًا من الدفيئة والحصن ضد مثل هذه النزعات المادية والعقلانية التي تهدد النفس الإسلامية، إنها نتاج جهود تسعى إلى أن تجذب من جديد العمليات الفكرية والعقلية والقلبية المشتتة إلى قلب التقاليد ومركزها.

التلال الزمردية جهدٌ يرتكز على "الحكمة والمعرفة" ويدعو إلى فهم أعمق وأكثر إدراكًا للإسلام تصدّيًا لفهمه فهمًا جافًا وفظًا وشكليًا.. إنها تلفت الانتباه إلى التجربة المعنوية والمعرفية العميقة للتقاليد الإسلامية، في مقابل تعاليم العصر المادية والوضعية، التي تُرجع كل شيء إلى عقلانية جافة سعيًا إلى تحقيق النجاح والكفاءة فقط على الأسطح الخارجية، إنها التلال تدل على أن الفضيلة والسمو ومصدر الإنسان الكامل ليس موجودًا في تلك العقلانية والشكلية الجافة، ولكن في التقليد المديد للإسلام نفسه، وبدون استكمال هذه التحولات الروحية والمعنوية، فلن تستطيع المجتمعات أبدًا تربية أناس فاضلين وسامين، ومن هذه الناحية فإن التلال الزمردية تمنح الداخل والخارج على حد سواء -أي الإنسانية جمعاء- أفقًا وهدفًا معينًا.

إن التلال الزمردية جهدٌ يرتكز على "الحكمة والمعرفة" ويدعو إلى فهم أعمق وأكثر إدراكًا للإسلام تصدّيًا لفهمه فهمًا جافًا وفظًا وشكليًا.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الشعر الصوفي ودوره في الحياة المعنوية

التلال الزمردية مع أنها جاءت بأسلوب النثر بشكل عام، إلا أنها من خلال تقديمها نماذج من الشعر الصوفي تجعل مباحثها أكثر إثارة وتشويقًا، فكما هو معروف، لم يكن التصوف الإسلامي في صورة النثر فقط، بل ضمّ شعرًا وأدبًا أيضًا، فكثيرًا ما تتجاوز التجارب والحواس المعنوية حدود التعبير والأسلوب العادي، حيث تخاطب ميول العاطفة الأعلى عند الإنسان، إن الشعر الصوفي مهم من حيث إظهاره الحدود العاطفية والحسية التي تصل إليها الأحاسيس المعنوية، بل يمكن القول إن العديد من الصوفية فضلوا التعبير شعرًا عن تجاربهم ومشاهداتهم الخاصة؛ لأن لغة الشعر العالية وقوته التعبيرية أكثر إثارة وحماسة، وأقوى بكثير مقارنة بغيرها من وسائل التعبير العادية، علاوة على ذلك، فإن تجاوز الحدود الإنسانية والعاطفية يبدو أسهل عبر الشعر.. وبطريقة ما، لجأ الشعراء الصوفية إلى الشِّعر للتغلب على الإطار الضيق لحدود العاطفة والتعبير الإنساني للعقل، إنها منطقة تتجول فيها الأحاسيس والعطاءات العالية بحرّية أكثر.

إن الشعر لديه قوة تعبيرية هائلة؛ بحيث يمكن

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن التلال الزمردية تشكّل نوعًا من الحصون ضد النزعات المادية، فهي نتاج جهود تسعى إلى أن تجذب من جديد العمليات الفكرية والعقلية والقلبية المشتتة إلى قلب التقاليد ومركزها.

للمرء أن يعبر في مصراعٍ شعريٍّ، أو في بيت واحد من الشعر عن حقيقة لا يمكن الحديث عنها إلا من خلال صفحات من النثر.. وبقدر ما ربط الصوفي التقليدي الأدب بأسس معينة بواسطة النثر؛ ربط التجارب المعنوية بمبادئ معينة من خلال الشعر، والأستاذ كولن كذلك عالم يكتب النثر ويقرض الشعر، وبمعنى أصح إنه يعبر عن أفكاره وحكمته بالشعر أيضًا بقدر ما يعرب عنها بالنثر، بالإضافة إلى ذلك، فإن أسلوبه في الكلام والخطابة، وكذلك أسلوبه في الكتابة والنثر جميل وأخّاذٌ مثل الشعر، ومن الممكن رؤية هذا الجو الشعري في العبارات الأخيرة من كتاباته، ويحتوي كل مبحث تقريبًا في التلال الزمردية على بيت واحد أو أكثر يضم أسرارًا دقيقة وأحاسيس عالية من الشعر الصوفي، إنه يقدم للقارئ مختارات غنية من الشعر الصوفي تتشكل من أشعار الصوفية العرب والفرس والترك..

ولكن ثمة شيء واحد أود التعبير عنه هنا؛ ألا وهو أنني أجد أنه من المهم، ليس فقط من قبيل التقدير، ولكن من حيث الحقيقة التي يحتوي عليها؛ القول إن الأستاذ بكل أحواله هو رمز حي لهذا الفهم المتواضع الفريد لتقاليد العلماء والتكية، إنه يجلب إلى التلال الزمردية عديدًا من المتع الشعرية المختلفة بدءًا من مولانا إلى جامي وشبستري؛ ومن يونس أمره ونيازي المصري وإبراهيم حقي إلى الشيخ محمد لطفي أفندي، ويجعل المباحث الصوفية تتنفس بها، ومع ذلك، لم يقتبس من عملِه الشعري المسمّى "المضرب المكسورة" أكثر من قطعةٍ أو اثنتين، في حين أن هناك أشعارًا في "المضرب المكسورة" تحتوي على أبيات صيغت بذوق وإحساس لغوي عالٍ للغاية خاص بالبعد الروحي والمعنوي للإسلام، حتى إننا بينما كنا نطالع التلال الزمردية مع الأصدقاء، تكونت لدينا قناعة في معظم الوقت بضرورة قراءة هذه القضايا إلى جانب العديد من القصائد الواردة في "المضرب المكسورة"، ذلك أننا شاهدنا أن العديد من عبارات المباحث الصوفية الطويلة التي تُرهق العقل والإدراك قد عُبِّر عنها هناك في بيت واحد وبأسلوب أدبي مليءٍ بالحكمة.

والحاصل أن الشعر الصوفي يشكل جزءًا لا يتجزأ من المعنويات الإسلامية والتقاليد الصوفية، وكما يزعم بعض المستشرقين فإن الشعر؛ ليس طريقة وسبيلًا للهروب من الحدود العقلية والإنسانية والشرعية، وإنما هو وسيلة وطريقة للبحث في الداخل عن الحل والتعبير. نعم، في الواقع يستخدم الشعر في الأدب العالمي كله لغة مجازية تفوق حدود التعبير والعقل الطبيعيين، ولكن هذا هو السمة العامة للشعر، والسبب الرئيس وراء كونه وسيلةَ تعبيرٍ عالية وبديعة.. ومع ذلك فإنه مهما عبر عن الحقائق والأحاسيس العالية والبديعة في

التصوف الإسلامي، فهو مضطر للبقاء ضمن حدود التشريع الإسلامي، وقد حدث ذلك بالفعل.

البيان والبرهان والعرفان

إن من السمات الأساسية لفهم الأستاذ كولن للحكمة والمعرفة هو سيره في نظامه الفكري على مستوى "البيان والبرهان والعرفان"؛ فهذه الأبعاد الثلاثة تشكل الخصائص الرئيسة للفكر والحضارة الإسلامية، ومن الممكن أيضًا ملاحظة ذلك في التلال الزمردية، وعلى حين يحلل المشاهدات والتفسيرات التي تشكل شذًّا معنويًا عاليًا في التصوّف الإسلامي مثل أحلك المفاهيم المعنوية، وأحوال الجذب والانجذاب، والسكر المعنوي والجمع والفرق والوجود والتوحيد والفناء بالله والبقاء بالله؛ لم يتجاهل قطُّ مبادئ العقل والمنطق الإسلامي السليم، ونظام المعرفة الإسلامية العامة، والمعايير الرئيسة لمبادئ الحكمة السنية؛ وبحساسية واهتمام وحذر كبير تعامل مع هذه القضايا بطريقة تُقدّم فهمًا إسلاميًّا كلّيًّا، وهذه المسألة لن تغيب عن عيون ذوي البصيرة ألبتة...

التلال الزمردية عبارة عن واحة من مجالس الله تجذبنا إلى هدفنا المتمثل في الوجود من جديد في زمن يمكن فيه للمشاغل الدنيوية والمادية أن تستحوذ على اهتماماتنا الفكرية والعقلية والقلبية، كما أنها تربط كل اهتماماتنا البشرية وتوصلها بما وراء الغيب، إنه رباط يهم المؤمنين من جميع المستويات، ولكنه قد يكون لازما وضروريًا، بقدر

إن من السمات الأساسية لفهم الأستاذ كولن للحكمة والمعرفة هو سيره في نظامه الفكري على مستوى "البيان والبرهان والعرفان".

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الماء والهواء، لا سيما بالنسبة لأبطال الخدمة الذين يكرسون كل جهودهم وهممهم لصالح الإنسانية،

ولا أعرف إذا كانت هناك حالة من شأنها أن تعبر عن هذه الحقيقة بشكل أفضل من ذلك، وكملاحظة اعتقدت أنه لا بد من تقييد حادثة مهمّة مضت؛ ألا وهي أنني تذكرت صديقًا طلب من الأستاذ أن يستمر في شرح الأسماء الحسنى الأخرى كما شرح قبل ذلك الذات والصفات والأسماء الإلهية، وأن يستمر أيضًا على نفس المنوال من الدقة والعمق والتمكين والمعرفة؛ فإنني رأيتُ الأستاذ انحنت قامته فجأة أمام هذه العبارات، واغرورقت عيناه وقال:

"أستطيع أن أقول إن حياتي كلها كانت قد انقضت بالاشتغال بالخدمة. ولكن عند النظر إليها من زاوية الكلام عن الحبيب وتعريف الناس بالله فدائمًا ما كنت أتحسّر متسائلًا عما إذا كنت قد ضيعت حياتي أم لا!". أجل، لقد شرح أستاذنا الجليل في الكتاب، بعض الأسماء مثل الأول والآخر والظاهر والباطن، ونأمل ونتوقع ألا يفتأ يُذيقنا هذه المتعة المعرفية الروحية والمعنوية عبر شرح كل الأسماء الأخرى، لقد رأينا أن الكثير من الآمال والتوقعات قد صارت على مر التاريخ ورادات تملأ مجلدات عديدة، آمل ألا تظل آمالنا وتوقعاتنا هذه دون إجابة. ■

مقاربات حضارية بين رواد التجديد

محمد ياسين

باحث وأكاديمي مصري، بكالوريوس الهندسة المدنية، جامعة الأزهر ٢٠٠٤م. وليسانس أصول الدين والدعوة ٢٠٠٨م. وماجستير في الدعوة الإسلامية ٢٠١٧م عن أطروحة بعنوان "تجربة الشيخ فتح الله كولن الدعوية دراسة نموذج لنهضة المجتمع والأمة من خلال العمل الدعوى". خطيبٌ ومحاضرٌ حرٌّ في مجال الفكر الإسلامي، وباحث في فكر النهضة من منطلق قرآني وإنساني.

إن الأزمات التي واجهت المجتمع في كل عصر من العصور كانت الدافع الأهم لانطلاق مجموعة من العلماء والمجتهدين لبذل أقصى جهدهم في ما يمكن أن يكون تجديدًا حقيقيًّا للفكر الإسلامي وتجلياته التطبيقية على أرض الواقع، وهذه المحاولات جميعها كانت تهدف إلى استشراف المستقبل لخدمة الإنسانية ولبناء أجيال قادرة على خدمة البشرية بالصورة المطلوبة.

ولكن ما الملتقيات الفكرية التي جمعت بين هؤلاء المجددين، وما الأسس التي استند إليها كل منهم؟ هذا ما تحاول الدراسة التي بين أيدينا الإجابة عليه في صورة حلقات مسلسلة تمتد إلى خمسة أبحاث يعقد من خلالها الكاتب حوارات ومقاربات بين رواد التجديد من جهة وتجربة الخدمة من جهة أخرى باعتبارها امتدادًا لتاريخ حافل من محاولات الإصلاح والتجديد.

لدي ميلٌ دائم إلى المقارنات بين الأمكنة والأزمنة والأشخاص والأفكار، هذا الميل يساعدني في الإجابة على أسئلة كثيرة حول الترابط بين الأفكار والشخصيات، غير أن هذه العادة الذهنية لا تصلح أن تكون منهجًا في ذاته للحكم على الأشخاص أو الأفكار، وذلك لأن المقارنة في جانبٍ ما بين شخصيتين مثلاً دون الأخذ في الاعتبار اختلاف الزمان والمكان والبيئات والطبائع وتطور الأفكار وغير ذلك من المؤثرات يجعل المقارنة المجرّدة تحمل كمًّا من المغالطات المنهجية، وهذا ما حدا بالدكتور عبد الوهاب المسيري -رحمه الله- أن يرفض القضية الأكاديمية المعروفة بـ"دراسة التأثير والتأثر" باعتبارها دراسة مريحة لا تتطلب اجتهادًا وإبداعًا على حدّ وصفه.

ومن هنا فقد حاولتُ في هذه السلسلة من الدراسة أن أتحدث عن تجربة الأستاذ كولن باعتبارها امتدادًا لتاريخ حافل من محاولات الإصلاح والتجديد، محاولاً رسم صورة تقريبية لتاريخنا الثقافي والفكري من خلال هذه المدارس والشخصيات، لاسيما ما يتعلق منها بالجانب الحضاري والفكري، فهي إذن مقارباتٌ لا مقارنات.

وقد كان أستاذنا الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- يميل إلى تقسيم روّاد الإصلاح ودعاته إلى فريقين: "فريق يتجه إلى الحكم على أنه أداة سريعة لتغيير الأوضاع، وفريق يتجه إلى الجماهير يرى في ترشيدها الخير كله، ثم يقول إلى: "وهؤلاء الذين يسعون إلى السلطة لتحقيق رسالةٍ رفيعة، لابد أن يكونوا من الصدِّيقين والشهداء والصالحين أو من الحكماء المتجردين والفلاسفة المحلِّقين !! وأين هؤلاء وأولئك؟ إنهم لم ينعدمُوا، ولكنهم عملةٌ نادرة، ومع ذلك فإن أي حُكمٍ مهما كان رفيع القدر لن يبلغ غايته إلا إذا ظاهره شعب نفيس المعدن عالي الهمَّة!... إذن الأمة هي الأصل، أو هي المرجع الأخير! و على مريدي الخير أن يختلطوا بالجماهير، لا ليذوبوا فيها وإنما ليرفعوا مستواها ويفكُّوا قيودها النفسية والفكرية".

ومن ثَمَّ كان التركيزُ على المدارس ذات التأثير المجتمعي والحضاري وليس السياسي، ذلك أن البعث الروحي والفكري هو الأبقى أمدًا والأقوى مددًا، وتجربة الأستاذ فتح الله كولن ومشروعه الحضاري، ليس إلا امتدادًا لهذه المدارس الحضارية العظيمة، فهي تجربة لم تنشأ في الفراغ ولم تنبت من غير تعهُّد ورعاية، بل كان لها رصيد ضخم من التجارب الحيَّة تستضيء بها، وتستمدُّ منها، فهي تجربة حديثة بالمعني الزمني، لكنها متجذِّرة في أعماق الأمة ومتَّحدة مع كيانها على الحقيقة مع تميُّزها عن غيرها، ومراعاتها لطبيعة زمانها.

مدارس التجديد والإصلاح

جاء في الحديث الشريف "إن الله يَبْعثُ لهذه الأمّة على رأس كلِّ مائة سنة مَنْ يُجَدِّدُ لها دينها"(أبو داوود) ولا شك أننا اليوم بحاجة إلى فهم أعمق للحديث الشريف وبخاصة في هذه المرحلة

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن تجربة الأستاذ فتح الله كولن ومشروعه الحضاري، تجربة لم تنشأ في الفراغ ولم تنبت من غير تعهُّد ورعاية، بل كان لها رصيد ضخم من التجارب الحيَّة تستضيء بها، وتستمدُّ منها.

بالذات من تاريخ الأمّة.

وفي إطار البحث عن مدلولات أعمق للحديث يرى د.فريد الانصاري -رحمه الله- أنّ التجديد إنّما يقع حيثُ تكون الحاجة إليه، لذلك كان القرن الرابع الهجري قرنَ حركة علمية مُجَدِّدة حيث كانت الحاجة ملحّة فظهر محدِّثون ومفسّرون، وكثير من العلماء في التربية وفي الدين وفي السلوك، حاولوا تجديد الدين لذلك القرن.. حتى جاء الإمام أبو حامد الغزالي القرن الخامس الهجري فحاول أن يَرجع بالعلوم الإسلامية إلى أصلها الأول. فالتجديد كما يرجحه الأنصاري هو تجديدٌ تكون الحاجة إليه مُلحَّة، وقد يكون هذا مرتبطًا بالعامل الزمني الذي يشير إليه الحديث "مائة سنة".

وقد وُجد في الأمة مجدِّدون في مختلَف العصور والأزمان:"يشعرون بآلام أمتهم، ويدركون المخاطر المحيطة بها, ويفكِّرون التفكير العميق في أسباب الدَّاء ووصف الدواء، وكلُّ مصلحٍ ينظر إلى المرض من زاويته، ويدعوا إلى مداواته حسب خُطَّته، وكلٌّ قد أبلى بلاءً حسنًا، ولاقى من العناء ما لا يتحمَّله إلا أولو العزم، فمنهم من شُرِّد ومنهم من قُتِل، ومنهم من رُمِي بالخيانة العظمى، وهم على هذا صابرون مجاهدون، أحبوا مبدأهم في الإصلاح أكثر مما أحبُّوا الحياة، ولم يعبئوا بالعذاب في سبيل تحقيق فكرتهم، وظلَّت آراؤهم تعمل عملَها في حياتهم وبعد موتهم، حتى تحققَّ إصلاحهم ونفَذَت أفكارهم"[1] ففي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالتقويم الميلادي (وهو ما يُوازي نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر بالتقويم الهجري) نشأتْ حركات تجديدية في العالَم الإسلامي في وقتٍ واحد.

كانت حركات التجديد تلك تعبيرًا عن التحدي الحضاري الذي واجهته الأمّة، فقد كانت شعوب المسلمين تقع تحت الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي جُملةً، ومازال الاستعمار آنئذ يَزيد ويَكتسح في كثير من دول العالم الإسلامي.. كان التحدَّي إذن هو تحدِّي التحرُّر من النفوذ الأجنبي، والتحرر من أغلال الفقر والجهل والمرض، التي مكَّنت لهذا الاستعمار من أن يعبث ببلاد المسلمين.

والسؤال: هل مازال هذا التحدي قائمًا في صورته الاستعمارية الفجَّة التي تعني احتلال الأرض ونهب خيراتها، والسيطرة على عقول أبنائها؟

يقول الأنصاري: "إن هذه الظروف تغيّرتْ.. عندنا الآن ظروف عالَمية أخرى؛ عندنا ما يُسَمَّى بـ"العَولمة" في صورتها الثقافية والإعلامية والاقتصادية.. بهذا الوجه المكْتَسِح لكلّ العالَم الآن، ما ينْبغي أبدًا أن يكون المنهج القديم الذي نشأ تحت تأثير الاستعمار بصورته النمطية هو نفسه

المنهج الذي يقوم بالتجديد في هذه المرحلة.. لأنّ التحدّيات اختلفت؛ الاستعمار القديم كان يحْتلّ الأوطان دون أن يحتلّ الإنسان، بينما الاستعمار الجديد يحتلّ الإنسان قبل أن يحتلّ الأوطان"[٣].

البعد التجديدي والإحيائي في نموذج الخدمة

تنبع الأهمية الدعوية والحضارية لدعوة الأستاذ فتح الله كولن -التي هي نتاجٌ فكري وموروثٌ حضاري لما سبقها من تجارب ودعوات- مِنْ كونها هي الأقرب لوراثه حركة التجديد التي ينتظرها العالم الإسلامي اليوم.

يقول الأنصاري: "أزعم أن أبرَزَ دعوةٍ وأقْربَ حركةٍ لمعني الحديث أولاً، ثم للحاجة المطلوبة الآن حضاريًّا ثانيًا، هو هذا الاتّجاه الذي يمثّله الأستاذ فتح الله كولن.. لماذا؟ لأنّ الاستعمار سابقًا احتلّ الأوطان قبل أن يحتلّ الإنسان؛ فكانت الحركية التجديدية القديمة غالبًا ما تتجه إلي تحرير الأوطان، بينما هذا الاستعمار الجديد الذي استعمر الإنسان، استعمر فكرَه وأحلامَه، وعقلَه ودماغَه؛ ينبغي أن تكون هذه الحركية قائمةً أساسًا على تحرير الإنسان.. وما وجدتُ شخصًا أو دعوةً قامَ فكرُها فعلاً على تحرير الإنسان كما وجدتُ كُتُبَ الأستاذ فتح الله كولن"[٣].

نعم.. يمكن اعتبار هذه التجربة مدرسة إحيائية تجديدية بهذا المفهوم، لأنها تواجه تحدِّيًا من نوع جديد، إنها تواجه تحدي هدم إنسانية الإنسان

nesemat.com نسيمات

إن سبيل الخلاص هو إعداد أطبّاء الروح والمعنى، الذين يملؤون كل الفراغات في كياننا، ويزيلون نقاط الضعف في نفوسنا، ويقودوننا إلى مستوى الحياة القلبية والروحية.

بمحاولة بناء إنسان القرآن، وهو ما نلحظه في كتابات ومقالات ومواعظ الأستاذ فتح الله كولن، بل ما نراه في المؤسسات التربوية التي حثَّ على إنشائها.

"فالمشروع الفكري والتطبيقي في تجربة الشيخ فتح الله قائمٌ أساسًا على "تجديد الإنسان" لأنه حينما يتجدّد الإنسان يتجدّد كلُّ شيء بالتّبع، فتكُون الشركات، وتكون المؤسسات بسبب أنّه صنَع "الإنسان" وهذه هي العبقرية الاستراتيجية التي يُمكنها أن تُواجه الاستعمار الجديد بتجلّياته الثقافية والعقَدية المدمِّرة للبنْية التحتية في العالَم الإسلامي"[٤].

كانت حركات التجديد تلك تعبيرًا عن التحدي الحضاري الذي واجهته الأمّة، فقد كانت شعوب المسلمين تقع تحت الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي جُملة، ومازال الاستعمار آنئذ يَزيد ويَكتسح في كثير من دول العالم الإسلامي.. كان التحدَّي إذن هو تحدِّي التحرُّر من النفوذ الأجنبي، والتحرر من أغلال الفقر والجهل والمرض، التي مكَّنت لهذا الاستعمار من أن يعبث ببلاد المسلمين.

يقول الأستاذ فتح الله كولن في موضوع بعنوان: نحو عالم الغد: "إن سبيل الخلاص من الاضمحلال،

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن التجديد كما يرجحه الأنصاري هو تجديدٌ تكون الحاجة إليه مُلحَّة، وقد يكون هذا مرتبطٌ بالعامل الزمني الذي يشير إليه الحديث "مائة سنة".

هو إعلان النفير العام لإعداد أطبّاء الروح والمعنى، الذين يملؤون كل الفراغات في كياننا، ويزيلون نقاط الضعف في نفوسنا، وينقذوننا من عبودية الجسم والبدن ويقودوننا إلى مستوى الحياة القلبية والروحية... أطباء تتسع قلوبهم لكل ساحات العلم والذكاء والعرفان والواردات والفيوضات... من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن الرياضيات إلى الأخلاق، ومن الفنون الجميلة إلى التصوف، ومن الكيمياء إلى الروحانية، ومن الحقوق إلى الفقه، ومن السياسة إلى السير والسلوك"[٥].

لكن.. ماذا يفعل أمثال هؤلاء في مجتمع كبير وأمة مترامية الأطراف؟ مجتمع يعاني الكثير من الأمراض والأوجاع، وأمةٍ منهكة، وشعوب متفرقة؟

وكعادته في التشبيه والتمثيل، يشبه الأستاذ كولن هؤلاء القلة بـ"المخ" في جسم الإنسان، هذا العضو الصغير الذي يتحكم في حركات الجسم وسكناته من خلال شبكة الأعصاب المنتشرة في أنحائه.

فما أشد حاجة الأمة إلى مثل هذا: "المخ المدبر، فكما يرتبط العقل ويحاور كل جهة بعيدة وقريبة في البدن عبر الأعصاب، ويرسل الرسائل إلى أقصى نقاطه ويستلم منها، فإن هذا الفريق سيكون في تعاطٍ مع جميع خلايا جسم الأمة وجزيئاته وذراته وجُسيماته، ويصل إلى جميع الوحدات في المجتمع، ويمتد تأثيره إلى جميع أجزائه الحيوية، ويهمس في أذن كل شرائحه شيئًا من الروح ومن المعنى، مقبلاً من الماضي ومكتسبًا عمقًا أشد غورًا في الحاضر، وممتدًا إلى المستقبل"[٦].

بين النظرية والتطبيق

الحقيقة أن الواقع خيرُ دليل، فميدان القول غير ميدان العمل بكل تأكيد، ذلك أن الأستاذ فتح الله كولن قد "تمكّن من تكوين أجيال و مؤسسات قادرة على إعادة تشكيل صورة الإسلام عبر العالم، وقادرة على خلق الأسباب المناسبة لذلك، وقد يكون ما نراه فتوحات افتراضية كغايات تهدف إليها التجربة، في غير قصدٍ إليها، بمعني أنها لا يهمها كثيرًا أمر الفتح بمعناه السياسي والاقتصادي، بقدر ما يهمها تمثيل الإسلام خير تمثيل والسعي وراء تحقيق السلام العالمي"[٧].

هذا ما نحاول إلقاء الضوء عليه، ولفت الأنظار إليه، في هذه السلسلة من الدراسة، لتتَّجِه الهممُ نحو نهضة منشودة تبدأ من "الإنسان" نحو بناء مجتمع سليم، وأمة راشدة.

ومن يدري، لعل أمتنا التي تتعثر اليوم في خطاها، والتي تنكَّبت الطريق نحو غايتها المنشودة، تكون عما قريب السراج المنير للشرق والغرب على السواء.

يقول الأستاذ فتح الله كولن: "لقد كان لكل عصرٍ كرامة، فوُلدت الإنسانية من جديد بالإسلام في القرن السادس الميلادي، وعاد الأتراك إلى الحياة

بالإسلام في القرن العاشر الميلادي، وأظن أن كرامة القرن الحادي والعشرين ستظهر بملء شعبنا والشعوب المرتبطة به مكانه اللائق في الموازنات الدولية. نعم، نؤمن أننا بهذا الجهاد المعنوي الذي يمكن تسميته بكفاح العلم والأخلاق والحق والعدل، سنلُمُّ شعث أشلاء أمتنا المباركة الممزَّعة البئيسة والمشرَّدة في أرجاء الأرض المختلفة، لتجتمع الأجيال التي ظلت بلا راعٍ ولا غاية حتي اليوم في ظل الفكر، فتعيش "الانبعاث بعد الموت" من جديد"[٨].

أليست هذه في الأصل هي رسالة الإسلام؟، أليست هذه هي وظيفة المسلمين الأولى؟ وهل أرسل الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ إلا رحمة للعالمين؟ أليست البشرية اليوم في أمس الحاجة إلى هذا الدور الحضاري؟

ولقد أصدرت منظمة المؤتمر الإسلاميِّ ما عُرف بـ"إعلان القاهرة لحقوق الإنسان في الإسلام"، وأكَّدت فيه على أنَّ دور المسلمين اليوم هو هداية البشرية الحائرة، حيث ورد في ديباجة الوثيقة: "التأكيدُ على الدور الحضاري والتاريخيِّ للأمَّة الإسلامية، التي جعلها الله أمَّة وسطًا، أورثت البشرية حضارة عالمية متوازنة، وصلت الأرض بالسماء، وربطت الدنيا بالآخرة، وجمعت بين العلم والإيمان، والذي يُؤمَّل هو أن تقوم هذه الأمَّة اليومَ بهداية البشرية الحائرة، بين التيارات والمذاهب المتنافسة، وتقديم الحلول لمشكلات الحضارة المادية المزمنة"[٩].

إن الأستاذ فتح الله كولن قد تمكّن من تكوين أجيال و مؤسسات قادرة على إعادة تشكيل صورة الإسلام عبر العالم، و قادرة على خلق الأسباب المناسبة لذلك.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

التجربة والسياق التاريخي

إنها إذن تجربة لا نستطيع فهمها إلا في سياقها التاريخي والحضاري، ضمن حركات البعث والتجديد الإسلامي، وهل يمكن أن نفهم مثلاً، عزوف الأستاذ كولن وتلاميذه عن الدخول في المعترك السياسي على الرغم من سِعة انتشار التجربة وتأثيرها مجتمعيًا، إلا في ضوءٍ من تجربة الأساتذة الأعلام الغزالي والنورسي وعبده؟

أَوَ ليست هي تهمةٌ واحدةٌ اتُّهِم بها الإمام أبو حامد الغزالي بسلبيته في مواجهة الاحتلال الصليبي، واتُّهِم بها الإمام محمد عبده بموالاته للإنجليز واحتفائه باللورد كرومر، لمجرد أن كلًّا منهما كان له مشروعه الهادف إلي البناء من القاعدة، ومواجهة المرض الحقيقي دون الاشتغال بالعرض الزائل الذي لا ينبغي التقليل من أثره أو العزوف عن مواجهته، وهل زعم أحدٌ منهما أنه سياسي قدير؟ أو عسكري فذّ؟ وماذا فعل الإمام الغزالي حين وجد من يقود حركة الإصلاح السياسي – يوسف بن تاشفين- مثلاً؟ ألم يعزم أن يرحل إليه؟ وماذا فعل محمد عبده حين رأي في الثورة العرابية وسيلة إنقاذٍ للشعب من الظلم؟ ألم يكن أحد قادتها ودعاتها؟ وهل يُتهم

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن الهدف عرض هذه التجربة بموضوعية، بعد قراءة متأنية لمرتكزاتها والأسس التي قامت عليها، من خلال النظر في تاريخ التجارب الماثلة بين أيدينا، ثم من خلال الواقع الذي تمثله تطبيقًا وعملاً.

مثل النورسي -وهو الذي قضي حياته في السجون والمنافي- بأنه لم يكن مشغولا بقضايا الأمة، لأنه لم يحرض تلاميذه على الثورة ضد العلمانية؟ ولم يقُد تمردًا ضد نظام أتاتورك مثلاً؟

في ظل هذا كله يمكن أن يفهم الدارسُ تجربة الأستاذ فتح الله كولن والاتهامات الموجهة له ولتلاميذه بأنهم مشغولون عن قضايا الأمة وهمومها بمدارسهم الخاصة ومشاريعهم التعليمية، لأنه لم يصدر بيانًا في حادثة كذا! ولم ينتقد النظام العلماني في أمر كذا!، ولأنه استطاع التعايش في ظل الحكومات العلمانية والحفاظ على مؤسساته التربوية!

إلى غير ذلك من الاتهامات التي سوف تكون لنا وقفة مع بعضها في هذه السلسلة ذلك أن القصد -في الأساس- ليس الدفاع عن شخص الشيخ فتح الله كولن أو حركة الخدمة، وإنما الهدف هو عرض هذه التجربة أمام الناظرين، بموضوعية، بعد قراءة متأنية لمرتكزاتها والأسس التي قامت عليها، من خلال النظر في تاريخ التجارب الماثلة بين أيدينا، ثم من خلال الواقع الذي تمثله تطبيقًا وعملاً.

وستكون السلسلة كالتالي:

أولاً: مدرسة الإمام الغزالي وتجربة الأستاذ كولن: "إحياء جيل جديد".

ثانيًا: مدرسة الإمام عبد القادر الجيلاني وتجربة الأستاذ كولن: "تجربة المدارس الروحية".

ثالثًا: مولانا جلال الدين الرومي والأستاذ كولن: "صوت الرومي في عصر العولمة".

رابعًا: الإمام محمد عبده وتجربة الأستاذ كولن: "من التعليم نبدأ".

خامسًا: الإمام النورسي والأستاذ كولن "نحو النور". ■

الهوامش

(١) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، المكتبة المصرية، المقدمة، ٢٠٠٧، ص٩.

(٢) فريد الأنصارى، رجالٌ ولا كأىِّ رجال، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٣، بتصرف، ص٧١.

(٣) المرجع السابق، بتصرف، ص٧٢.

(٤) المرجع السابق، بتصرف، ص٨٦.

(٥) فتح الله كولن، ونحن نقيم صرح الروح، صـ ٢٦، ط٦، دار النيل، القاهرة، ٢٠١٢.

(٦) المرجع السابق، ص٢٧.

(٧) هشام الرَّاس، (الخطاب الإسلامي بين مقتضيات العصر ومشروع الحداثة نموذج: تجربة فتح الله كولن)، بحوث جامعية "ملخص" موقع مجلة "حراء".

(٨) فتح الله كولن، ونحن نقيم صرح الروح، دار النيل القاهرة، ص٩٤، ط٦، ٢٠١٢.

(٩) د.طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامى بين القدرات والعقبات، سلسلة إسلامية المعرفة، الدار العالمية للكتاب الإسلامى، الرياض، ص٣٣، ط١، ١٩٩٤.

جولة فكرية
حول المشروع الإصلاحي للأستاذ كولن

يحيى سلام

باحث بمرحلة العالمية الدكتوراة في الثقافة الإسلامية في كلية الدعوة الاسلامية بالقاهرة جامعة الأزهر الشريف

تخرج في كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر، حصل على الماجستير في الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة جامعة الأزهر الشريف بتقدير ممتاز.

تلتقي حركة الخدمة بأهدافها وفلسفتها الإصلاحية ودورها الحضاري الرائد، الداعي إلى محاربة العنف والتطرف، ونشر ثقافة الحوار والتعايش السلمي وقبول الآخر، مع الأزهر الشريف منبر الاعتدال والوسطية في العالم الإسلامي.

وليس أدل على ذلك من مناقشة جامعة الأزهر أربع رسائل علمية ما بين دكتوراة وماجستير إلى الآن حول الفكر الإصلاحي الحضاري والدعوي للأستاذ فتح الله كولن.

والرسالة التي يعرض لها الباحث يحيى سلام في هذا المقال هي آخر رسالة نوقشت في جامعة الأزهر كلية أصول الدين والدعوة، قسم الثقافة الإسلامية، وكانت بعنوان: "محمد فتح الله كولن وآراؤه الإصلاحية-دراسة تحليلية-، وفيها استعرض الباحث أثر البيئة في تكوين شخصية الأستاذ فتح الله كولن، وتوقف عند أهم المحطات الفكرية التي أثرت معارفه وشخصيته العرفانية، وأهم سمات حركة كولن الفكرية، وركائز وآليات الإصلاح التي قام عليها مشروعه الإصلاحي.

اقتضت سنة الله ﷻ في كل زمان ومكان أن يقيض لهذا الدين من يقوم بالدعوة إليه، والحرص عليه، فحفظ الله هذا الدين برجال مخلصين، وأئمة يُقتدى بهم وهم العلماءُ العاملون، الذين هم ورثةُ علم النبوةِ، هيأهم الله ﷻ لخدمة هذا الدين، فأفنَوا أعمارهم في خدمة الكتابِ والسنة، واجتهدوا في الاستقامة على هديِهما، والدعوة إلى التمسك بهما، حملوا راية الدين جيلاً بعد جيل، على مر الزمان وتعاقب الشهور والأعوام من هؤلاء الشيخ محمد فتح الله كولن.

ومن ثم كانت هذه الدراسة التي تتناول إحدى أهم وأكبر حركات الدعوة والإصلاح؛ التي أسَّسها الأستاذ محمّد فتْحُ الله كولن؛ من خلال هذا المنهج الإصلاحي الذي قام على رصد مشكلات المسلمين والتعرف على أسباب تلك المشكلات ووضع المنهج الإصلاحي الذي يقوم على التغيير الإيجابي في مجال الدعوة والتربية والتعليم.

إن تجربة الشيخ كولن تجربة دعوية خالصة سواء في المنطلقات والغايات أو في الوسائل والأساليب، ومن ثم فحركة الخدمة ليست تنظيمًا مغلقًا أو حزبًا سياسيًّا، ولا حركة ذات إطار محدد، أو شروط عضوية مثلاً، وإنما هي طريق عمومي ليس ملكًا لأحد أو حكرًا على فئة بعينها.

لقد استطاعت تجربة الشيخ كولن الجمع بنجاح بين الفكر والحركة، النظرية والتطبيق، العقل والعاطفة، التربية والسلوك، في توازن فكري وحركية مبدعة، دون تقييد لحرية العاملين أو حجراً على إبداعهم، والحقيقة أن أمتنا ـ اليوم ـ في أمس الحاجة إلى الجمع بين الفكر والحركة، وتحويل النظريات إلى نماذج حية واقعية، والسير على درب يُزاوج بين العقل والعاطفة، والتربية والسلوك.

أولاً: أثر البيئة في تكوين شخصية كولن

وُلِدَ فتحُ الله كولن في السابعِ والعشرينَ من أبريل، لعام ألفٍ وتسعمائةٍ وواحدٍ وأربعينَ من الميلادِ، في قريةِ «كوروجك» بمحافظة «أرضروم»، ونشأ في عائلةٍ متدينةٍ. التحق بمدرسة عموميةٍ ودرس فيها لمدة ثلاثِ سنواتٍ غيرَ أنه لم يُكمل فيها دراستَه النظاميةَ بسببِ انتقالِ الأسرةِ إلى قريةٍ صغيرةٍ انعدمت فيها المدارسُ"[1].

اعتنى بدراسة العلوم الإسلامية، قرآنًا وحديثًا وسيرة وتصوفًا وعربية، متأثرًا بشيخه محمد لطفي أفندي، وقد ساعده على ذلك جو الأسرة التي احتضنته، علاوة على الجو الصوفي في التكايا التي نشأ فيها حيث كانت موئلاً للمشايخ وطلاب العلم. وتكشف سيرة والده ووالدته، وكذلك سيرة عائلته الممتدة إلى جده الأعلى السيد "خليل"، عن أن الخصال الطيبة، والتدين، وحسن السيرة بين الناس، تلك هي القيم التي شكلت "المشترك العائلي" لمحْضِنه الاجتماعي الأول الذي نشأ فيه، وتأثر به في مراحل الطفولة والصبا ومطالع مرحلة الشباب، وينسجم هذا "المشترك العائلي" بنزعته

للتدين والمحافظة؟ مع "المشترك الأناضولي" -إن جاز التعبير- الذي يتسم هو الآخر بذات النزعة التي تشمل الغالبية العظمى من مسلمي هضبة الأناضول منذ اعتنق أهلها الإسلام.

ولقد تحدث الشيخ كولن عن الحياة الروحية لجدته مؤنسة هانم، وعن فرط حبها له، قائلاً إنها: "كانت تعيش حياة روحية خاصة؛ فهي كثيرة التفكر والبكاء، وتحترم المشايخ والعلماء الكبار، وكانت تهتم بي اهتمامًا خاصًّا، لم أرها مرة واحدة تنظر إليَّ نظرة غضب، كانت رقيقة القلب لينة الطبع، لها عمق كالبحر المحيط، مؤمنة بربها، ورعة تقية، وشخصية أصيلة"[٢].

ولا شك أن هذه الخصال أسهمت إسهامًا كبيرًا في بناء شخصية فتح الله كولن ولعبت دورًا كبيرًا في تكوينه الروحي فسار مرهف الحس رقيق القلب غزير البكاء من خشية الله.

أما الوالد فقد أبى إلا أن يكون أبًا وصديقًا لفتح الله كولن وأن يصاحبه في طلب العلم ويشجعه عليه، كذلك الأم التي لم تدخر كذلك جهدًا في أن يتقن الطفل فتح الله القرآن الكريم منذ سن مبكرة. والحاصل أن فتح الله كولن، قد أتيح له أن يتربى تربية إسلامية أصيلة رغم الظروف القاسية التي كانت تسيطر على الواقع وتحاصره آنذاك.

ثانيًا: أهم المحطات في حياته الفكرية

مرّت حياة الشيخ فتح الله كولن بعددٍ من المحطات أسهمت -بدرجات متفاوتة- في تكوينه

nesemat.com نسيمات nesemat.com

لقد استطاعت تجربة الشيخ كولن الجمع بنجاح بين الفكر والحركة، النظرية والتطبيق، العقل والعاطفة، التربية والسلوك، في توازن فكري وحركية مبدعة، دون تقييد لحرية العاملين أو حجرًا على إبداعهم.

الفكري والثقافي يمكن حصرها فيما يلي:

المحطة الأولى

نظام التعليم الذي انخرط فيه والتحق به في قريته، ثم في أرضروم حيث «كان حظ محمد فتح الله من التعليم النظامي الرسمي «الأتاتوركي» قليلاً مقارنةً بحظه من التعليم غير الرسمي؛ فهو لم ينتظم في التعليم الحكومي إلا مدة سنتين ونصف السنة من المرحلة الابتدائية فقط، أمضاهما في مدرسة متواضعة بقريته «كوروجك» في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي. وكانت العلمانية الأتاتوركية المتشددة ضد الدين لا تزال في عنفوانها في تلك الفترة، وفي منتصف العام الثالث له بالمدرسة الابتدائية قرر والده رامز أفندي أن يمنعه من الذهاب إلى المدرسة، نظرًا لما كان يلاقيه من عنت، وخوفًا عليه من نظم التعليم العلمانية في المدارس الحكومية، شأنه في ذلك شأن العديد من أولياء الأمور.

المحطة الثانية

تأثره ببعض أساتذته وكبار معاصريه من المفكرين والعلماء على نحو خاص، وذلك بقراءته مؤلفاتهم، وإعجابه بأعمالهم وأفكارهم، وقد كان الشيخ "محمد لطفي الألواريلي" هو الأكثر تأثيرًا في

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن تجربة الشيخ كولن تجربة دعوية خالصة سواء في المنطلقات والغايات أو في الوسائل والأساليب، ومن ثم فحركة الخدمة طريق عمومي ليس ملكًا لأحد أو حكرًا على فئة بعينها.

تكوينه الروحي والمعرفي، مقارنة ببقية الأساتذة الذين درس على أيديهم خارج المدرسة، يقول الشيخ كولن: "كنت أتذوق كلامه كمن يتذوق شهدًا خالصًا. كنت إذا تحدث، أُنصت إليه، وكأنَّ على رأسي الطير، فكلامه ينفذ سريعًا إلى أعماقي، كنت أشعر أنني بإزاء عالم عظيم الشأن"[٣].

وقد ظهر هذا واضحا علي الشيخ كولن في الأثر الذي تركه الشيخ "محمد لطفي الألواريلي" في وجدان تلميذه فتح الله، ونفعه الله به، كما نفع آخرين. يقول الشيخ كولن عنه إنه "رغم مرور السنين لا زلت أشعر بأثر لمسات الشيخ محمد لطفي الحانية على أذني، وهو يقول لي: «ألِنْ أُذُنيك، وأصغِ جيدًا لكي يتفتح ذكاؤك وتقوى فراستك"[٤].

وقد تعلم الشيخ كولن الرفق، ومراعاة مشاعر الآخرين والتلطف في نصحهم، من الدروس التربوية التي تشربها من والده ومن شيخه محمد لطفي، وأثمرت هذه الدروس ثمارًا طيبة تجلت -فيما بعد- في منهجه الدعوي والإرشادي وفي كتاباته المتنوعة[٥].

المحطة الثالثة

قراءاته الحرة في مصادر المعرفة المتنوعة التي أتيحت له، وشغف هو بها. حيث شكلت القراءات الحرة مصدرًا رئيسًا من مصادر بناء ووعي محمد فتح الله وتكوينه الفكري والثقافي منذ وقت باكر جدًّا من حياته، وزادت وتيرة هذه القراءات واتسع نطاقها الموضوعي، حتى استوعبت النظريات الفلسفية والعلمية والسياسية والاجتماعية التي أنتجتها أكبر العقول في الحضارة الغربية الحديثة.

لقد واصل كولن بنفسه تعليمه الحديث الذي كان قد بدأ في المدرسة الابتدائية في مجالات العلوم والفلسفة والأدب والتاريخ، وإلى جانب ضَلَاعَتِه في المبادئ الأساسية للعلوم الحديثة بدءًا من الفيزياء إلى الكيمياء، ومرورًا بالأحياء إلى الفَلك من جانبٍ، تعرَّف من جانب آخر على الفلاسفة الوجوديين وفلسفة الشرق والغرب بمصادرهما الأمِّ المختلفة؛ فأفرزت كلُّ هذه الأمور إلى جانب المعرفة العميقة والعشق الفيَّاض، والعلم الواسع والمنطق المحيط والمحاكمة العقلية، والحكمة والحماس في الوقت ذاته، بل والبصيرة والفراسة القادرة على تحقيق التوازن في كل شيء، ثم الصفاء والرِّقّة والكرم والتسليم والمعاناة والأنين والعفَّة والتقوى والشفقة والرحمة والتسامح، وفي المقابل الحماسة المطلقة والأمل والمثالية والنظام المنضبط.. أفرزت نموذجَ صبرٍ عميق، وإنسان تربية وحركة عَرَفه الرأي العام بالأستاذ فتح الله، ولقَّبه من يعرفونه عن قُرب بلقب «خوجه أفندي» أي السيد الأستاذ[٦].

فمن يطالع سيرة «الشيخ كولن «يجد أنه كان شغوفًا منذ صغره بالقراءة وتحصيل المعرفة من

مصادر متنوعة. ولكن أيًّا كانت قوة شغفه هذه، فإن اختياراته كانت محصورة في بدايات حياته بما هو متاح أمامه من كتب، وقد كان أغلبها كتبًا تراثية، منها ما هو في اللغة، ومنها ما هو في الفقه والأصول والسيرة النبوية.

وقد ساعده على ذلك مكتبة والده المتواضعة التي تحتوي على بعض كتب سيرة رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وكانت تلك الكتب هي أول ما شد انتباهه وهو طفل صغير، حيث كان يرى والده يُكثر القراءة فيها حتى بدت ممزقة من كثرة قراءته لها.

المحطة الرابعة

المناخ الثقافي العام للمجتمع التركي، وقضايا العصر الذي عاش فيه وتأثر به، وخاصة أن وعيه قد تشكل منذ صباه الباكر في سياق الأحداث التي كانت تمر بها تركيا بعد رحيل أتاتورك مؤسس الجمهورية سنة ١٩٣٨م، واحتدام الصراعات الدولية إبان الحرب العالمية الثانية، ثم الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي، وصولاً إلى تحديات العولمة.

ثالثًا: السمات الفكرية للشيخ كولن

١- التعدد المعرفي: "بالنظر إلى مختلف المصادر المعرفية التقليدية التي درسها على شيوخه، أو المعارف والفلسفات المعاصرة التي طالعها بنفسه، فقد أكسبه هذا كله استحقاق صفة "العالم" ولذلك فإن فتح الله كولن يُعد بحق عالمًا من علماء الشريعة المجتهدين، كما جلس للإفتاء ودرس العلوم الشرعية وتخرج على يده ثلة من

nesemat.com نسيمات nesemat.com

لقد تعلم الشيخ كولن الرفق، ومراعاة مشاعر الآخرين والتلطف في نصحهم، من الدروس التربوية التي تشربها من والده ومن شيخه محمد لطفي، وأثمرت في منهجه الدعوي والإرشادي وفي كتاباته المتنوعة.

الطلبة والعلماء هم اليوم في الحركة التي تأسست بفضل صدقه وإخلاصه"[٧]، ومن ثمَّ يمكننا القول إن كولن بشخصيته العلمية والروحية الكاريزمية، وبأسلوب حياته البسيطة المتواضعة والزاهدة يعتبَر من أواخر حلقات التقاليد العلمية الإسلامية العريقة.

أجل، إن الأستاذ بما يلم به من علوم الفقه والكلام والتصوف والحديث والفلسفة واللغة واللطائف القرآنية، والأدب والبلاغة والفن والجمال، وبأسلوبه المشحون بالعواطف والمعنويات... إنه بهذه الأمور "موسوعة" بكل معنى الكلمة. فأسلوبه يستقي من مختلف المنابع الثقافية الواسعة.

علاوة على ذلك، فإن الأستاذ -من منظور أوسع- يظل مرتبطًا في جميع ما يتناوله من المواضيع بـ"رؤية حضارية" يحمل همّها. فالأدوات الفكرية والفلسفية والعقدية في خطابه، مرتبطة بـالجذور المعرفية لهذه المراجع الثلاثة لنظام المعرفة الإسلامية. وعلى الأخص فالشبكة المفاهيمية للمقالات الرئيسية التي كتبها، تؤكد دائمًا على إنشاء رؤية حضارية ذات محتوى شامل.

٢- الكتابة والتأليف: الشيخ كولن إلى

إن الأستاذ بما يلم به من علوم الفقه والكلام والتصوف والحديث والفلسفة واللغة واللطائف القرآنية، والأدب والبلاغة والفن يعد "موسوعة" بكل معنى الكلمة. فأسلوبه يستقي من مختلف المنابع الثقافية الواسعة..

nesemat.com نسيمات nesemat.com

جانب كل هذا كاتب لا يتوقف قلمه، فهو مؤلف يحتل المقام الأول في مجاله من خلال كتابته للمقال الرئيسي في العديد من المجلات والصحف، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والمؤلفات، يزيد عددها عن سبعين كتابًا ترجم بعضها إلى لغات أخرى، كالإنجليزية والألمانية والروسية والفرنسية. وبالنسبة للعربية فقد ترجم ما يتجاوز الثلاثين كتابًا من كتبه إلى اللغة العربية، والتي قامت بنشرها وطباعتها دار النيل للطباعة والنشر بالقاهرة، وقد غُيّر مسماها حديثا إلى دار الانبعاث للطباعة والنشر[٨].

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن لفتح الله كولن: آراءه المميزة في علم الاجتماع وفي علم النفس وفي السياسة والاقتصاد، والفلسفة المعاصرة والقديمة، الإسلامية وغير الإسلامية، بالإضافة إلى معرفة دقيقة بتاريخ الأمم والحضارات، وهو عندما يتحدث في المجال تحسبه مؤرخا متخصصًا في تاريخ الحضارة والمدنية والعمران.

وكولن فوق كل ذلك رجل تربية وتعليم، وصاحب تجربة عميقة في هذا المجال؛ فقد مارس التعليم بصنوفه المختلفة العصرية والتقليدية، وألف في هذا المجال[٩].

٣- النموذجية في تقديم الشخصية المسلمة العصرية: اتسم فكر الشيخ محمد فتح الله، بالنموذجية في تقديم الشخصية المسلمة العصرية المعتمدة على العلم والحركة والقائمة على الأخلاق والمثل والمبادئ الإسلامية التي يزخر بها ديننا القويم ويصل بها إلى درجة عالية من الرقي الروحي والاجتماعي معا من خلال نسق متوازن وسليم.

فمن استطلع أو نظر إلى الأعمال التي يقدمها الشيخ كولن سواء من خلال مؤلفاته، أو مقالاته في الصحف والمجلات، أو من خلال خطبه ودروسه، ومواعظه، لوجد أنها تنصب جميعًا نحو غاية واحدة ألا وهي: تربية الأجيال المسلمة المعاصرة عقليًا وروحيًا بهدف خلق إنسان جديد بفكر جديد يستطيع الموازنة بين القلب والعقل، وبين الوحي ومتطلبات العصر، وبين الدين والحياة.

إن أيَّ نهضة منشودة أو إصلاح مرجوّ لن يتحقق كما يرى الشيخ كولن إلَّا بالإصلاح الجاد في ملكات الشخصية المسلمة العقلية، والروحية، والفكرية، فالصالحون من عباد الله هم ورثة الأرض قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء، ١٠٥).

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ كولن: "إن أول خطوة في مشروع الإصلاح، هي إنتاج الإنسان، الإنسانُ الذي أفنى نفسه في قضية أمته، وتعلق قلبه بأشواق الآخرة، ثم اتخذ مهمته التعليمية

مسلكًا لمعرفة الله وعمارة الأرض"[١٠].

ويحدد الشيخ كولن مهمة الإصلاح وسبله ووسائله التي ينبغي على الإنسان أن يحققها، فيقول: "إن إصلاح الأجيال، مرتهن بإصلاح التعليم، وإخراج فلسفته من ضيق المنطق الوظيفي الميت، إلى سعة العمل الإنساني النبيل، ألا وهو بناء الإنسان بكل أبعاده النفسية والفكرية. وإن التعليم بهذا المنطق النبوي الكريم، يستطيع أن يجدد البنى الاقتصاديةَ، والعلاقات الاجتماعية والسياسيةَ والثقافية، ويحدوها برفق وهدوء، نحو التآلف والتكامل والنهوض"[١١].

ثم يشرح الأستاذ كولن حقيقة الإصلاح الذي ينشده فيقول: "إن الإصلاح تربية وتعليم، وما كان ينبغي للمعلم إلا أن يكون رحيمًا حكيمًا. ومن ثَمَّ فإن التعليم بكل أبعاده الشمولية، هو الذي يمثل جوهر المنهاج الإصلاحي"[١٢].

فمنهج الإصلاح عند كولن قائم ومرتكز على قضية التربية، والمراد بالتربية هنا، هي التربية الشمولية، التي تشمل الإنسان في جميع مراحل حياته.

رابعًا: ركائز وآليات الإصلاح في مشروع الأستاذ كولن الإصلاحي

أ- الاعتماد على القرآن الكريم: يلتقي الأستاذ فتح الله كولن مع العديد من مفكري الإصلاح في قضية الارتكاز على القرآن الكريم، فأغلب مفكري الإصلاح إن لم نقل كل مفكري الإصلاح الذين ينطلقون من رؤية إسلامية يجمعون على ضرورة

إن أيَّ نهضة منشودة أو إصلاح مرجوّ لن يتحقق كما يرى الشيخ كولن إلَّا بالإصلاح الجاد في ملكات الشخصية المسلمة العقلية، والروحية، والفكرية.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الرجوع إلى القرآن الكريم.

فالأستاذ دائم الإلحاح على مركزية القرآن الكريم والسنة النبوية في مصادر الثقافة الذاتية كما يطلق عليها، وهو عندما يثيرهما نلاحظ بأنه يربطهما بالعلاقة الرابطة بين "الإنسان-الكائنات-الله"، على أساس وجوب إدراك هذه العناصر كلها في بوتقة واحدة، إذ تعتبر هذه العلاقة من أهم الأسس التي ينبني عليها نظام ثقافتنا الذاتية.

وفي مواضع عديدة يؤكد كولن أن تلك العلاقة لا ينبغي أن تقف عند حدود الخطاب بل يركز على "جانب الحضور الفعلي لهذين المصدرين في الحياة من خلال بناء نماذج بشرية متحلية بثقافة تستمد مرجعيتها من سنة رسول الله ومنهجه في الحياة ومنهجه في التفاعل مع الكون، ومن خلال الاسترشاد بالقرآن الكريم وما يتصل به من تفسير وفقه وأصول فقه.. وهو إذ ينبه إلى ذلك كله إنما ينبه إلى الأساس المتين الذي يكون خير عون للإنسان في مسيرة البناء والانبعاث من جديد والنهضة.. وهو كذلك إذ ينبه إلى ذلك يؤكد بأن كل منطلق لا ينطلق من خصوصيات ذاتية، فإن نتاجه ومخرجاته سلبية لا محالة، ولن يكون هناك انبعاث ولا نهضة، ولذلك

إن منهج الإصلاح عند كولن قائم ومرتكز على قضية التربية، والمراد بالتربية هنا، هي التربية الشمولية، التي تشمل الإنسان في جميع مراحل حياته.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

وجب الارتكاز على هذه الخصوصيات. بمعنى أن الأستاذ فتح الله كولن يجعل القرآن الكريم والسنة النبوية وتوابعهما شرطين أساسيين للانبعاث الحضاري والنهضة والتقدم. ولا يقف هذا الرجوع إلى هذه الأصول عند مجرد اجترار ما قدمه السلف، بل لا بد للأجيال الحالية من أن تسجل حضورها"[١٣].

لقد طاف الشيخ كولن في معاني وأسرار القرآن الكريم الذي جعله الله آخر اتصال بين السماء والأرض فشرع الأستاذ في تدبر آياته وتفهم معانيه وغاص في أسراره ليستخرج من جواهره ولؤلؤه ما يستغني به الإنسان عن غيره، لقد فهم الشيخ كولن أن القرآن جاء لينظم قوافل الأحياء البشرية، فهو ليس كتابا يقرأ على الموتى لنلتمس لهم الغفران كما يتوهم البعض، أو يوضع على الأرفف في البيوت أو يعلق في السيارات للتبرك كما فهم بعضنا، ولكن القرآن كتاب كون وحياة، كتاب دين ودنيا، كتاب جاء لينظم القوافل البشرية ويقدم لها كل ما فيه صلاح وإصلاح ونفع لحياتهم. تلك هي نظرة الشيخ أخي القارئ إلى كتاب الله المنبع الصافي والجواب الشافي لكل معضلات الحياة.

ب- السنة ودورها الإصلاحي في رؤية فتح الله كولن: يأتي ثاني أهم مرتكز من مرتكزات الإصلاح عند الأستاذ فتح الله كولن متمثلاً في "السنة النبوية المطهرة» التي تحتل مكانة مهمة جدًا في رؤية الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحية، نظرا لأنها -كما يرى الأستاذ فتح الله- الوجه الآخر للقرآن الكريم، والصورة المطبقة لحقيقة القرآن الكريم، يقول الشيخ كولن: "كان الرسول ﷺ قرآنًا يمشي، فكما أن القرآن المنظور تفصيل للقرآن المكتوب، وكما أن القرآن المكتوب ترميز للقرآن المنظور، فإن السيرة النبوية الشريفة هي القرآن المطبق، ولذلك يستحيل الاستغناء عن السنة والسيرة النبوية في استيعاب أبعاد القرآن الكريم الدلالية والتداولية"[١٤].

ولأهمية هذا الجانب في مشروع الشيخ كولن الإصلاحي فقد أولاه عناية خاصة، ويمكن تقسيم هذه العناية إلى ثلاثة جوانب: -

الجانب الأول: مرتبط بطبيعة شخصية الأستاذ كولن

إذ جعل من السنة النبوية منهجًا شخصيًا يتمثل في الاجتهاد في اتباع جميع الجوانب المتعلقة بالسيرة النبوية من خلال اتخاذ شخصية الرسول ﷺ قدوة يقتدي بها في جميع تفاصيل حياته. والظاهر -من خلال ما يرويه تلامذته عنه: "أنه حريص على تطبيق السنة النبوية حرصًا لا مثيل له، وليس هذا غريبًا على مربٍّ عاش حياته كلها وقلبه متشبثٌ بعصر الصحابة

أو بما يُطلِق هو عليه "عصر السعادة"، وهو حريص كذلك كل الحرص على أن يتخذ تلاميذه الصحابة الكرام قدوة لهم، وأن تكون السيرة النبوية وسيرة الصحابة الكرام منهجًا يحرك كل فعل وسلوك"[١٥].

الجانب الثاني: التطبيق للسنة النبوية المطهرة

إن اهتمام الأستاذ كولن بصورة خاصة، والخدمة بصفة عامة بهذا الجانب يتجلى على الخصوص في العمل على تنزيل مبادئ السنة في الحياة الواقعية؛ لأن السنة ليست مجرد مظهر احتفالي في رؤية الخدمة، بل هي منهج حياة؛ لأن عددًا كبيرًا من المنخرطين في "الخدمة" قد لا يُقنعون المتلقي في تحديد ماهية السنة وتعريفها، لكن عندما تعايشهم عن قرب تلمس في تصرفاتهم وأقوالهم مظاهر من السنة وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة الكرام.

الجانب الثالث: المتصل بالتأليف

لقد اهتم الشيخ كولن بالسيرة من خلال تدريسه لسلسلة من المحاضرات والخطب حول السنة والسيرة النبوية، وهي الخطب التي صارت أصلاً لكتاب هو اليوم من أهم كتب السيرة في العصر الحديث، وهو "كتاب النور الخالد" [١٦]، الذي يعد رؤية حركية للسيرة النبوية الشريفة[١٧].

خصص الأستاذ فتح الله كولن في نهاية كتاب "النور الخالد" ملحقًا عنوانه "السنة النبوية ومكانتها في الشريعة الإسلامية"، كدليل على أهمية هذا المكون بالنسبة للثقافة الذاتية للمسلم، كما

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن القرآن جاء لينظم قوافل الأحياء البشرية، فهو ليس كتابًا يقرأ على الموتى لنلتمس لهم الغفران كما يتوهم البعض، أو يوضع على الأرفف في البيوت أو يعلق في السيارات للتبرك كما فهم بعضنا.

يدل في الوقت نفسه على صفاء السنة من الشوائب التي قد تطعن فيها، لكنها تدل في الوقت نفسه على الدور الذي قام به الصحابة الكرام في تدوين السنة والحفاظ عليها، والدور الذي قام به كبار العلماء الذين تربّوا على السنة النبوية من خلال وضعهم للضوابط التي حصّنت السنة وحمَتْها من التحريف والتزوير، من خلال بنائهم لمنظومة "علم الحديث" الذي يعتبر اليوم من أكثر العلوم دقة وانضباطًا للمنهج العلمي الذي توصّل إليه العقل البشري.

إن الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، ووضع خطة عمل لتفعيل ذلك، وهذا الجانب هو في صميم الرؤية الفكرية للأستاذ كولن، حيث يرى أن تأسيس الأجيال على الأسس التربوية المستقاة من القرآن الكريم والسنة النبوية أمر لا رجعة فيه، وأنه عندما تركت هذه الأسس التربوية القرآنية والنبوية وجرّبت النظم التربوية الأخرى التي وضعها علماء النفس وعلماء الاجتماع وجدنا جيلاً متخبطًا في حياته لا يدري في أي الاتجاهين يسير، يقول الشيخ كولن: "رأينا أجيالاً من الشباب الضائع الغارق في المشاكل والمضطرب في تيار الأهواء ونوازع النفس. وستبقى الإنسانية تتجرع الآلام وتعيش في الأزمات

إن السيرة النبوية الشريفة هي القرآن المطبق، ولذلك يستحيل الاستغناء عن السنة والسيرة النبوية في استيعاب أبعاد القرآن الكريم الدلالية والتداولية.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

طالما كانت بعيدة عن أسس التربية القرآنية. ولكن عندما تتصادق الإنسانية مع القرآن ستفهمه وتدرك مراميه وتستسلم له فتصل إلى شاطئ الأمن والطمأنينة. أي لن تجد القلوب ولا العقول غذاءها ولا سعادتها إلا عند توجيهات القرآن وأوامره"[١٨].

ج- المدرسة ودورها الإصلاحي في مشروع الأستاذ كولن الإصلاحي: يعد الشيخ فتح الله كولن واحدًا من أبرز الداعين إلى إصلاح المجتمع من خلال التعليم، ولكنه يتميز بصدارة التطبيق العملي لهذه الدعوة والنجاح الباهر في نتاجها. "فقد آمن الأستاذ فتح الله كولن مبكرًا بأن أعداء الأمة الحقيقيين ثلاث آفات، هي: (الجهل والفقر والفرقة). فنذر حياته لمحاربة هذا التلوث الذي يفتك بالأمة جاعلاً من محاربة الجهل أولويته الأولى باعتباره من أهم العقبات أمام بناء الإنسان الصالح، ومن ثم المجتمع الصالح"[١٩].

يقول الأستاذ كولن: "لقد أكد الرسول ﷺ هذا التوجيه عندما أرسل سيدنا مصعب بن عُمير رضي الله عنه بعد بيعة العقبة إلى يثرب ليُعلِّم الناس، أي ليثقفهم ويعلمهم دينهم الجديد، ويعيد صياغة مفاهيمهم عبر إعادة بناء أفكارهم، ومن خلال التعليم يتم تحضير البيئة التي ستشهد ولادة أول دولة للإسلام"[٢٠].

ولهذا "سعى الأستاذ فتح الله كولن إلى بناء منظومة تعليمية تربوية متكاملة، تبدأ من رياض الأطفال، وصولاً إلى الجامعة، وبفضل إصراره حققت حركة الخدمة نجاحات كبيرة في بناء هذه المنظومة. إذ صار الآن لدى الحركة شبكة من المدارس في مختلف المراحل التعليمية منتشرة في تركيا وفي خارجها"[٢١].

لقد شعر الأستاذ كولن بالدور الخطير الذي تلعبه المدرسة والجامعة في عقول الأجيال وإصلاحهم، واقتنع اقتناعًا تامًّا بأهمية المدرسة والجامعة."حيث كانت الشيوعية منتشرة جدًّا في بداية الستينات، وكانت الأسر يعتريها الخوف من إرسال أبنائهم إلى المدرسة والجامعة خوفًا من تأثير الجامعة على أبنائهم، من هنا كان تركيز الشيخ كولن على التعليم، واقترح أن يقيم نظاماً تعليميًا يحتضن كل الشعب"[٢٢].

"في عام ١٩٦٧م وجَّه أنظار الأغنياء ليفتحوا بيوتًا للخدمة التعليمية، مستلهمًا هذه الفكرة من دار الأرقم التي كانت النواة الأولى في تخريج أجيال الصحابة. وقد انتشر هذا النوع من المنازل التعليمية انتشاراً واسعاً في فترة وجيزة"[٢٣].

"وأوجدت هذه البيوت التعليمية لدى الناس قناعة بالاطمئنان في أن يسلموا أبنائهم لبيوت الخدمة التابعة للأستاذ كولن، ثم اندلعت أزمة اقتصادية وتعليمية في تركيا، وانطلقت حملة قادها الأستاذ كولن لتشجيع القطاع الخاص، للاستثمار في

مجال التعليم"[٢٤].

إنشاء المدارس

"في عام ١٩٨٧م كان الشيخ كولن يلقي خطبه ودروسه في المساجد الكبيرة، كمسجد السلطان أحمد، ومسجد السليمانية، وكانت طبيعة الدروس التي كان يحضرها عشرات الآلاف من الناس تركز على التربية والتعليم، فاقتنع العديد من مستمعيه بأفكاره ومن ثمّ تسابق أشراف المدن وأغنياؤهم لإنشاء المدارس"[٢٥].

من المحلية إلى العالمية

"بدأ فتح المدارس في دول أخرى خارج تركيا منذ بداية التسعينيات؛ فقد تأسست أول المدارس خارج البلاد سنة ١٩٩١، وذلك في آسيا الوسطى إثر انهيار الاتحاد السوفيتي، فيما كانت التجربة قد بدأت قبل ذلك بسنوات داخل تركيا"[٢٦].

في صيف عام ١٩٩٠م وجه الأستاذ فتح الله كولن دعوة إلى الشعب التركي من على كرسي الوعظ في المساجد السلطانية «إلى نجدة إخوانه في الدم والدين، الذين خرجوا من الاستعمار (الروسي) قبل أن يدخلوا تحت سيطرة استعمار ثان، وبأثر من تلك الدعوة استضاف الشعب التركي في تلك السنة ما يناهز الثلاثين ألف عائلة من آسيا الوسطى، وهو ما أعطى المدارس فيما بعد قاعدة شعبية من كل الناس بعد موجة التعاطف والانخراط الشعبي في المبادرة.

لم تقتصر تجربة إنشاء المدارس على تركيا ثم دول آسيا الوسطى، بل بدأت التجربة تعمّ العالم

nesemat.com نسيمات nesemat.com

عندما تركت الأسس التربوية القرآنية والنبوية وجرّبت النظم التربوية الأخرى التي وضعها علماء النفس وعلماء الاجتماع وجدنا جيلاً متخبطًا في حياته لا يدري في أي الاتجاهين يسير.

كله، حيث وصل عدد المدارس لأكثر من ألفي مدرسة تنتشر في أكثر من ١٧٠ دولة حول العالم، من تنزانيا وكينيا وجنوب أفريقيا ونيجيريا والسنغال والنيجر، إلى الصين وكوريا الجنوبية وأفغانستان، وكذلك أوروبا والأمريكيتين، بالإضافة إلى العديدي من الجامعات داخل وخارج تركيا.

أصبحت شبكة المدارس الواسعة التي أنشأها طلاب الأستاذ كولن في مختلف أنحاء العالم تحقق مستويات عالية من مستويات التكوين التربوي والمعرفي، وتبعا لذلك أصبحت السمعة العلمية لبعض هذه المؤسسات تضاهي في سمعتها الأكاديمية بعضًا من أعرق المؤسسات التعليمية في العالم.

وحين تتم دراسة تجربة هذه المدارس عن قرب فإن أهم الخلاصات التي يخرج بها الباحث: أن لهذا النجاح أسبابًا لا أسرارًا، بمعنى أن هذا النجاح فضلاً عن النموذج الإنساني المتميز الذي يقف وراءه بجد واستماتة منقطعة النظير، فهو نجاح مستحق لجهد من الإعداد الفني والاستعانة بكل ما قد يساعد عليه من أسباب ووسائل وخبرات وتجارب، سواء منها ما تعلق بالمستوى المادي من حيث البناء والتجهيز، أو ما يتصل بالأطر التربوية

إن الإصلاح الذي ينشده الأستاذ كولن، إصلاح بالعلم والحكمة التي تقتضي أن يكون المصلح على بينة ودراية بآفات عصره الذي يعيش فيه، وأن يشخص الدواء المناسب لكل علة ومرض.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

والإدارية، وخاصة معايير الاختيار ومسارات التكوين المستمر للمدرس، أو متطلبات العملية التعليمية من وسائل ومناهج.

د- رحلات الحوار بين الأديان: لا تتوقف حركة كولن عند الوسائل التقليدية للحوار والتقارب مع الآخَر؛ ولكنها تبتكر أفكارًا وبرامج جديدة وجذابة، ومن هذه البرامج المبتكرة «برنامج يُدعَى"Be Muslim for a month" أيْ "كُن مسلمًا لمدة شهر"؛ وهو برنامج سياحي يُقدِّم دعوات لسيّاح غربيين غير مسلمين ليقضوا شهرًا في إسطنبول، وغالبًا ما يكون في شهر رمضان حيث الروحانيات المرتفعة، وخلال هذه الرحلة يعيش السائح الغربي الحياة الإسلامية بكل تقاليدها، ويتم دعوته لحضور الصلوات الخمس، وزيارة الآثار الدينية في تركيا، والاستماع إلى محاضرات بعض من اعتنق الإسلام من الغربيين لعرض تجربتهم وكيف ساعدهم الإيمان على سعة الأفق والتفاعل مع العالَم، ولمزيد من التقارب والتعارف تستضيفه بعض الأسر التركية الملهَمة بفكر الأستاذ فتح الله كولن"[٢٧].

وقد سعى الأستاذ جاهدًا أن يحسن صورة الإسلام لدى الغرب التي شوهها المغرضون، والقضاء على ظاهرة "الإسلاموفوبيا"، والسعي نحو مزيد من الشعور بالوحدة بين الناس. فمنذ عام (٢٠٠٥م) أصبح مئات من غير المسلمين مطلعين على حركة كولن نتيجة للمشاركة في رحلات الحوار بين الأديان إلى تركيا التي ترعاها مؤسسات تابعة لحركة كولن، حيث يتعرف المشاركون في الرحلات -التي تتراوح مدتها من ثمانية أيام إلى عشرة- على المواقع التاريخية والثقافية والدينية في تركيا، وتتوفر لهم فرصة للتفاعل مع عائلات مسلمة، وليس الغرض من تلك الرحلات بأي شكل من الأشكال التعبئة للحركة، بل هي رحلات يتم تنظيمها للترويج للحوار بين الأديان ونشر الصورة الصحيحة لوسطية الإسلام.

وميزة هذا البرنامج أنه يعتمد على الاحتكاك المباشر ومعايشة الحياة الإسلامية عن قرب، فإذا كان الحوار والتعارف والتعاون المشترك هو أحد الأبعاد المهمة من وراء الفعاليات المتعددة للمؤسسات التابعة لحركة كولن؛ فإن هذا البُعد في الأصل يخدم بُعدًا أكبر وهدفًا أسمى وهو تبليغ دين الله تعالى إلى آفاق الدنيا، لأن جميع الفعاليات التي تقوم بها الحركة في شتى المجالات هدفها إرضاء الله تعالى بتعرف الخلق على الحق تعالى، وتلك مهمة الأنبياء والرسل عليهم السلام في كل زمان ومكان.

يقول الأستاذ كولن: "إن تعليم بني البشر لإصلاح أمرهم هو المهمة الرئيسة للأنبياء والرسل، وهو ما أكدته الكثير من آيات القرآن الكريم. من

ذلك قوله تعالى: ﴿لقد مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(آل عمران:١٦٤)، وكذلك قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(الجمعة:٢)"[٢٨].

ولهذا فإن الأستاذ كولن يدعو دعاة الإصلاح في كل زمان ومكان أن يعملوا على ترسيخ أفكار نبذ العنف والكراهية والصراع في كافة مستوياته سواء على المستوى الحضاري أو الدولي أو بين المذاهب والأديان المختلفة، وأن يحاولوا جمع القلوب المختلفة والعقول المتناحرة على مائدة المحبة والتعايش السلمي وقبول التعددية والتنوع الثقافي بين جميع البشر.

يقول الأستاذ كولن: "أيها المصلحون بشتى توجهاتكم الفكرية وانتماءاتكم السياسية والحزبية اقتحموا ميادين الإصلاح لبناء نهضة بلدانكم، وادخلوا بها في عالم المنافسات الحضارية العالمية، فضوا مشاكل البيت الواحد بالحلول الأخوية السلمية، حكّموا منطق موازنات مصالح أمّتكم، واجهوا الخلافات بمنطق العدل والحكمة والتراحم عند الاختلاف"[٢٩]

إن الإصلاح الذي ينشده ويريده الأستاذ كولن، إصلاح يتسم بالعلم والفطنة دون عجرفة أو عنجهية أو إملاء رأي على رأي آخر، إنما هو إصلاح

nesemat.com نسيمات nesemat.com

لقد سعى الأستاذ جاهدًا أن يحسن صورة الإسلام لدى الغرب التي شوهها المغرضون، والقضاء على ظاهرة "الإسلاموفوبيا"، والسعي نحو مزيد من الشعور بالوحدة بين الناس.

بالعلم والحكمة التي تقتضي أن يكون المصلح على بينة ودراية بآفات عصره الذي يعيش فيه، وأن يشخص الدواء المناسب لكل علة ومرض.

لذا يقول الشيخ كولن عن الجهل: "الجهل قناع على وجوه الأشياء، والشخص الذي لا يمزق هذا القناع عن وجهه شخص نكد الحظ لا يستطيع النفوذ أبدًا إلى الحقائق الكونية السامية، وأكبر جهل وأعظمه هو الجهل بالله تعالى. عندما يترافق هذا الجهل مع الأنانية فإنه يتحول إلى جنون لا يمكن الشفاء منه"[٣٠].

وأخيرًا وليس آخرًا يدعو الأستاذ كولن جميع المصلحين أن يتحلوا بالإخلاص حتى تتسم دعوتهم بالديمومة؛ إن الأستاذ كولن يعتبر تصفير النفس شرطًا أساسيًّا لضمان "استمرار" الألطاف من الله تعالى، ويعتبر بروز الأنا سببا في انقطاع تلك الألطاف، فيقول: "إذا أردت للعناية الإلهية أن تستمر بالهطول عليك في نجاحاتك، فتخلّ عن ادعاء الفضل لذاتك، اعمل على محو الأنا، وانسب الفضل إلى صاحب الفضل، وتواضع أمام الله"، ويحذر بالمقابل من مخاطر الأنانية: "الحذرَ الحذرَ من الوقوع في براثن الأنانية، فردية كانت أو جماعية. لأن الأنانية سبب

إن كولن يأتي بتفسير معقول لتصفير الأنا يؤطره بمفهوم آخر يسميه "الممرية"، فليس من حق الإنسان أن ينسب الأفضال إلى ذاته، لأنه ممر لها أصلاً.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الحرمان من عون الله"، ويحذر بالمقابل من مخاطر الأنانية ورغبة الإنسان في التسلط فمن جميل ما قاله الأستاذ كولن في هذا الصدد قوله:"تخلّ عن دعوى الأنانية، صفِّر نفسك، ودع خالق الأرقام يضع الرقم الذي يريد إلى جانبك"[٣١].

ويأتي كولن بتفسير معقول لتصفير الأنا يؤطره بمفهوم آخر يسميه "الممرية"، فليس من حق الإنسان ينسب الأفضال إلى ذاته، لأنه ممر لها أصلاً، ويعبر عن هذا المعنى بعبارات في غاية الرقة والعمق حيث يقول:

"على الإنسان أن يبذل في سبيل الله كلَّ ما أوتي من جهد، ولكن عليه أن يلزم حدّه في جنب الله، ويعيَ منزلته، ويكون في يقظة وحذر، لا يتعدى حدوده ولا ينسب لنفسه ما ليس منها، عليه ألا يَنسب الجمال إلى نفسه ألبته، وأن يستحضر دائمًا أنه ليس مظهرًا للجمال، بل هو ممر له على الأكثر؛ لأننا لسنا أصل الجمال، أصل الجمال هو الله، وليس الجمال ملازمًا لذاتنا، فلا يليق نسبة الجمال إلا بصاحب الجمال. أجل، لسنا مصدر الجمال، وجمالنا ليس نابعًا منا، بل منه سبحانه. فمن كان هذا فكره، بارك الله له في أعماله، وأصبح بطلَ الآية التي تقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(إبراهيم:٧)، وأفاض الله عليه من نعمه دون انقطاع.

الختام

وفي الختام نستطيع الوصول إلى نتيجة مهمة تتعلق بإيجابية الفكر والحركة، بمعنى عدم الوقوف عند نقد الآخرين وتفنيد سلبياتهم، بل بالاهتمام بطرح الحلول والبدائل التي يمكن تطبيقها، في ظل قيود الواقع ومعطياته الفعلي، ومن هنا اعتمدت الحركة سياسة تقوم على أن تقديم البدائل أهم من انتقاد النواقص، وأن إضافة طريق جديد أجدى من المزاحمة على الطرق القديمة. ■

الهوامش

(١) أرطغرول حكمة، قصة حياة ومسيرة فكر، ترجمة: د. خالد جمال عبد الناصر، دار النيل للطباعة والنشر القاهرة، ط٢، ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م، ص٧.

(٢) محمد فتح الله كولن، دنياي الصغيرة، ص١٣.

(٣) أديب إبراهيم الدباغ، سيرة حياة فتح الله كولن، غير منشور، ص١٦.

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) محمد فتح الله كولن، الموازين أو أضواء على الطريق، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٩م، ص١٤٥.

(٦) على أونال، فتح الله كولن ومقومات مشروعه الحضاري، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٧، ص٣٦٩.

(٧) انظر في هذا الإطار ما كتبه فريد الأنصاري عن الأستاذ كولن في كتابه "عودة الفرسان.. سيرة محمد فتح الله كولن، رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب"، ص٥٢. وانظر كذلك

البحث الذي قدمه إبراهيم البيومي غانم، في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، معالم في سيرة "هوجا أفندي: محمد فتح الله البسّام الأناضولي"، ص٢١٥-٢٥٦.

(٨) محمد جكيب، أشواق النهضة والانبعاث قراءات في مشروع الأستاذ فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣م، ط١، ص١١٣.

(٩) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(١٠) الكلمة الافتتاحية للشيخ كولن، كلمة مكتوبة ألقاها الأستاذ نوزاد صواش المشرف العام على مجلة حراء، في مؤتمر القاهرة الدولي بجامعة الدول العربية ,١٠/١٩ /٢٠٠٩م، ونشرت هذه الكلمة في افتتاحية مجلة حراء العدد ٢٣، شهر رجب، لعام ٢٠١٠م.

(١١) عبد الإله بن مصباح، آفاق اليقينيات العلمية من تجليات رؤى فتح الله كولن الاستشراقية، دار النيل للطباعة والنشر، ط٢، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٥٣.

(١٢) الكلمة الافتتاحية للشيخ كولن في مؤتمر مستقبل الإصلاح، جامعة الدول العربية، القاهرة، مرجع سابق.

(١٣) محمد جكيب، أشواق النهضة والانبعاث قراءات في مشروع الأستاذ فتح الله كولن، مرجع سابق، ص١١٦.

(١٤) محمد فتح الله كولن، أسئلة العصر المحيرة، دار النيل للنشر، القاهرة، ط٣، ٢٠١٤م، ص٣٤.

(١٥) مقابلة شخصية للباحث مع أحد أبناء الحركة في القاهرة بمقر مركز النيل للغات، بتاريخ :٢٠١٥/٩/٤م.

(١٦) النور الخالد محمد صلى الله عليه وسلم مفخرة الإنسانية، عبارة عن جولة مباركة في آفاق السيرة النبوية الشريفة، تأليف الأستاذ محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر.

(١٧) محمد جكيب، أشواق النهضة والانبعاث قراءات في مشروع الأستاذ فتح الله كولن، مرجع سابق، ص١١٧.

(١٨) محمد فتح الله كولن، أضواء قرآنية في سماء الوجدان، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٣م، ص٢٧٧.

(١٩) مريم آيت أحمد، التعليم أساسًا للإصلاح تجربة كولن وبن عاشور نموذجًا، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ص٥٥.

(٢٠) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢١) محمد جكيب، أشواق النهضة والانبعاث الحضاري، قراءه في مشروع فتح الله كولن، مرجع سابق، ص١٢٢.

(٢٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٣) نوزاد صواش، جولة تاريخية في مدارس كولن الإصلاحية، مجلة حراء، عدد١١، ٢٠١٦م، ص٦٢.

(٢٤) ندوة نقاشية دعي إليها الباحث بمركز النيل للطباعة والنشر بالقاهرة بتاريخ ٣/٥/ ٢٠١٥م.

(٢٥) المصدر السابق.

(٢٦) محمد أنس أركنة، فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٣٤١.

(٢٧) فؤاد البنا، عبقرية فتح الله كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣، ٢٠١٤، ص١٣٤، بتصرف.

(٢٨) فتح الله كولن، "لدى استكشافنا خط السير"، مجلة حراء، عدد ١٤، السنة الرابعة، ٢٠٠٨م، ص٢١ بتصرف.

(٢٩) مريم آيت أحمد، ميادين الإصلاح في مشروع الشيخ كولن، مجلة حراء، العدد ٢٤، ٢٠١١م، ص٤٥.

(٣٠) محمد فتح الله كولن، الموازين أو أضواء على الطريق، مرجع سابق، ص١١٨.

(٣١) نوزاد صواش، أن تكون صفرًا، موقع نسمات للدراسات الاجتماعية والحضارية، ٩/ ٨/ ٢٠١٩.

الخدمة
دعوة إلى الحوار والتعايش

د. هدى درويش

أستاذ ورئيس قسم الأديان المقارنة بمعهد الدراسات والبحوث الآسيوية بجامعة الزقازيق، وعميد معهد الدراسات والبحوث الأسيوية الأسبق، ومؤسس ومدير مركز الدراسات الإسرائيلية بجامعة الزقازيق ونائب مقرر المجلس القومي للمرأة فرع الشرقية، وعضو اللجنة العلمية لترقية الأساتذة في الجامعات المصرية.

الأستاذة الدكتورة هدى درويش، من أوائل الأكاديميين العرب الذين تعرفوا على فكر الأستاذ كولن، وأشرفت وناقشت العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه في فكر الأستاذ فتح الله كولن وتجربة الخدمة؛ وفي الحوار الذي أجراه معها الدكتور أبو زيد عبد الرحيم مدير تحرير نسمات أكدت على أن كتابات الأستاذ فتح الله كولن توافقت مع توجهها الروحي، وأصبحت تمثل مرجعًا لها في أعمالها، ولعل هذا التأثير كما أشارت يرجع إلى روح الأستاذ كولن المفعمة بالمحبة وقلبه السليم المتوجه إلى الله تعالى.

الحوار ثري وماتع يحوي إجابات عن عدد من الأسئلة تدور حول النقاط الجوهرية المتفردة في خطاب كولن، والإضافة التي قدمتها الخدمة للفكر الإسلامي والإنساني نظريًّا وتطبيقيًّا، وأهم ملامح الفكر التربوي المُطَبَّقة في مؤسسات الخدمة التربوية، وكيف عالجت أفكار كولن الوسطية المعتدلة الأفكار المنحرفة؟

لقد كنت من أوائل الأكاديميين العرب اللذين تعرفوا على فكر الأستاذ فتح الله كولن فهل يمكن أن تشرحي لنا كيف تعرفت على هذا الفكر وصاحبه؟

كانت بداية تعرفي على فكر الأستاذ فتح الله كولن من خلال كتابه الذي يحمل النفس الصوفي (التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح)، والذي أهداه إليّ تلامذة الشيخ في مصر. وقد لامس هذا الكتاب شغاف قلبي وكياني؛ لأسلوبه المبدع الذي يُخاطب الروح والوجدان ويرتقي بالنفس إلى آفاق رحبة من العبودية الحقة وتمثُّل الفضيلة فيتحقق للإنسان الغاية من وجوده. وقتها وجدت نفسي أشتاق للتعرف على هذه الشخصية المؤثرة ورغبت في قراءة أعماله التي قدمها لي تلاميذه والمؤمنون بأفكاره إهداءً وتفضلاً، حيث صادفت كتاباته توجهي الروحي وتخصصي العلمي في مقارنة الأديان والدعوة للتسامح والتعايش بين بني الإنسان ومنذ ذلك الوقت أصبح الأستاذ فتح الله كولن وكتاباته مرجعًا لي في أعمالي.

تناولَت كثير من الدراسات شرقًا وغربًا الأستاذ كولن من جوانب متعددة، ولكن من وجهة نظركم ما هي الخصوصية الفكرية التي انفرد بها فكر الأستاذ كولن؟ وما هي الإضافة التي قدمتها الخدمة للفكر الإسلامي والإنساني المعاصر نظريًا وتطبيقيًا؟

إن النقطة الجوهرية المتفردة في خطاب الأستاذ فتح الله كولن تكمن في مركزية قضية الإيمان، بشكل نكاد لا نجده في أي خطاب آخر لأي من المصلحين المعاصرين.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

مكمن الخصوصية الفكرية لدى الأستاذ في عنوان رئيس ألا وهو خدمة الإنسانية والسماحة الدينية، وهذا العنوان يتكون من شقين: أحدهما معنوي والآخر محسوس، حيث بلغ الأستاذ شأوًا فريدًا في كليهما وقد أعطاه الله ملكة تعبيرية فريدة من نوعها تفتح له القلوب والعقول في آن معًا.

فالمتابع المدقق لأفكار الأستاذ فتح الله كولن ومشروعات الخدمة يتضح له أن قائمة اهتمامات الأستاذ كولن طويلة، تبدأ بمكافحة الفقر وتمر بالتربية والتعليم وتصل إلى تقديم الخدمات الإغاثية، وعلى رأس أولوياته يأتي الحوار والانفتاح على الآخر واحترام معتقداته أيًّا كان لونه وجنسه وانتماؤه الفكري، والفكرة الجامعة لكل هذه الأنشطة، هي بناء الإنسان من جديد وإعادة الاعتبار للمفاهيم الإسلامية، ذات الطابع الإنساني الواسع بحجْم الكرة الأرضية كلّها.

لكن النقطة الجوهرية المتفردة في خطاب الأستاذ فتح الله كولن تكمن في مركزية قضية الإيمان، بشكل نكاد لا نجده في أي خطاب آخر لأي من المصلحين المعاصرين. فالإيمان ورضا الله في خطابه، قيمة نهائية ينبغي الوصول إليها وهدف في حدِّ ذاته.

وأما الإضافة النظرية والتطبيقية التي قدمتها

يكمن تأثير الأستاذ في القلوب من خلال روحه المفعمة بالمحبة والخير وقلبه السليم المتوجه إلى الله، فهو يحلق بالقلوب في عوالم من الروحانية الخلاقة فتلتف القلوب حول مبادئه وأطروحاته.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الخدمة للفكر الإسلامي والإنساني، فأستطيع أن أقول إن الخدمة في بدايتها كانت فكرة تحولت في إطار معقولية هذه الفكرة وقابليتها للتطبيق ومناسبتها للفطرة الإنسانية إلى مشروع انبعاث حضاري يحرك الإنسانية بأكملها، ولا أدل على ذلك من انتشار مشروعاتها وقبول الناس لها شرقًا وغربًا شمالا وجنوبًا.

وفي الجملة يمكنني القول إنَّ الأستاذ فتح الله كولن استطاع التغلب على المشكلة الكبرى التي كان يعاني منها العالم الإسلامي والمتمثلة في القدرة على تحويل الفكر في إطاره النظري إلى شكله العملي، فلقد ظهر قبل الأستاذ فتح الله كولن مفكرون كُثر على رأسهم الإمام محمد عبده وعبد الحميد بن باديس والطاهر بن عاشور ومالك بن نبي وسعيد النورسي، لكن هذا الرجل العظيم استطاع أن ينزّل الفكر النظري على أرض الممارسة والواقع والحياة، وقد تجلّى ذلك في شكل مشاريع علمية (مدارس وجامعات) تقدم العلوم وتنشر روح السماحة والمحبة بين بني الإنسان بجانب الخدمات الطبية المتمثلة في مستشفيات تتوفّر فيها أجهزة طبية تعمل بأفضل التقنيات التكنولوجية المتقدمة، وتوفر العلاج المتطور لنفع بني الإنسان في كل مكان.

- من خلال زيارتكم للمؤسسات التربوية من مدارس ومراكز تعليمية، فما هي أهم ملامح الفكر التربوي الذى تحرص عليه مؤسسات الخدمة التربوية؟

- أعتقد أن التعليم يمثل مشكلة جوهرية في العالم أجمع، لأن نُظم التعليم الحديث وإن أشبعت الجانب المعرفي في الإنسان إلا أنها عجزت عن إشباعه روحيًّا، مما ترتب عليه قطع أواصر العلاقات الإنسانية والاجتماعية والفكرية؛ لذا فإن الحل لهذه المشكلة كما يرى الأستاذ فتح الله كولن يكمن في تحقيق تكامُل الثنائيات القلب والعقل الفكر والحركية الأصالة والمعاصرة في التعليم، وذلك بنظرة شمولية إلى العلاقة بين الإنسان والكَوْن والله.

إن أهم نقطة وجدتها في المؤسسات التعليمية الخاصة بحركة الخدمة هي كفاءة المعلمين من الناحية التعليمية والتربوية والسلوكية، وقدرتهم على النهوض بالعملية التربوية والتعليمية وتنفيذ البرامج والدورات والمشاريع المتنوعة واستخدام أحدث وسائل تكنولوجيا التعليم، وترسيخ حب التلاميذ للمدرسة. مع التركيز الشديد على التربية الروحية للطلاب بإعدادهم نفسيًّا ومعنويًّا وخلقيًّا وسلوكيًّا على المبادئ والقيم الدينية المشتركة في كل الأديان، وتكوين جيل يمكن أن نطلق عليهم الطلاب "الأدلاء"، وهم الذين يتولون استصحاب ومتابعة غيرهم من الطلاب.

كذلك مما أسترعى انتباهي ولم أجده في أي

مدرسة أخرى ظاهرة "أمهات الفصول"، حيث تختار المدرسة إحدى أمهات الطلاب في كل فصل من الفصول، لتكون جسرًا للتواصل بين تلاميذ الفصل وأمهاتهم أو بين التلاميذ وبين المعلمة أو بين إدارة المدرسة وبين الأمهات في كل ما يؤدي إلى رفع مستوى الأداء التربوي، وتقوم كذلك بالتعاون مع معلمة الفصل فيما تقوم به من أنشطة داخل الفصل أو خارجه، فهي بمثابة مستشارة للمعلمة، وساعدها الأيمن في العديد من الأنشطة التي تقوم بها. كما يتعاون الاثنان في الإعداد لمجموعة من الدورات التكوينية التي تساعد الأمهات وتثقفهن علميًا وتربويًا من أجل مساعدتهن على تربية أبنائهن.

من ناحية أخرى تقوم هذه المدارس بتشجيع الطلاب للتفاعل والتواصل والمشاركة في العلم والتعلم بين مختلف الأجناس والديانات، وتهيئة الطلاب لقبول الآخر المختلف عنه دينًا وثقافة وجنسًا، ووضع الأسس القيمية للتحاور والتعاون والتعامل مع الآخر في جو تسوده روح التسامح والأخوة والمحبة.

كل من يستمع إلى الأستاذ كولن يتأثر به، فما الذي يجعل لكلام الأستاذ فتح الله كولن هذا التأثير الكبير في القلوب، فينطلقون لتحويل كلامه إلى مشاريع عملية تخدم الإنسانية؟ في رأيكم ما سر هذا التأثير؟

يكمن تأثير الأستاذ في القلوب من خلال روحه المفعمة بالمحبة والخير وقلبه السليم المتوجه إلى

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن الخدمة في بدايتها كانت فكرة تحولت في إطار معقولية هذه الفكرة وقابليتها للتطبيق ومناسبتها للفطرة الإنسانية إلى مشروع انبعاث حضاري يحرك الإنسانية بأكملها.

الله، فهو يحلق بالقلوب في عوالم من الروحانية الخلاقة فتلتف القلوب حول مبادئه وأطروحاته. كما أن قلبه المليء بالإيمان واستشهاداته المتضمنة آيات القرآن والحديث والسيرة النبوية وغيرها تجعل القارئ يشعر أنه أمام شيخ كبير عارف بالعلوم الدينية من قرآن وحديث وفقه واتجاهات روحانية تربط بين العقل والروح وكذلك أسلوبه الواضح الذي يغذي القلب والروح قبل الفكر والعقل.

أيضًا توجيهاته لرجال الأعمال لينالهم الجزاء الأوفى من الله وتشجيعهم على الإسهام في أعمال الخير لخدمة البشر ليفوزوا برضا الله ومن ثم يحصلون على ثمرة عطائهم؛ وذلك ببراعته في الوعظ التي تجعلهم بأسلوبه الأخّاذ كأنهم يشاهدون الأغنياء من الصحابة الكرام وهم يشاركون في مشاريع الهمة التي ينفق بعضهم فيها كل ماله وبعضهم نصفه، فيسارعون إلى الاقتداء بهم في هذا الإنفاق.

اليوم هناك اتجاهات فكرية تنهل -على حد تعبيرها- من منابع الإسلام، ولكن للأسف الشديد يتمخض عنها صورة مشوهة عن الإسلام. ينتج عنها تدمير وتخريب وعنف، وتتلوث صورة الإسلام على مستوى العالم. فأين يكمن الخلل، وهل يعد فكر الأستاذ كولن

nesemat.com نسيمات nesemat.com

يرى الأستاذ كولن أنه ينبغي العمل على وضع منهاج تربوي يدرّب الأجيال على قراءة التراث الديني بنظرة كلية شاملة، ويعلمهم كيف يفهمون الروايات والنصوص الدينية وفق سياقها.

علاجًا لهذه الأفكار المنحرفة؟

يكمن الخلل أولاً في غياب الثقافة الدينية، والفهم الخاطئ للنصوص المقدسة، كذلك التشدد والجمود الفكري، والتمسك بحرفية النصوص، وعدم تدبرها ومعرفة القصد الصحيح من ورائها. هنا نجد الأستاذ كولن يقدم لنا كيفية الخروج من الفكر المتحجر من خلال التثقيف العقلي والتنشئة الدينية الصحيحة التي تقوم على الوسطية والاعتدال، ولذلك نجده يصف الجهل بالدين بقوله: "الجهل قناع على وجوه الأشياء، والشخص الذي لا يمزق هذا القناع عن وجهه لا يستطيع النفوذ أبداً إلى الحقائق الكونية السامية. ويقول: أن أكبر جهل وأعظمه هو الجهل بالله تعالى".

وينتقد الأستاذ فتح الله كولن بشدة بعضَ الذين ابتدعوا مجموعة من التفسيرات والتحليلات المُتشَدِّدَةِ التي لا توافق روحَ الإسلام أصلًا، مؤكدًا أنَّ المسلم لن يستطيع تحقيقَ أيِّ هدف إسلامي بالقتل وارتكاب الجرائم وإثارة الفوضى وممارسة الإرهاب، ومستشهدًا بالفرق التي تحركت قديمًا باسم الدين ولجأت إلى الإرهاب كالخوارج والقرامطة والحشاشين؛ وأنه لا علاقة لهذه الطوائف بالإسلام أساسًا، وأنَّ أهلَ السنة والجماعة الذين يُشَكِّلُون السواد الأعظم من المسلمين اعتبروا هؤلاء جميعًا فِرَقًا ضالَّةً.

كذلك يدعو الأستاذ إلى نبذ التعصب بقوله: إن أتباع كل دين يرون علوية دينهم ودونية الأديان الأخرى، لذلك فهم يسعون دائمًا إلى إعلاء كلمتهم وإبراز آرائهم دون موضوعية، ودون أدنى محاولة لفهم الآخر.

ولكي يتم التصدي لمثل هذه الأمراض الخطيرة التي تصيب شبابنا، يرى الأستاذ فتح الله كولن أنه ينبغي العمل على وضع منهاج تربوي يدرّب الأجيال على قراءة التراث الديني بنظرة كلية شاملة، ويعلمهم كيف يفهمون الروايات والنصوص الدينية وفق سياقها. وأن نعلِّم شبابنا كيف استطاع الرسول الكريم ﷺ أن يحوِّل قومه من مجتمع بدائي همجي إلى مجتمع متشبّع بالقيم الأخلاقية التي تتشارك فيها جميع الأديان الإبراهيمية.

هل أثار كون الأستاذ كولن تركيا بعض الحساسيات لدى القارئ والمفكر العربي، يعنى هل يقول المفكرون العرب، وهل ينقصنا نحن العرب علماء. فما عسى أن يضيف مفكر تركي إلى علمنا ورؤانا؟

لا أظن ذلك، حيث يعرف الجميع توجهات الأستاذ كولن، وما يقدمه من خدمات جليلة على الأرض للإنسانية في جميع أنحاء العالم، كما أن ما يدعو إليه ويعمل على نشره من المحبة والقبول

لبنى الإنسانية مستشهدًا بالقرآن والسنة وسير الصحابة والأتباع الصالحين، وقبوله لكل فكر حديث لا يتعارض مع قيم الإسلام وأصوله لا يخفى على أي متابع منصف، كما أن اتجاهه الفكري والروحي والعلمي والعملي وأسلوبه السهل الممتنع المقنع يؤثر في الجميع، ويجدون فيه نموذجًا يحتذى به وخطوة رصينة لحل المشكلات العالمية المتعلقة بالدين.

أستاذتنا الجليلة: ما رأيك هل ضيعنا حقيقة القرآن بضحالة التوجه إليه يا ترى؟

القرآن في حقيقته محفوظ بحفظ الله له، ولا يمكن لبشر أيًا كان أن يمس حرفًا فيه، ولكن هناك أناس نعتبرهم خارجين عن الأديان جميعًا، وهؤلاء لا نخوض في أغراضهم ونواياهم السيئة، ولا نقيم لهم وزنًا، وفي هذا يقول الأستاذ: "لو تصرف مسلمو اليوم في موضوع القرآن بصفاء المسلمين الأوائل لاحتلوا مكانة مرموقة في التوازن الدولي الحالي في وقت قصير.

كما أكّد الأستاذ فتح الله كولن على أن الإنسانية في مستقبلها القريب ستشهد متعجبة كيف وأن نظريات وقوانين مختلف العلوم والفنون ستتجه نحو القرآن، ولن نكون مبالغين -كما يرى الأستاذ كولن- إذا قلنا أن المستقبل سيكون عهدًا جديدًا يُرجع فيه إلى القرآن؛ لأنه الكلام الذي يرى الماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد.

لاقى كتاب النور الخالد إعجاب الكثير من المفكرين والعلماء المتخصصين في

nesemat.com نسمات nesemat.com

لكل مفكر ومصلح فكرة محورية يدور حولها وتنبثق منها كل أفكاره، والفكرة المحورية عند الأستاذ كولن هي تربية الإنسان وإعادة صياغته من جديد.

السيرة النبوية، فما هي الإضافة النوعية التي قدمها هذا المؤلف في دراسات السيرة النبوية من وجهة نظركم؟

أرى الإضافة التي أضافها العالم فتح الله كولن في كتابه النور الخالد تتمثل في أسلوبه وتوجهه الروحي في محبة الرسول ﷺ. وأبدأ بعنوان الكتاب محمد ﷺ "مفخرة الإنسانية" فهذا المحب العاشق لرسول الله ﷺ قد أنجز وأوجز كل معاني الفخر والشرف والمعزة والمحبة والتقدير والاحترام لرسول الله ﷺ، والتي تدور في خلدنا ويصعب التعبير عنها في كلمتين تضمنت كل المعاني في حب الرسول ألا وهو "مفخرة الإنسانية".

ومن حيث إن سير كل العظماء والقادة تكتب وتنتهي ولا يكتب جديد بعدها؛ فإن سيرة رسول الله ﷺ كانت ولا تزال ميدانًا مفتوحًا للكتابة والإبداع، فهي دائمة العطاء، مستعصية على الانتهاء أو الزوال.

ولقد جاء تأليف هذا الكتاب للرد على فتنة الهجوم على السنة -والتي تطل برأسها من حين لآخر- وتسليط الضوء على شخصية رسول الله ﷺ باعتباره منقذًا للبشرية، وقوة قدسية جاذبة للقلوب والأرواح.

والإضافة النوعية التي أضافها الأستاذ كولن في

إن الإضافة النوعية التي أضافها الأستاذ كولن في تناوله لسيرة الرسول ﷺ هو ذلك الأسلوب الجاذب الموجه لشباب المستقبل وكيفية تحبيبه لنفوسهم والاقتداء به في أقواله وأفعاله.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

تناوله لسيرة الرسول ﷺ هو ذلك الأسلوب الجاذب الموجه لشباب المستقبل وكيفية تحبيبه لنفوسهم والاقتداء به في أقواله وأفعاله.

حيث يرى الأستاذ فتح الله كولن أن الإنسانية تسمو وترتفع وترتقي بالاقتداء بالرسول ﷺ، حيث تناول واقعنا الراهن وتحدياته وبين لنا كيفية مواجهة كل العقبات والموانع بمحبة فخر الكائنات وسيد الدنيا والآخرة محمد رسول الله ﷺ.

في أغلب حوارات الأستاذ فتح الله كولن عندما يسأل عن مصر، يثني عليها الثناء الكثير، ويبدي احتراما وتقديرًا للأمة المصرية وحضارتها العريقة، فما سر هذا الحب لمصر من وجهة نظركم؟

يكن الشعب التركي دائما كل المحبة والمودة الصادقة للشعب المصري، ذلك لأن مصر تمثل أرض الحضارة والتاريخ، وهي الأرض التي وطئها معظم الأنبياء والرسل الكرام، ولغة المصريين هي لغة القرآن الكريم، ولكون الأستاذ عالمًا وعلى درجة عالية من الثقافة الدينية والتاريخية، فهو يقدر المصريين ويجد في معدن شعبها الأصالة والعراقة، كذلك فإن الأستاذ عالم بالقرآن ونصوصه المقدسة ودائما ما يتحدث عن مصر بكونها رمز الأمن والأمان المذكورة في آيات القرآن الكريم.

نعيش اليوم في عالم تكثر فيه النزاعات الطائفية والصراعات الدينية والمذهبية والإثنية، وللأستاذ كولن تجربة رائدة في الدعوة إلى التعايش السلمي من خلال الحوار بين الأديان والإثنيات المختلفة، فما هو تقييمكم لهذه التجربة، لا سيما وأنك متخصصة في هذا الشأن؟

أستطيع أن أقول إن الحوار والتعايش السلمي لم يكتسبا أهمية في أيّ عهد من العهود كأهميتهما في الوقت الراهن، ولم تكن ثقافة التسامح والعيش المشترك ضرورية كضروريتها الآن؛ ولذلك فإن أهم سمة من سمات حركة الخدمة ورائدها الأستاذ كولن هي الحوار وقبول الآخر، وعندما انطلقت دعوة الأستاذ كولن للحوار ظهرت حركة حوار واسعة تستند إلى الاحترام المتبادل وإلى حرية التعبير عن الرأي. إذ قام بدعوة كل الأطياف والمشارب والتيارات التركية للتقابل وجهًا لوجه، حيث دعاهم لموائد الطعام، وهناك كسر الحواجز بين هؤلاء المختلفين، وتحولت "موائد الطعام" إلى "موائد للفكر".

وفي هذه الأثناء قام الأستاذ كولن بزيارة الفنانين والرياضيين ومشاهير المجتمع وصُنّاع الوعي فيه ابتداءً من عام ١٩٩٠، ومحاورتهم في كل ما يهم المجتمع التركي وهكذا بدأ الحوار بين مختلف الفرقاء، وفي عام ١٩٩٤ قام بتأسيس "وقف

الصحفيين والكتاب" بالتعاون مع مجموعة من الكُتّاب والصحفيين والأكاديميين، وبرعاية هذا الوقف تأسس منبر ثقافي باسم "أبنت"، الذي تناول موضوع الحوار في إطار أوسع بين مختلف الأديان والثقافات والحضارات، ومن خلاله قام الأستاذ فتح الله كولن بزيارات عديدة قابل فيها البابوات والقساوسة وقوبل من جانبهم بكل حفاوة وتقدير.

إنني أستطيع القول بكل ثقة إن دعوة الأستاذ فتح الله كولن للحوار قد أدت إلى ظهور حركة حوار واسعة تستند على الاحترام المتبادل بين أصحاب الديانات المختلفة والإثنيات والطوائف وإلى حرية التعبير عن النفس. ولقد رأيت أثناء زيارتي لمؤسسات الخدمة أن دعوة الحوار والتسامح والتعايش مع الآخر المختلف في الدين والجنس والنوع التي نادى بها الأستاذ كولن لم تكن مجرد شعارات ترفع، أو جملة جميلة ينمق بها الخطاب أو يرصع بها كلام المنتديات، بل هي تربية وقيم ملتصقة بأجيال الأمل التي تربّت في كنف فتح الله كولن وفي كنف الخدمة.

لماذا استهدف الأستاذ محمد فتح الله كولن وحركة الخدمة في تركيا ، ومن المستفيد من القضاء على فكرة الخدمة الإنسانية؟

اسمح لي أن أجيب عن الشطر الثاني من السؤال أولاً فأقول: إن المستفيد من القضاء على فكرة الخدمة الإنسانية هم بالقطع الذين نراهم الآن يعملون على تفتيت الدول وإثارة الفتن والقلاقل وقد تم كشف

إن المستفيد من القضاء على فكرة الخدمة الإنسانية هم بالقطع الذين نراهم الآن يعملون على تفتيت الدول وإثارة الفتن والقلاقل وقد تم كشف زيفهم وضلالهم أمام العالم.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

زيفهم وضلالهم أمام العالم بعد أن أصبح العالم الآن منفتحًا ومنكشفًا أمام وسائل الاتصالات الإلكترونية الحديثة.

أما الشق الأول من السؤال: فاستهداف الأستاذ والحركة يكمن في انتشار الحركة وذيوع دورها الخدمي على مستوى العالم أجمع وتوجه دول العالم إليها باعتبارها نموذجًا رائدًا في الخدمة كذلك وسائلها التعليمية والتنويرية في خدمة البشرية وخاصة توجيه الخدمة للنشء والشباب المستهدف.

تجاوز الأستاذ فتح الله كولن منظور إثارة مشاعر مخاطبيه بكمالات النبوة إلى منظور إحياء منهج النبوة سلوكًا وعقلاً كيف ترون ذلك؟

إن أبرز معلم من معالم التجديد هو اتباع القدوة طريقًا لتجديد الخطاب الديني لذا فإن اعتماد الأستاذ على منهج الرسول باعتباره القدوة والنموذج يعد في حد ذاته خطابًا موجها للإنسانية جمعاء.

لقد أشرفتِ وناقشتِ العديد من الرسائل العلمية المتعلقة بفكر الأستاذ كولن الإصلاحي، فمن وجهة نظركم ما هي الجوانب المهمة التي لم يتطرق إليها

ن دعوة الأستاذ فتح الله كولن للحوار قد أدت إلى ظهور حركة حوار واسعة تستند على الاحترام المتبادل بين أصحاب الديانات المختلفة والإثنيات والطوائف وإلى حرية التعبير عن النفس.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الباحثون في فكر الأستاذ كولن ومشروع الخدمة؟وتحتاج إلى المزيد من الدراسة والبحث؟

لقد أشرفت وناقشت معظم الرسائل التي تناولت حياة الأستاذ ومنهجه؛ وذلك لأن تناول تجربة الأستاذ ودراسة فكره جدير بالدراسة والاقتداء به فهو منهج حياتي وسلوكي.

لذا فإنني أحلم بالإشراف على رسالة دكتوراة تتناول مؤلفات الأستاذ كولن، وتصنيفها موضوعيًّا، مع بيان تفصيلي لكل كتاب والهدف منه ونتائجه؛ ليكون موسوعة ثرية وقيمة تحوي كل الشؤون الحياتية للإنسان، سواء كانت دينية أو روحية أو سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو فكرية وغيرها.

شكرًا جزيلاً أستاذتي لقد كان حوارًا دسمًا وعميقًا وطيبًا، ومثل تلك الحوارات لا يريد لها الإنسان أن تنتهي في الحقيقة، وبالطبع فالكلام ذو شجون. فإلى أن نلقاكم في حوارات أخرى نستودعكم الله تعالى. ■

*أجرى الحوار: د. أبوزيد عبد الرحيم

برقيات

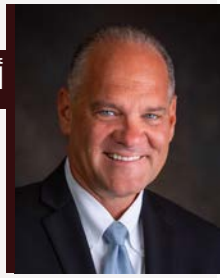

أ.د. جون بول

أستاذ بالمعهد اللوثري المتحد الولايات المتحدة الأمريكية

لقد قرأت تقريبا كل أعمال فتح الله كولن المترجمة للغة الإنجليزية، ووجدته على درجة عالية من الذكاء، واتساع المعرفة، والإخلاص في الكتابة. أنا أقدر وعلى وجه الخصوص تأكيده على التسامح، والاتحاد فيما بيننا برغم كل اختلافاتنا، وتداخل اختلافاتنا يمكننا أن نتعاون، وكولن قارئ جيد للقرآن، وطالب من طلاب القرآن، مخلص للتقاليد، وفي نفس الوقت منفتح للحوار مع الآخرين. أوصي خاصة بكتابه " نحو حضارة عالمية من الحب والتسامح" ولقد استخدمت هذا الكتاب في دروسي على مدار خمس سنوات، وطلابي وجدوا الكتاب مرجعا ثريا، لذلك أوصي بكتاباته.

واحدة من أهم جماليات المدارس التي تستمد إلهامها من أفكار فتح الله كولن، ويديرها رجال الخدمة، أنهم يجمعون بين العلم والروح، بعد فترة طويلة من القطيعة بين المعرفة والمشاعر، وبين الفهم والحب.

النور الخالد
منهجية جديدة لفهم السيرة النبوية

جمال السفرتي

دكتوراة في الدراسات الإسلامية/تخصص الفكر الإسلامي المعاصر/ بيروت.
عضو رابطة علماء الأردن.
استاذ الدراسات الإسلامية- جامعة بدر/ألبانيا.
مستشار المشيخة الإسلامية الألبانية.
مدير مركز النور الخالد للدراسات والأبحاث-عَمَّان.
شارك في العديد من المؤتمرات والملتقيات المحلية والعالمية، وألقى العديد من المحاضرات والندوات داخل المملكة الاردنية وخارجها.

يقدم الكاتب في هذه المقالة قراءته الخاصة لكتاب النور الخالد، ويتابع فيه المنهجية التي سلكها الأستاذ كولن في فهمه للسيرة النبوية، وكيف استفاد من هذا الفهم وأنزله إلى حيز التطبيق العملي.

ويؤكد الكاتب على أن قارئ هذا الكتاب سيتبين له كيف أكثر الأستاذ فتح الله كولن من الوقوف عند المنعطفات الكبرى في السيرة، وكيف زاد من تأملاته في أحداثها الخطيرة، وأشبعها فحصًا ودراسة، واستخلص منها العبر والعظات، واستنبط الدروس، ورَتّبَ المهم لحياتنا الحاضرة وما هو أكثر أهمية، وما هو مُلحٌّ وأكثر إلحاحًا.ويقف الكاتب على نقطة جوهرية في هذا السفر العظيم وهي التوافق بين سنّته ﷺ والسنّة الكونية، حيث أكّدت السنة على الحيطة والحذر والأخذ بالأسباب في صغير الأمور وكبيرها. فالنجاح -كما تؤكد السنة- قمينٌ بِمَنْ يعقل ويتوكل، لا بِمَنْ يتوكل ولا يعقل.

الأستاذ "محمد فتح الله كولن" على رأس الدعاة الذين عاشوا أسرى محبة النبيﷺ؛ فنذر وقته في البحث عن منـزلته، ومعرفة قدره ومكانته، وجعل أصول دعوته وقواعد منهجه فكر وسلوك وأخلاق سيد البشر محمد ﷺ. فقد قدم كتابًا من أعظم ما كتب وأبدع حول شخصية الحبيب المحبوب ، سماه "النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية".. وعنوان الكتاب على هذا النحو يعبر عن صدق حب الرجل لشخص رسول الله ﷺ وشخصيته. فالنور الذي لا يخبو ولا ينطفئ هو نوره ﷺ، ومصدر فخر الإنسانية واعتزاز البشرية الراشدة الرشيدة[1].

مقدمة النور الخالد

وفي مقدمة هذا الكتاب عبَّر "كولن" عن سبب كتابته لهذا الكتاب فيقول: "إن تسليط الأضواء على شخصية الرسول محمد ﷺ السامية، وشرحها وبيانها، ثم تقديمها كمنقذ للبشرية، وكإكسير للمشاكل المستعصية على الحل، وللأمراض غير القابلة للشفاء، وإظهار هذه الشخصية السامقة وسيرتها بما هي أهل له كان رغبة ملحة لديّ -كما هي عند كثيرين- وهاجسًا من هواجس فكري ومشاعري، وموضوعًا مهمًّا من المواضيع التي لا سبيل للوقوف أمام سحرها وجاذبيتها أو الفكاك منها.

إنه ﷺ فخر للبشرية جمعاء... فمنذ أربعة عشر قرنًا يقف وراءه أكبر الفلاسفة وأعظم المفكرين وأشهر العباقرة وأذكى رجال العلم الذين زينوا سماء الفكر عندنا.. يقفون وراءه خاشعين قد عقدوا أيديهم أمامهم وهم يخاطبونه ويقولون: "أنت الإنسان الذي نفخر بانتسابنا إليه"[2].

إننا أمام حب أقوى من أن تؤثر فيه الأقاويل أو تزعزعه الشكوك أو تضعف من جذوته المؤامرات. حاول أعداء الإسلام ومازالوا يحاولون، النيل من حبنا له وتوقيرنا لشخصه، إلا أن الله غالِب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون[3].

وفي مقدمته لكتابه النور الخالد يقول: "ومنزلة الحبيب ﷺ ومكانته وعظمته تظهر جلية واضحة، فنحن لا نزال إلى الآن نسمع أصداء "أشهد أن محمدًا رسول الله" ونستطيع أن نشير إلى دليل عظمته فنقول بأنه على الرغم من كل هذا العمل المتواصل لأعداء الله في الداخل والخارج في الإفساد والإضلال، فإننا نرى حتى في هذه الأيام كيف أن العديد من الشباب في عمر الزهور -رغم إحاطته التامة بالحقيقة الأحمدية التي ليس من اليسير معرفة مفاهيمها الدقيقة والصعبة- يتراكضون نحوه، ويحومون حوله مثلما تحوم الفراشات حول النور. وهذا أمر فريد لا نجد له مثيلاً في العالم.

فالزمن لم يستطع أن يمحو من قلوبنا ومن صدورنا أي حقيقة من الحقائق العائدة له ﷺ، ولا يبليها... أجل، فهي حقائق غضة ندية ونضرة على الدوام. وكما قلت لإخواني مرارًا إنني عندما أذهب

إلى المدينة المنورة أجد رائحته العطرة محيطة بي إلى درجة تشعرني وكأنني سأقابله بعد خطوة واحدة، وكأن صوته الشجي الذي يحيي القلوب يقول لي: "أهلاً وسهلاً.. ومرحبًا". أجل، إنه حي ونضر في صدورنا إلى هذه الدرجة، فكلما تقادم الزمن ازداد نضارة وطراوة وحيوية في قلوبنا"[٤].

النور الخالد كتبه الأستاذ بدموع عيونه وبنبضات قلبه. فالقارئ لهذا الكتاب يجده من المقدمة إلى الخاتمة صوتًا واحدًا، يرشح بالمعاناة والشوق والاحتراق؛ ومن ثم فإن فتح الله لم يؤلف "النور الخالد" بعقله ومحفوظاته فقط، وإن كان متحكمًا في تفاصيل السيرة النبوية تحكُّمًا لا نظير له؛ وإنما سبكَه قبل ذلك بقلبه ووجدانه، وأودعه عيونًا في أسرار روحه[٥].

ويرى الأستاذ أن منزلة الحبيب ﷺ عظيمة وجليلة، ولكن علينا أن نقدم شخصيته للعالم -كما يقدم العالم شخصياته- عند ذلك سيحبه الجميع إن عرفوه حق المعرفة، فيقول: "إن الزمن يتقادم ويشيخ، وإن بعض المبادئ والأفكار تتعفن وتتهاوى، أما منزلة الرسول محمد ، فستبقى متفتحة في الصدور كأكمام الورود العبقة أبد الدهر، وستبقى نضرة في القلوب على الدوام.

وأنا أرى لو أننا اهتممنا واعتنينا بتقديمه والاهتمام به مثلما فعل الآخرون في تقديم شخصياتهم، ولو أن المؤسسات العلمية والمؤسسات

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن تسليط الأضواء على شخصية الرسول محمد ﷺ السامية، وشرحها وبيانها، وإظهار سيرتها بما هي أهل له كان رغبة ملحة لديّ، وهاجسًا من هواجس فكري ومشاعري.

الأخرى المتعلقة بشؤون الحياة نذرت نفسها للاهتمام به وشرحه وتوضيحه وبيان جوانب شخصيته، لما تربّع على عرش القلوب غيره، ولما تخلل في الضلوع والصدور سواه.

ولكن مع هذا، وعلى الرغم من كل شيء يهرع الكل من شرق الدنيا وغربها حاملين معهم دلاءهم، مسرعين نحو نبعه الصافي الفياض.. نحو المنهل العذب المورود، يحدوهم الوجد والهيام ليبلغوا قبته.. قبة الإنسان الذي يضع التيجان على هامات الشموس"[٦].

دلالات تفوح من العنوان

الأستاذ جعل عنوان كتابه "النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية". فإذا توقفنا عند هذا العنوان نجده عنوانًا ذا دلالات ومرجعيات يفترض أن نستحضرها ونحن نقرؤه ونطل منه على مضمون الكتاب وغاية المؤلف منه.

النور الخالد يذكرنا بوصف القرآن الكريم للرسول ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(الأحزاب:٤٥-٤٦) فالرسول ﷺ سراج منير كالشمس التي وصفها القرآن الكريم بكونها سراجًا

يرى الأستاذ أن منزلة الحبيب ﷺ عظيمة وجليلة، ولكن علينا أن نقدم شخصيته للعالم، كما يقدم العالم شخصياته، وعند ذلك سيحبه الجميع إن عرفوه حق المعرفة.

nesemat.com نسمات nesemat.com

بقوله عن السماء: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾(النبأ:١٣) وكما أن نور الشمس وضياءها وأثرها باق ما بقيت الحياة على الأرض ينتفع به الناس جميعًا في الأرض كلها، فكذلك نور رسول الله ﷺ باق بكونه النبي الخاتم الذي لا نبي بعده، بل إن نوره لأشد سطوعًا وظهورًا في الآخرة بعد الدنيا، ويكفيه تجلي ذلك النور في المقام المحمود يوم القيامة. والشق الثاني من العنوان هو: محمد مفخرة الإنسانية، هذا الشق يشير إلى بشرية الرسول ﷺ كما أشار الشق السابق إلى رسالته، وهذا المعنى يجعلنا نستحضر قوله تعالى موجهًا رسوله الكريم ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾(الكهف:١١٠) فالشق البشري يتجلى في: محمد مفخرة الإنسانية، فهو من البشر بل هو مفخرة البشر بكونه الإنسان الكامل، بل إنه ﷺ أشار إلى منزلته في البشر بقوله: "أنا سيد الناس يوم القيامة" (رواه أبو داود)[٧].

الأستاذ برغم حبه الشديد للحبيب ﷺ إلا أنه يلوم نفسه ويتهمها بالتقصير بأنه لم يستطع توضيح جوانب عظمة هذا النبي ﷺ؛ يتساءل قائلاً: "ولكن هل استطعنا أن نفهم الرسول ، سلطان القلوب المتربع على عرش الأفئدة حق الفهم، وندركه حق الإدراك؟

ولكن ما بالي أشير إليكم، أو أعنيكم؟ ما بالي أنا؟ هل استطعت أن أشرح جوانب عظمته كما يجب، وأكشف معالم شخصيته كما ينبغي؟ أما أنا الذي أضع جبهتي للصلاة منذ الخامسة من عمري، وأنا الذي أدّعي أنني وضعت الطوق حول عنقي لكي أكون "قطميرًا" له. هل استطعت أن أشعركم بما يجيش في صدري من عظمة النبي ﷺ كما يليق بجوانب هذه العظمة؟ إنني أسائل نفسي وأسائل جميع الذين يتصدون للتبليغ والدعوة: هل استطعنا أن نشرح لإنسان هذا القرن حبه.. حب سيد السادات حبًّا تجيش به القلوب؟ هل استطعنا أن نبهر القلوب والأرواح بهذه العظمة، عظمته ﷺ؟

كلا! فلو عرفته البشرية حق المعرفة، وفهمته حق الفهم لهامت به حبًّا ووجدًا.. ولو تغشت الأرواح ذكراه الجميلة، لثارت أشواقها وفاضت عيونها بالدموع، ولاقشعرّ جلدها وهي تخطو إلى عالمه.. عالم النبوة الطاهر، ولألقت بنفسها للريح كي تشعل جذوة قلوبها المتقدة بحبه بعدما صارت رمادًا، فتذروها الريح نحوه ﷺ"[٨].

كولن وعشق فخر الكائنات

هذا مع أنك لو شرّحت قلب الأستاذ لطفح منه رشح "النور الخالد"؛ ثم لو أنك لامست روح الأستاذ لأصابك لفح من شهاب "النور الخالد"؛ ثم لو أنك

حللت "النور الخالد" تحليلاً دقيقًا للاح لك شبح الأستاذ، من هناك، من بعيد، وهو يذرف الدموع[٩]، وهو يقول: "حاولت مستندًا إلى عون الله تعالى وكرمه وإحسانه أن أشير باختصار، وعلى نمط الفهارس إلى جوانب عظمة فخر الكائنات، وسيد الدنيا والآخرة. كل كلام في مدحه جميل، فإن وجدتم شيئًا نابيًا، فمني ومن أسلوبي، أما ما يتعلق بفخر الكائنات فكله مشرق وجميل"[١٠].

لقد ملأ عليه حب فخر الكائنات كل كيانه وكل أوقاته، وذات مرة رأى النبي ﷺ في رؤيا فقال: ناولني رسول الله ﷺ سهمًا، وفي قبالتي الهدف، فأخذت السهم ورميته، ولكني لم أصب الهدف، وصرت أبكي وأقول: هل يمكن لسهم رسول الله › أن لا يصيب. وبعد ذلك أعطاني سهمًا آخر فأصاب الهدف. وكان يقول لنا: ينبغي أن تؤمنوا أن سهم رسول الله ﷺ لا يخيب. وأن كل مشكلة لها حل في القرآن الكريم والسنة والسيرة[١١].

كيف لا يكون ذلك وهو الذي امتلأ قلبه بحب رسول الله ﷺ وأدبًا في حديثه عن سيد الكائنات فيقول: "مع أنني أعد نفسي أكثر المؤمنين قصورًا وذنبًا، إلا أنني لا أملك نفسي من شرح إحدى مشاعري.. وغايتي من هذا الشرح هو لكي أبين إذا كنت أستطيع أن أحب رسول الله ﷺ كل هذا الحب، فما بالك بالقلوب والأرواح الواصلة إلى مراتب عُليا في حبها لهذا الرسول الحبيب ﷺ وكيف

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن هذا الكتاب يعد نمطًا فريدًا في فهم السيرة النبوية، والتعمق في وقائعها وأحداثها، وفي تحليل موضوعاتها ودروسها، وتقديمها إلى القارئ في أسلوب مقنع مبهج ينفذ إلى القلب والعقل بتلقائية.

تشتعل هذه القلوب بعشقه ووجده؟ لذا، أودّ أن يتم تقييم شرح مشاعري من هذه الزاوية، وإلا فإن أدبي كان يمنعني من طرح مشاعري في حضوركم.

في رحاب الحبيب

وعندما مَنَّ عليَّ الله ﷻ بزيارة الأراضي المقدسة لكي أعفر وجهي بترابها بدت لي بلدة رسول الله ﷺ مضيئة ونورانية، إلى درجة أنني ذقت معها سعادة روحية غامرة، وفرحًا لا يوصف، بحيث أني شعرت بأنه -على فرض المستحيل- لو فتحت لي حينذاك أبواب الجنة كلها، ودعيت للدخول إليها.. أجل، لو تم هذا، فصدقوني بأنني كنت سأرفض دخول أي باب من أبواب الجنة، بل كنت أختار وأفضل البقاء هناك"[١٢].

ثم يوضح سر اختيار البقاء في الروضة المباركة بكل تواضع بأنها مشاعر الكثيرين غيري قائلاً: "ولا يذهبن الظن بأحدهم بأنني أرى نفسي لائقًا لتلك المرتبة العليا، بل إنني أردت فقط إظهار مدى حبي لرسول الله ﷺ، وإلا فإنني قضيت حياتي أدعو الله أن ينيلني شرف الخدمة لأصغر صحابي من صحابة

إن كتاب النور الخالد ليس كتاب "رواية"؛ بل هو دفع لهذا العصر وجهة خير الأعصار؛ فالمؤلف يسعى جاهدًا أن يوظف جميع ملكاته وقدراته، ليحمل الناس على "تجاوز الزمان والمكان"، حتى يمكنهم أن ينتصروا على "ضغط الآن" وعلى "تفاصيل الحياة.

nesemat.com نسمات nesemat.com

رسول الله ﷺ، وكان ابتهالي من الله تعالى أن لا يُبعد فكرنا لحظة واحدة من أمنية تعفير وجوهنا بتراب أرجلهم، وكان الكثير من الأوراد التي يكررها لساني على الدوام تحمل هذه المعاني.

وجاشت المشاعر نفسها عندي في بيت الله، وقد تكون هذه المشاعر مشاعر مشتركة لدينا جميعًا. ثم إن من يحمل هذه المشاعر غير محصور فيَّ وفي أفراد قلائل، فكم وكم من ذائب في عشق رسول الله ﷺ تُعدّ هذه المشاعر بالنسبة له مشاعر بدائية وخشنة"[١٣].

محاولة لإسقاط السيرة النبوية على الواقع المعاصر

كيف لا يكتب الأستاذ بلغة الحب بعيدًا عن العرف العلمي الجاف، وقد نقل بعض طلبة الأستاذ أنَّه أوان إلقائه "النور الخالد" دروسًا في جامع "والدة السلطان" بحيّ "أُوسْكُودَار"، كان كلما تقدّم إلى درس اعتقد وآمن، وحضّر نفسه وقلبه، على أن يكون هو آخر مواعظه، وأنه سيلقى حتفه بعد ذلك، وقد يودع السجن، أو يصاب بمكروه؛ ومن ثمَّ جاءت هذه الخطبة النارية في منتهى الصدق، وهي بحقٍّ نصائح مودّع للخلق، ولآلئ مقبل على الحق[١٤].

الأستاذ في النور الخالد كثيرًا ما يخاطب ذاته ويوجه الحديث إلى نفسه، وبطبع ذلك في حديثه عن نعم الله علينا بأن جعلنا من أمة الحبيب المصطفى ﷺ ونحن لسنا أهلاً لذلك، فنحن نريد أن نتحدث وأن نعبر عن النعمة الكبرى المتميزة المهداة إلينا عندما أصبحنا من أمته، وأن نهتف من أعماق قلوبنا بالحمد لله رب العالمين والشكر له، لأنه رآنا أهلاً لإسباغ نعمته الكبرى علينا بأن جعلنا من أمة المصطفى ﷺ. فهذا فضل إلهي، وهو يسبغ فضله ونعمته على من يشاء وبالمقدار الذي يشاء، إلا أن هذا الفضل لا يمكن أن يزنه ميزان أو يحدّه قياس..

فهو بحر واسع لا يحده ساحل، ولا ينتهي بشاطئ. إلا أن للمسألة وجهة أخرى لا أستطيع إهمالها ولا الهرب من السؤال الذي تطرحه: أنملك قلبًا لائقًا بسلطان القلوب؟ هل هذا السلطان مستريح في مجلسه من القلوب؟ هل قلوبنا مفتوحة له على الدوام؟ أنلاحظه في قيامنا وقعودنا، في أكلنا وشربنا؟ أنلاحظ محمدًا ﷺ بقلوبنا في جميع حركاتنا وسكناتنا؟ أنسير في جميع شؤون حياتنا على الخط الذي رسمه لنا؟ فإن كان جوابنا بالإيجاب فما أسعدنا! لأن هذا يعني أن خيالنا وأحلامنا مزيّنة بجمال صورته.. وإننا بذلك نكون جماعة محمدية،

نتخلق بأخلاقه ونتأدب بآدابه.. وإن أيّ جماعة تتزين بمثل زينة أخلاقه، تكون عنصر توازن في هذا العالم. وأنا أعتقد أن هناك سببًا واحدًا فقط في عدم وصولنا إلى مثل هذا التوازن، وهو أننا لم نرتق بعد إلى المستوى اللائق للروح المحمدية[١٥].

بهذا تظهر لنا ميزة هذا الكتاب الذي ليس كالكتب التي في هذا الموضوع، سواء منها كتب التراث الإسلامي، أو الكتب التي أصدرها المؤلفون المحدثون من نهاية القرن التاسع عشر إلى اليوم. وجدته نمطًا فريدًا في فهم السيرة النبوية، والتعمق في وقائعها وأحداثها، وفي تحليل موضوعاتها ودروسها، وتقديمها إلى القارئ في أسلوب مقنع مبهج ينفذ إلى القلب والعقل بتلقائية[١٦].

فصلة الأستاذ بالنبي ﷺ لا حدود لها، يتناول أمنياته وآماله والأمة في طريق محبة النبي ﷺ. يقول الأستاذ: "كنت قد وضعت نفسي منه منذ مدة طويلة موضع "قطمير"، وأسري عن نفسي بهذا، غير أنني بدأت أفقد هذا الأمل بمرور الزمن. ثم تمنيت لو أنني خُلقت شعرة ببدنه، فأكون بهذا القرب من مثل هذا الشخص الذي كان مظهرًا لمثل هذه الدرجة من اللطف الإلهي الخاص. ومرّ زمن عليّ وأنا في مثل هذه الأمنية، إلا أنني كلما ازددت معرفة به، تأكدت أكثر بأنني لست أهلاً لتحقق هذه الأمنية، لذا فقد انحصرتْ كل رغبتي وأملي في أن أكون فردًا من أمته من شفاعته، فيقول وهو يدخلني بينهم: "هم القوم لا يَشْقَى بهم جَليسُهم" (رواه البخاري). أجل قدح شرارة واحدة من حبه في قلب هذا الجيل! ولكن ما حيلتي، فمثلي في هذا مثل نملة نَوَت الحج، فهي تعلم أن أرجلها الضعيفة لا تقوى على قطع تلك المسافة الطويلة، ولكنها مسرورة لكونها ستموت وهي في الطريق إلى الحج.. فكل أملي أن أموت في هذا الدرب"[١٧].

من يدقق في كتاب الأستاذ يجد أن هناك مجموعة من الظواهر الفكرية والأسلوبية في هذا الفصل وغيره تتفق مع الغاية من تأليف الكتاب وأولها هذه العقلية المنهجية المنظمة التي لا تمضي في الحديث بتدفق غير منضبط.

كتاب النور الخالد ليس كتاب "رواية"؛ بل هو دفع لهذا العصر وجهة خير الأعصار؛ فالمؤلف يسعى جاهدًا أن يوظف جميع ملكاته وقدراته، ليحمل الناس على "تجاوز الزمان والمكان"، حتى يمكنهم أن ينتصروا على "ضغط الآن" وعلى "تفاصيل الحياة"[١٨]. ويصف الأستاذ ذلك الزمان المظلم الذي كان في أشد الحاجة إلى أن ينفخ فيه الروح وإلى من يقول للفساد كفى: "لقد كان المجتمع منحدرًا إلى هاوية مظلمة، إذ تغيرت فيه جميع القيم الإنسانية، وانقلبت رأسًا على عقب، فأصبحت الفضيلة عيبًا، والعيب والنقيصة فضيلةً وفخرًا.. الوحشية تُمجّد،

nesemat.com نسيمات nesemat.com

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن هذه المنهجية المنظمة ترتبط بالغاية من التأليف لتكون شخصية الرسول ﷺ في أبهى صورها وأوضح ملامحها بعيدًا عن السرد التاريخي الذي يبرز فيه الحدث أولاً ثم الشخصية ثانيًا.

والرحمة والإنسانية تُمتهن.. قد وضعت الذئاب نفسها موضع الرعاة، أما الأغنام التي لم يعد لها حول ولا قوة، فتئن في أيدي هؤلاء الرعاة القساة وتتوجع، وما لها من سامع.. وشاع الفحش والزنا والانحلال الأخلاقي، ولم يكن شرب الخمر ولعب القمار عيبًا، ولم يكن الاحتكار شيئًا غريبًا، بل أمرًا مألوفًا.. أما طرق النهب والسلب، وامتصاص دماء الناس، فكان يُعدّ ذكاء ومهارة وحذقًا.

ومن ثم، فقد كانت هناك حاجة لشخص ساحر البيان، مؤثر الكلام ليقول لكل هذا الفساد: "قف!" كانت الحاجة ملحة وشديدة إلى درجة اهتزت معها الرحمة الإلهية، واستجابت، فأرسلت فخر الكائنات رسولاً.. وبمجيئه تغير كل شيء وتبدل، وتحقق الانقلاب الأعظم. أجل، وصدق أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

ولد الهدى فالكائنات ضياء ** وفم الزمان تبسم وثناء

وبعد أن كان الزمان والمكان غارقين في الظلام، إذا بثغريهما يفترّان عن بسمة وفرحة بالنور الذي جاء به الرسول محمد ﷺ.. وبعد سنوات كان أهل المدينة ينشدون لمجيئه، ويهللون لقدومه، مرددين في استقباله:

طــلـع البــدر علـينا ** من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ** ما دعا لله داع"[١٩]

كتاب ذو منهجية منظمة

ومن يدقق في كتاب الأستاذ يجد أن هناك مجموعة من الظواهر الفكرية والأسلوبية في هذا الفصل وغيره تتفق مع الغاية من تأليف الكتاب وأولها هذه العقلية المنهجية المنظمة التي لا تمضي في الحديث بتدفق غير منضبط أو استطراد غير منظم، بل نجده يجزئ القسم الأول إلى ثلاثة أبواب، ويجزئ الباب الثالث الذي هو أطول الأبواب في هذا القسم إلى خمسة فصول، ونجده يؤصل لفكرة القسم وهي الحديث عن "الأنبياء والرسل" بذكر الغاية من إرسالهم ثم بيان خصائصهم ثم يقف على خصائصهم وتجلياتها في سيرة المصطفى ﷺ، هذه المنهجية المنظمة ترتبط بالغاية من التأليف لتكون شخصية الرسول ﷺ في أبهى صورها وأوضح ملامحها بعيدًا عن السرد التاريخي الذي يبرز فيه الحدث أولاً ثم الشخصية ثانيًا[٢٠].

لقد كان الأستاذ يخاطب الناس بلغة عصرهم وأسلوبهم ومن ذلك قوله: "من يقول إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف الغيب مطلقًا يميل إلى التفريط.

فهو لم يكن يعرف الغيب، إلا أن الله تعالى كان يطلعه على الغيب. فكان رسول الله ﷺ يشرح الأمور الأساسية للحوادث حتى يوم القيامة وكأنه جالس أمام شاشة تليفزيونية. وهذا هو ما نريد الوقوف عنده بكل عناية. فما قاله لم يكن من عنده بل مما أخبره الله تعالى به عن طريق الوحي"[٢١].

وكذلك يستخدم الوظائف والمهمات والمسلمات المعاصرة قائلاً عن رسول الله ﷺ: "ووضع شبكة استخبارات لم يسمع بها أحد من قبل، بحيث أن الأخبار تصل إلى المركز في وقتها، حيث كانت تقيّم وتحلّل حالاً، ولم يسجل التاريخ أن أخبار رسول الله ﷺ كانت تصل إلى أعدائه"[٢٢].

السيرة بروح إيمانية تفاعلية

والمألوف عند من يكتب في السيرة النبوية الشريفة أنه يعتمد على المصادر التاريخية، ويعرض الأحداث وفق تسلسلها التاريخي، وقد يتوقف الباحث عند قصة أو فكرة أو مسألة، ويوجه من خلالها رسالةً ودرسًا مستفادًا للقارئ، ولكن الأستاذ تمعن في فهم السيرة النبوية، بعيدًا عن السرد التاريخي المعروف، حيث استطاع أن يقدمها لنا بروح إيمانية حركية متميزة، لذلك أرى أنه قد جدد في فهم السيرة وقراءتها، فلم أجد عالمًا استطاع أن يعتصر السيرة النبوية كما اعتصرها الأستاذ، وكتابه "النور الخالد" شاهد حي على هذا.

لذا فهو في حديثه يستثمر الكثير من القضايا

nesemat.com نسيمات nesemat.com

ألف الأستاذ في الروح والقلب ولم يؤلف في العقل والمنطق فقط، حيث عرضها قلبًا وروحًا، ولم يتوقف به المسير في محطة التنظير وإنما واصل رحلته نحو شباب الحداثة الإيمانية والقرآنية، فيخاطبهم ويوجههم فيبكي ويُبكيهم.

ليدحض فيها الشبهة التي يصفون بها الإسلام، ومن ذلك مسألة استعمال القوة، فيقول: "بينما قام الرسول ﷺ قبل أربعة عشر قرنًا بتمزيق حجب الظلام وبإزالة الاستبداد والظلم وبتقديم الحرية وإهدائها إلى الإنسانية. عليكم أن تعاونوا المظلوم والمغدور، لا يمكن أن تستريحوا أو يهدأ بالكم وأنتم تسمعون أنين المظلومين.

فإن كان لا بد من استعمال القوة لإحقاق الحق وإزالة الظلم والباطل فعليك باستعمالها. ولكننا لا نستطيع ذلك في هذه الأيام. ولكن الرسول › عندما جاء أوان استعمال القوة استعملها بعد حساب دقيق ومنطقي. ولكي تتصوروا هذا نقول إن مجموع من استشهد في جبهة الإسلام في العهد النبوي كان مائة ونيفًا من الشهداء فقط. بينما تجاوز عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية أربعين مليونًا من القتلى نتيجة الصراع الوحشي بين الطرفين. ولكي يستقر نظام باطل في روسيا قُتل ما يقارب مائة مليون إنسان، كان من الممكن إبحار سفن على الدماء المراقة هناك وبناء بنايات من

إن سيرة النبي ﷺ وفقه أحداثها والبصر بمراحل تطورها ليست مجرد عمل من أعمال التاريخ وحسب، ولكنها فوق ذلك التطبيق الأمثل لحقائق الإسلام الكبرى والتمثيل الصحيح لمبادئه وقواعده المجردة.

nesemat.com نسمات nesemat.com

جماجمهم. كل هذه الوحشية التي لا مثيل لها كان من أجل توطيد نظام جديد اسمه "الشيوعية""[٢٣].

ألف الأستاذ في الروح والقلب ولم يؤلف في العقل والمنطق فقط، لأن المألوف في السيرة أن تعرض عقلاً ولكنه هو عرضها قلبًا وروحًا. لذلك فالأستاذ لم يتوقف به المسير في محطة التنظير وإنما واصل رحلته نحو شباب الحداثة الإيمانية والقرآنية، فيخاطبهم ويوجههم فيبكي ويُبكيهم، فيقول: "ستقومون أنتم بإهداء حقائق الدين وإقامتها في الدنيا مرة أخرى. فأنتم باقة ضوء من منبع نور عظيم أضاء أطراف العالم الغارق في الظلام، وأنشأ شجرة إيمان وارفة الظلال كشجرة طوبى ظللت بأوراقها وأزهارها كل الأرجاء.

كانت كل كلمة لأمتنا في المباحثات الدولية في تلك العهود الزاهرة بمثابة أمر. وستقومون أنتم -بإذن الله- باستعادة تلك العهود الزاهرة والتخلص سريعًا من هذا العهد المظلم الذي نعيشه. فهذا هو ما يأمله الجميع منكم... يأمله من يعيش فوق التراب ومن هو مدفون تحته. بل هذا ما يأمله منكم رسول الله محمد ﷺ وهو يتجول بروحانيته بينكم ويربت على أكتافكم ويبتسم لكم وإن كنتم لا ترونه أو تحسون به.

أنتم تستطيعون نشر الأمن والطمأنينة فيما حولكم إن بقيتم أمناء ولم تنحرفوا عن الاستقامة. أجل، إن استطعتم تحقيق هذا انفتح لكم قلب الإنسانية جمعاء على مصراعيه، وستتربعون في هذا القلب كما تربع أجدادكم من قبل. ولكن لا تنسوا أبدًا أن شرط الوصول إلى هذه النتيجة وإلى هذه الذروة مرتبط بكونكم أمناء للأمانة الملقاة على عاتقكم.

فإن كنا نريد أن نكون أمة لها وزنها وكلمتها في الشؤون الدولية المهمة وتلعب دورًا بارزًا في تأسيس التوازن الدولي -حيث إننا مضطرون أن نكون كذلك- فيجب أن نكون ممثلين للحق وللعدالة وللاستقامة وللأمن"[٢٤].

هذا هو المقصد والمطلوب من دراسة السيرة، فليست سيرة النبي ﷺ وفقه أحداثها والبصر بمراحل تطورها مجرد عمل من أعمال التاريخ وحسب، شأنها شأن سواها من سير العظماء والنابغين في الميادين المختلفة للعظمة والنبوغ، ولكنها فوق ذلك التطبيق الأمثل لحقائق الإسلام الكبرى والتمثيل الصحيح لمبادئه وقواعده المجردة، بحيث لا يستقيم لأحد من طلاب الحق والمعرفة أن يفهم الإسلام فهمًا راشدًا ويقف على مواطن عظمته دون الوقوف على سيرة نبي الإسلام وتأمل

شخصيته، واستكناه نواحي العظمة فيها، للتأكد من أن محمدًا ﷺ لم يكن مجرد عبقري فذ سمت به عبقريته بين قومه، ولكنه قبل ذلك رسول مؤيد بوحي من عند الله، ونبي كريم شاءت الحكمة الإلهية أن يكون خاتم النبيين، وأن تكون رسالته كلمة الله الأخيرة إلى خلقه[٢٥].

nesemat.com نسمات nesemat.com

لا يستقيم لأحد من طلاب الحق والمعرفة أن يفهم الإسلام فهمًا راشدًا ويقف على مواطن عظمته دون الوقوف على سيرة نبي الإسلام وتأمل شخصيته، واستكناه نواحي العظمة فيها، وأن رسالته كلمة الله الأخيرة إلى خلقه.

شهادات المنصفين من غير المسلمين

ويتوقف الأستاذ في كتابه مع شهادات غير المسلمين في شأن وعظمة ومكانة رسولنا الكريم ﷺ وثمرات دعوته بعد أن كانوا يشربون الخمر ويلعبون القمار علنًا، وما بينهم من المشاكل والمنازعات لأسباب تافهة وسادت الفرقة في أرجاء البلاد، فيقول: "أجل، فما من سوء إلا وجدته هناك. ولم يكن من الممكن أبدًا لمثل هذا القوم الاستماع إلى النبي ﷺ، ولكنه استطاع أن يسل هذه العادات السيئة منهم واحدة بعد واحدة، ثم زينهم بمزايا وأخلاق عالية بحيث سبقوا الأمم كلها وأصبحوا لها أساتذة ومعلمين.

من هذه الأمة البدوية المتوحشة أنشأ مدنية لا تستطيع الأمم المدنية حتى في عصرنا الحالي بلوغ كعبها، لذا يقول موليير (Moliere) "بحقٍّ يستحيل أن توجد جماعة أخرى مستعصية على العلاج مثل جماعة نبي الإسلام. والاستحالة الثانية هي القيام بإصلاح مثل هذه الجماعة في وقت قصير جدًّا لا يتجاوز ٢٣ عامًا ورفعها إلى مصاف الإنسانية، ولم يتيسر هذا إلا لمحمد ﷺ".

ويقول الباحث وِهل (Wihl) وهو من المنصفين: "لقد ترك كل رجل عظيم أثرًا وراءه.. أثر للنبي، وأثر للمصلح وأثر للمجدد وأثر لرجل الدولة العظيم. وقد ترك محمد ، أيضًا أثرًا بعده. وهذا الأثر عظيم إلى درجة أننا إن ذكرنا "الأثر" تبادر للذهن أثره هو وحده، وهو أثر عظيم إلى درجة لا يمكن مقارنته مع الآخرين". وهذا الباحث رجل علم أيضًا وقد حصل على جوائز علمية، إذن، فالصديق يعترف، والعدو يعترف أيضًا، ولا أدري ماذا يقول بعض الجهلاء عندنا"[٢٦].

إحياء عصر السعادة

الأستاذ محمد فتح الله كولن يعلم علم اليقين أن العصر الوحيد الذي ليس فيه أي شائبة هو عصر السعادة "عصر النبوة". كل العصور الأخرى مهما بلغت لا بد أن يكون فيها بعض الشوائب فيؤخذ منها ويرد عليها إلا عصر السعادة، فماذا فعل الأستاذ؟ حمل الخدمة مباشرة إلى عصر السعادة

nesemat.com نسمات nesemat.com

الأستاذ فتح الله يحاول أن يذهب إلى الماضي فيأتي بأنواره إلى الحاضر. فهو يعتقد أن عصر السعادة هو عصر حي لم يمت وبأن كل ما وقع هنالك ليس أعيانًا وذوات وإنما أوصاف وأعماق.

وعرضها عليه، فهو يحاول أن تعيش الخدمة عصر الصحبة والصحابة.

لذلك أنا أعتقد أن كثيرًا من المؤلفين عندما يقومون بكتابة السيرة ينتقلون عبر التاريخ إلى الماضي ويبقوننا في الماضي؛ لكن الأستاذ فتح الله يحاول أن يذهب إلى الماضي فيأتي بأنواره إلى الحاضر. فهو يعتقد أن عصر السعادة هو عصر حي لم يمت وبأن كل ما وقع هنالك ليس أعيانًا وذواتًا وإنما أوصاف وأعماق. فأي صحابي من الصحابة الكرام ﷺ ليس المراد شخصه بشكله وهيئته، وإنما المقصود بروحه وفكره، فإذا أعدنا نفس المعاني فسيعود إلى زماننا من هو كالصحابي.

وبهذا جعل الأستاذ عصر النبي ﷺ وصحابته الكرام هو المحور، فقارن بين أحداث عصرنا والسيرة النبوية الشريفة: "لقد كان ﷺ يمامة الأنبياء -إن صح التعبير- لا يفتر في البحث عن القلوب النقية المنفتحة على الحقيقة، وعن الوجوه المقبلة على الهداية، وعندما يجدها يتسرب إلى هذه القلوب ويهمس فيها إلهام روحه. وهكذا كلما زادت الحلقات والهالات حوله وتوسعت، جُنّ جنون أصحاب الكفر والضلالة.

وكما جُنّ الكفر في الوقت الحالي أمام الصحوة الإسلامية في شرق العالم وغربه وأصبح يهذي، كان الكفر أيضًا قد جن وهو يرى حلقات الأتباع وهي تزداد حول الرسول ﷺ. وأدى هذا الجنون الذي أصاب الكفر إلى توهم أنهم يستطيعون إطفاء نور الله... ولكن هيهات... فمحاولاتهم تلك كانت أشبه بمن يحاول إطفاء نور الشمس بأفواههم... والشمس هنا تأتي من باب التمثيل وإلا فإن النور الذي أتى به كان يفوق نور الشموس، لأنه كان من نور الله ﷻ. والقرآن الكريم يصور حالتهم المضحكة هذه فيقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(التوبة:٣٢).

وفي القرن العشرين... في أيامنا الحالية هذه انقدحت الشرارات في نفوسنا من المشعل الذي أشعله نبينا ، فسارت مئات الآلاف في طريقه وهم يحملون أرواحهم في أكفهم من أجله ومن أجل إعلاء دعوته. إذن، فالله – شاء أن تتجدد الآن تلك الهالة المحمدية، وأن تتكرر تلك السلسلة الذهبية، أما حقد الكفر وغيظه وشدته وحدّته ومكره وخديعته فلن تستطيع الوقوف أمامها أو إيقاف سيرها... أجل، فإن هذه البذور التي زرعها الإخلاص ستنبت عاجلاً أم آجلاً إن لم يكن اليوم فغدًا؛ فالنور الذي نشره رسول الله ، لن ينطفئ أبدًا"[٢٧].

الأستاذ فتح الله حينما بدأ الخدمة أراد أن يستفيد من هذا النور الذي نشره رسول الله ﷺ أعظم استفادة، لذلك استوعب السيرة لأجل أن يعرض ذاته على الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم لذلك نلاحظه لا يتحدث في النور الخالد عن السيرة وإنما يتحدث عن ذاته في وجهة السيرة مثلاً: "يا رسول الله كيف السبيل إلى مقامك السامق؟ فأنت كنت في لحظة واحدة تغير كل هؤلاء البشر، أما أنا فلم أستطع أن أغير إنسانًا واحدًا طول حياتي"، فيعرض نفسه على السيرة ويعرض أصحابه -شباب الخدمة- على السيرة وعلى الصحابة رضي الله عنهم.

لا يشك الأستاذ بأن المستقبل للإسلام. فهو ينشر الأمل بكثرة بين ثنايا كتابه "النور الخالد"، مثلاً نقرأ فيه: "وحسبما نقرأ في الصحف، فإن آلافًا من الأوروبيين يسلمون، والدنيا بأجمعها مقبلة على الإسلام. أجل، إن أوروبا حامل بالإسلام وستلد يومًا ما، وأما العالم الإسلامي فهو في آلام المخاض وسيلد قريبًا. ثم انظر إلى شرق العالم حيث كان الفكر المنافق والملحد متحكمًا وسائدًا؛ فعلى الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على سياسة التذويب ومسخ الشخصية فإن البلدان الإسلامية مثل تركستان وكازاخستان وأذربيجان وأوزبكستان وداغستان وقرغيزستان لم تفقد شيئًا يذكر من روحها ومن فكرها، وهي مقبلة بتلهف على عالمها الروحي والفكري الخاص بها. وفي القريب سيرتفع الأذان المحمدي في كافة أطراف الأرض وسيقبل الناس أفواجًا على الإسلام، فلن يدع ممثلو دعوة النبي ﷺ أي بقعة من بقاع الدنيا دون إيصال صوت الدعوة إليها، وهم إذ يفعلون هذا يتخذون المحبة لهم أسلوبًا والحنان صفة"[٢٨].

إن التبليغ والدعوة هما من أهم واجباتنا نحن الذين ننتسب إلى أمته. ويجب ألا ننسى أن خلاص البشرية لا يتم أبدًا إلا بدعوته وبأنفاسه ثم بأنفاس متبعيه والسائرين في دربه.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

النور الخالد.. وخلاص الإنسانية

يرى الأستاذ أن مدرسة النبوة آثارها باقية بعد النبوة من خلال أتباع مدرسة النبوة وأثرهم في نشر الإيمان بأفعالهم وحركتهم فنقرأ في كتابه: "ومن ثم فإن التبليغ والدعوة هما من أهم واجباتنا نحن الذين ننتسب إلى أمته. ويجب ألا ننسى أن خلاص البشرية لا يتم أبدًا إلا بدعوته وبأنفاسه ثم بأنفاس متبعيه والسائرين في دربه"[٢٩].

من أراد أن يسير على دربه لا بد أن يعرفه حق المعرفة لئلا يخطئ بحقه، أو يضل الطريق الصحيح في التبليغ والدعوة، فيقول أحمد العبادي عن "النور الخالد": "إن الأستاذ كتبه لنفسه قبل أن يكتبه لغيره؛ ولذا كانت محتوياته أبحاثًا فيها كدح ومكابدة من قِبل الأستاذ؛ لكي يتعرف أكثر على

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن الأستاذ كأنه كتب ذلك الكتاب لنفسه قبل أن يكتبه لغيره؛ ولذا كانت محتوياته أبحاثًا فيها كدح ومكابدة من قِبل الأستاذ؛ لكي يتعرف أكثر على محبوبه، فلا يخطئ في حقِّه، ويستطيع أن يوفيه بعد ذلك مستحقَّه.

محبوبه، فلا يخطئ في حقِّه، ويستطيع أن يوفيه بعد ذلك مستحقَّه..."؛ أمّا الأستاذ جمال تُرك، فيردد دائمًا مقولته الموحية: "من أراد أن يعرف الأستاذ، فليقرأ النور الخالد؛ ذلك أنه مرآة لحقيقة الأستاذ وكشف لمكنوناته"[٣٠].

ويقارن الأستاذ بين أثر الدعوة المحمدية -التي انتشرت انتشارًا كبيرًا وبفترة وجيزة- وبين عجز الحكومات والدول في مكافحة ظاهرة من ظواهر العصر، فيقول: "فقد استطاع الرسول ﷺ أن يربي أمثال هؤلاء الرجال من بين أولئك البدو الملتزمين بعاداتهم وعنجهياتهم بتعصب لا مثيل له. والآن لنشرح هذا الموضوع بمثال صغير شرحًا مختصرًا، تحاول الدولة بكل وسائلها ووسائطها وإمكانياتها مكافحة عادة التدخين -التي تعد عادة بسيطة- فلا تستطيع ذلك، بل لا تستطيع مجرد خفض نسبة التدخين -المستمر في التصاعد- إلى نسبة غير معقولة.

ولا تعجز دولتنا فقط في هذا الموضوع، بل تعجز كل دول العالم، هذا بالرغم من كل المحاضرات والمقالات وكل الندوات التي تعقدها لمكافحة هذه العادة. ومع أن العلم وعالم الطب يصرحان بأن التدخين يؤدي إلى الإصابة بسرطان الحنجرة والرئة وسقف الفم، ومع أن الإحصاءات تقول إن نسبة الإصابة بهذه الأمراض نسبة كبيرة قد تبلغ ٩٥٪ إلا أن أهل ذلك العهد كانت لهم عشرات العادات الضارة التي تشربتها نفوسهم واختلطت مع دمائهم فأصبحت أقوى بكثير من عادة التدخين، ولكن رسول الله ﷺ استطاع بنفخة واحدة أن يزيل هذه العادات الضارة. وأن يزينهم بدلاً منها بعادات جميلة وبخلق حسن وبخصال حميدة إلى درجة كانت ملائكة السماء تغبطهم عليها وتتعجب فتقول: "عجبًا! هؤلاء ليسوا ملائكة.. ولكنهم أفضل منها". وفي يوم الحشر عندما تكاد أنوار هؤلاء تطفئ نار جهنم ستذهل الملائكة وتقول: من هؤلاء؟ أهم من الأنبياء أم من الملائكة..؟ إنهم ليسوا بأنبياء ولا ملائكة ولكنهم أفراد من أمة محمد ﷺ نشأوا على تربيته وتربوا على مبادئه"[٣١].

وهذا شيء يسير من منهج الأستاذ في دراسة السيرة النبوية في كتابه "النور الخالد". واستحضرت في هذا المقام عنوان الكتاب ويلوح لي مثل حال النبي ﷺ مع البشرية، فهو النور الخالد، ومن نوره اقتبس الصحابة أقصى ما يمكن أن يُقتبس من النور في الجهد البشري، وقام من بعدهم من التابعين باقتباس النور منهم، وهكذا مضى الناس جيلاً بعد جيل يقتبس اللاحق من الجيل السابق أنوارًا تتفاوت

قوتها على قدر طاقة المقتبسين، وما منّ الله تعالى عليهم من نور. وفي كل عصر لا بد من ذوي أنوار ساطعة يكونون هم القادة في ذلك العصر. ويكون نورهم الأسطع فيه، ويقتبس الناس من أنوارهم ليمتد النور إلى يوم القيامة[٣٢]. ■

إن الأستاذ كولن حينما بدأ الخدمة أراد أن يستفيد من هذا النور الذي نشره رسول الله ﷺ أعظم استفادة، لذلك استوعب السيرة لأجل أن يعرض ذاته على الرسول ﷺ والصحابة ﷺ لذلك نلاحظه لا يتحدث في النور الخالد عن السيرة وإنما يتحدث عن ذاته في وجهة السيرة.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الهوامش

(١) سعيد مراد: منـزلة الرسول، في فكر المفكر الإسلامي محمد فتح الله كولن، مقال منشور في مجلة التصوف الإسلامي، يوليو ٢٠٠٥م.

(٢) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧، ص: ١٣.

(٣) سعيد مراد: منـزلة الرسول ، في فكر المفكر الإسلامي محمد فتح الله كولن، مقال منشور في مجلة التصوف الإسلامي، يوليو ٢٠٠٥م.

(٤) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية، ص: ١٣-١٤.

(٥) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٤٣.

(٦) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية، ص: ١٤.

(٧) مأمون فريز جرار: النور الخالد منهج في قراءة السيرة النبوية، مقال منشور في جريدة الدستور الأردنية، بتاريخ ٢٠١١/٥/٦م.

(٨) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية، ص: ١٥.

(٩) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٤٤.

(١٠) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية، ص: ٢١.

(١١) لقاء خاص مع الأستاذ نوزاد صواش.

(١٢) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية، ص: ١٧.

(١٣) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١٧-١٨.

(١٤) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٤٤.

(١٥) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية، ص: ٤٩-٥٠.

(١٦) عبدالقادر الإدريسي: نفحات قرآنية من نسمات تركية، مقال منشور في جريدة "العَلَم" المغربية، ٢٩ أغسطس ٢٠٠٩م.

(١٧) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد، مفخرة الإنسانية، ص: ٥٠.

(١٨) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٤٧.

(١٩) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية، ص: ٣٠-٣١.

(٢٠) مأمون فريز جرار: النور الخالد منهج في قراءة السيرة النبوية، مقال منشور في جريدة الدستور الأردنية، بتاريخ ٢٠١١/٥/٦.

(٢١) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية، ص: ٨٧.

(٢٢) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٤٠٧.

(٢٣) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية، ص: ٣٩٨.

(٢٤) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١٣٧.

(٢٥) عبدالحليم عويس: فتح الله كولن، إمام النهضة الإسلامية في تركيا المعاصرة، ص: ٩٩-١٠٠.

(٢٦) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية، ص: ٣١١-٣١٢.

(٢٧) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية، ص: ٥٩-٦٠.

(٢٨) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١٦٧.

(٢٩) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١٦٩.

(٣٠) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٤٢.

(٣١) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ، مفخرة الإنسانية، ص: ٣١٣.

(٣٢) مأمون فريز جرار: النور الخالد منهج في قراءة السيرة النبوية، مقال منشور في جريدة الدستور الأردنية بتاريخ ٢٠١١/٥/٦.

قراءة في تقرير "تركيا من ديمقراطية واعدة إلى دولة مافيوية"

منى سليمان

كاتبة وباحثة متخصصة في الشؤون الإقليمية والدولية، ماجستير في العلاقات الدولية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة. لها عديد من الدراسات المحكمة والمقالات السياسية التحليلية، مهتمة بالشأن التركي ولا سيما حركة الخدمة وفكر الأستاذ "كولن". نشرت عددًا من المقالات والدراسات في هذا الموضوع منها: "كولن وأردوغان.. مَن المنتصر ومَن الخاسر بعد عام على الانقلاب الفاشل؟" وغير ذلك من المقالات والدراسات.

الاختطاف "جريمة" في كافة التشريعات العقابية الوطنية وفي الاتفاقيات الدولية وفي القانون الوضعي والفقه الإسلامي، وقد أصدرت "نسمات" للدراسات الاجتماعية والحضارية تقريرها التاسع بعنوان: "تركيا من ديمقراطية واعدة إلى دولة مافيوية" رصدت فيه حالات الاختطاف والترحيل التعسفي بحق منتمين لحركة الخدمة، حيث تم اختطاف وترحيل أكثر من ١٠٠ مواطن تركي كانوا متواجدين بعدد من الدول الآسيوية والأفريقية وتم نقلهم تعسفيًا إلى تركيا. وفي هذه الدراسة تقدم الباحثة قراءة لمضمون هذا التقرير حيث بدأت بتعريف الاختطاف لغويًّا وقانونيًّا، وأوضحت المواد التي تعتبر الاختطاف جريمة ضد الإنسانية بميثاق الأمم المتحدة. وبعد تلخيص موجز لمضمون التقرير وما استعرضه من حالات وأمثلة بينت أهميته الخاصة من حيث مضمونه وتوقيته ودلالاته.

أصدر مركز نسمات للدراسات الاجتماعية والحضارية تقريره التاسع بعنوان: "تركيا من ديمقراطية واعدة إلى دولة مافيوية" وهو واحد من سلسلة تقارير يصدرها المركز حول أوضاع حقوق الإنسان بتركيا عقب الانقلاب العسكري الفاشل في ١٥ يوليو ٢٠١٦، الذي استغله الرئيس التركي "رجب طيب أردوغان" لشن حملات قمع واعتقال وطرد تعسفي بحق عناصر حركة "الخدمة" بذريعة تورط ملهم الحركة المفكر الإسلامي "فتح الله جولن" في الانقلاب الفاشل رغم عدم وجود أي دليل قانوني أو مادي على تلك الاتهامات المرسلة. وقد خُصص التقرير التاسع لرصد حالات الاختطاف والترحيل التعسفي بحق عناصر حركة الخدمة، حيث تم اختطاف وترحيل أكثر من ١٠٠ مواطن تركي كانوا متواجدين بعدد من الدول الآسيوية والأفريقية وتم نقلهم تعسفيًا إلى تركيا.

أولاً: جريمة الاختطاف.. التعريف اللغوي والقانوني

١- تعريف الاختطاف وارتباطه بالجرائم الأخرى: الاختطاف لغويًا: مصدر للفعل: اختطفَ يختطف، اختطافًا، فهو مختطِف، واسم المفعول مختطَف، واختطف الشيء: جذبه وأخذه بسرعة، واختطف من حديثه شيئًا: اقتطع منه وحذف شيئًا. واختطَفَ الشَّخصَ أي أخذه قَسْرًا، محتجزًا إيّاه في مكانٍ ما، طمعا في فديةٍ أو ابتغاء أمرٍ ما.

nesemat.com نسمات nesemat.com

لا يجوز تعريض أي شخص للاختفاء القسري. ولا يجوز التذرع بأي ظرف استثنائي أيًّا كان، سواء تعلق الأمر بحالة حرب أو التهديد باندلاع حرب، أو بانعدام الاستقرار السياسي الداخلي، أو بأية حالة استثنائية أخرى، لتبرير الاختفاء القسري.

والمعني القانوني للاختطاف هو الاستحواذ على شخص وحجزه بدون شرعية لمطالب خارجية مثل الفدية أو لأهداف قد تكون سياسيّة أو اجتماعيّة أو ماليّة[1].

ويعد الاختطاف "جريمة" في كافة التشريعات العقابية الوطنية وفي الاتفاقيات الدولية وفي القانون الوضعي والفقه الإسلامي باعتبار أن جوهرها يمثل اعتداءً أو مساسًا بمصالح الإنسان وحياته. والاختطاف يمكن أن يحدث لأفراد أو طائرات أو سفن. وتاريخيًا كان جزءًا من ظاهرة اجتماعية هي "الاسترقاق" التي كانت ظاهرة مألوفة في العصور والأزمان القديمة لدى الشعوب والحضارات السابقة، حيث كان يختطف الأطفال والشباب ثم يباعون كعبيد، ثم تطورت هذه الجريمة بعد ذلك مع المراحل الزمنية المختلفة حتى غدت ظاهرة إجرامية سواءً أكان ذلك في أصلها أم في أفعال الاختطاف المصحوبة معها.

وجريمة الاختطاف تُعدُّ من أكثر الجرائم تداخلًا مع جرائم وأفعال أخرى سواءً أكان ذلك من حيث طبيعة الفعل المادي ذاته أم من حيث تكوينه، أم

يؤكد تقرير نسمات التاسع حول حالات الاختطاف أن الإجراءات القمعية التي يمارسها النظام الحاكم في تركيا ضد معارضيه تندد بها كافة المنظمات الحقوقية، وتستهجنها أغلب دول العالم.

nesemat.com نسمات nesemat.com

من حيث تعدّد المحل الجنائي الواقع عليه، حيث إنها تتَّصف بإهدارها لأكثرَ من حقٍ من الحقوق الشخصية للأفراد في المجتمع والدولة، التي مُنحوا إيَّاها بتشريع سماوي أو قانون وضعي، وتتميَّز – أيضًا– في بعض صورها بأنَّها من نوعية الجرائم التي تهدف إلى التأثير على سياسة الحكومة عبر الترهيب وممارسة الضغط. لذا تعد جريمة الاختطاف من أكثر الجرائم التي يمكن أن تندرج تحت أكثر من تصنيف إجرامي حيث ترتبط بالجريمة الإرهابية والجريمة السياسية والجريمة المنظمة.

٢- الاختطاف جريمة ضد الإنسانية بميثاق الأمم المتحدة: كان لمنظمة الأمم المتحدة دور كبير في تجريم "الاختطاف" في جميع مواثيقها وكافة مؤسساتها، حيث يفرض ميثاق الأمم المتحدة على الدول "الالتزام بتعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية احترامًا عالميًا وفعليًا، استنادًا إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان". كما صُنف الاختطاف كجريمة في العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الخاص بالأمم المتحدة، والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، والصكوك الدولية الأخرى ذات الصلة بمجالات حقوق الإنسان والقانون الإنساني والقانون الجنائي الدولي المعتمدَين من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة.

كما اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها (١٣٣/٤٧) الصادر يوم ١٨ ديسمبر ١٩٩٢، "الاختفاء القسري" جريمة ضد الإنسانية، وقد عقدت العزم على منع حالات الاختفاء القسري ومكافحة إفلات مرتكبي جريمة الاختفاء القسري من العقاب، وقد وضعت في الاعتبار حق كل شخص في عدم التعرض لاختفاء قسري، وحق الضحايا في العدالة والتعويض، وإذ تؤكد حق كل ضحية في معرفة الحقيقة بشأن ظروف الاختفاء القسري ومعرفة مصير الشخص المختفي، فضلاً عن حقه في حرية جمع واستلام ونشر معلومات لتحقيق هذه الغاية. ومن أبرز مواد القرار (١٣٣/٤٧) حول جريمة الاختطاف وما يتصل بها:

(**المادة ١**) تؤكد "أنه لا يجوز تعريض أي شخص للاختفاء القسري. ولا يجوز التذرع بأي ظرف استثنائي أيًّا كان، سواء تعلق الأمر بحالة حرب أو التهديد باندلاع حرب، أو بانعدام الاستقرار السياسي الداخلي، أو بأية حالة استثنائية أخرى، لتبرير الاختفاء القسري.

(**المادة ٢**) تعرف "الاختفاء القسري" على إنه "الاعتقال أو الاحتجاز أو الاختطاف أو أي شكل من أشكال الحرمان من الحرية يتم على أيدي موظفي الدولة، أو أشخاص أو مجموعات من الأفراد يتصرفون

بإذن أو دعم من الدولة أو بموافقتها، ويعقبه رفض الاعتراف بحرمان الشخص من حريته أو إخفاء مصير الشخص المختفي أو مكان وجوده، مما يحرمه من حماية القانون".

و(**المادة ٣**) تلزم كل دولة باتخاذ التدابير الملائمة للتحقيق في التصرفات المحددة في المادة ٢ التي يقوم بها أشخاص أو مجموعات من الأفراد يتصرفون دون إذن أو دعم أو موافقة من الدولة، ولتقديم المسؤولين إلى المحاكمة.

و(**المادة ٦**) تلزم كل دولة بتحمل المسؤولية الجنائية على أقل تقدير لكافة الجهات المتورطة في عمليات الاختفاء القسري أو الاختطاف وهم:

أ- كل من يرتكب جريمة الاختفاء القسري، أو يأمر أو يوصي بارتكابها أو يحاول ارتكابها، أو يكون متواطئا أو يشترك في ارتكابها.

ب- الرئيس الذي كان على علم بأن أحد مرؤوسيه ممن يعملون تحت إمرته ورقابته الفعليتين قد ارتكب أو كان على وشك ارتكاب جريمة الاختفاء القسري، أو تعمد إغفال معلومات كانت تدل على ذلك بوضوح؛ وكان يمارس مسؤوليته ورقابته الفعليتين على الأنشطة التي ترتبط بها جريمة الاختفاء القسري؛ ولم يتخذ كافة التدابير اللازمة والمعقولة التي كان بوسعه اتخاذها للحيلولة دون ارتكاب جريمة الاختفاء القسري أو قمع ارتكابها أو عرض الأمر على السلطات المختصة لأغراض التحقيق والملاحقة.

nesemat.com نسيات nesemat.com

تتباهى الاستخبارات التركية بقدرتها على اختراق سيادة الدول، واختطاف المعارضين المستظلين بحماية الأمم المتحدة أمام جماهيره وأنصاره، في سلوك لا يتناسب وأعراف حقوق الإنسان.

جـ- ليس في الفقرة (ب) إخلال بالقواعد ذات الصلة التي تنطوي على درجة أعلى من المسؤولية وواجبة التطبيق بموجب القانون الدولي على قائد عسكري أو على أي شخص يقوم فعلاً مقام القائد العسكري. ولا يجوز التذرع بأي أمر أو تعليمات صادرة من سلطة عامة أو مدنية أو عسكرية أو غيرها لتبرير جريمة الاختفاء القسري. كما تنص المادة على أن تتخذ كل دولة طرف أيضا التدابير اللازمة لإقرار اختصاصها بالبت في جريمة اختفاء قسري عندما يكون مرتكب الجريمة المفترض متواجدًا في أي إقليم يخضع لولايتها القضائية، ما لم تسلمه هذه الدولة أو تحيله إلى دولة أخرى وفقًا لالتزاماتها الدولية أو إلى محكمة جنائية دولية تعترف باختصاصها.

ويجوز لكل دولة طرف يكون التسليم فيها مرهونًا بوجود معاهدة أن تعتبر هذه الاتفاقية، عند تلقيها طلبَ تسليم من دولة طرف أخرى لا تربطها بها معاهدة، بمثابة الأساس القانوني للتسليم فيما يتعلق بجريمة الاختفاء القسري. وليس في هذه الاتفاقية ما يمكن تفسيره على أنه يشكل التزامًا على الدولة الطرف التي يطلب منها

يؤكد تقرير نسمات التاسع حول حالات الاختطاف أن الإجراءات القمعية التي يمارسها النظام الحاكم في تركيا ضد معارضيه تندد بها كافة المنظمات الحقوقية، وتستهجنها أغلب دول العالم.

nesemat.com نسمات nesemat.com

التسليم، إذا كان لديها من الأسباب الوجيهة ما يجعلها تعتقد أن الطلب قد قدم بغرض ملاحقة الشخص أو معاقبته بسبب نوع جنسه أو عرقه أو دينه أو جنسيته أو أصله الإثني أو آرائه السياسية، أو انتمائه إلى جماعة اجتماعية معينة، وأن تلبية هذا الطلب ستتسبب في الإضرار بهذا الشخص لأي من هذه الأسباب.

د- ضمان حصول كل شخص يحرم من حريته على إذن للاتصال بأسرته أو محاميه أو أي شخص آخر يختاره، واستقبال زيارتهم، رهنًا فقط بمراعاة الشروط المنصوص عليها في القانون، وضمان حصول الأجنبي على إذن للاتصال بالسلطات القنصلية لدى بلده وفقا للقانون الدولي الواجب التطبيق.

هـ- ضمان سبل وصول كل سلطة ومؤسسة مختصة ومؤهلة بموجب القانون إلى أماكن الاحتجاز، وذلك، عند الضرورة، بإذن مسبق من سلطة قضائية.

و- ضمان حق كل شخص يُحرم من حريته، وفي حالة الاشتباه في وقوع اختفاء قسري، حيث يصبح الشخص المحروم من حريته غير قادر على ممارسة هذا الحق بنفسه، حق كل شخص لـه مصلحة مشروعة، كأقارب الشخص المحروم من حريته أو ممثليهم أو محاميهم، في جميع الظروف، في الطعن أمام محكمة تبت في أقرب وقت في مشروعية حرمانه من حريته وتأمر بإطلاق سراحه إذا تبين أن حرمانه من حريته غير مشروع[2].

وبهذا تكون المواثيق الدولية المعتمدة من قبل هيئة الأمم المتحدة قد حددت مفهومًا قانونيًا دوليًا شاملاً لمعني الاختطاف وما يترتب عليه من جرائم أخرى ترتبط بالاختفاء القسري، ومسؤولية كل دولة عن سلامة المواطنين على أراضيها سواء أكانوا من مواطنيها أو مقيمين بها، كما أقرت الاتفاقيات الدولية ضرورة محاسبة ومعاقبة كل مسؤول تورط في جريمة الاختطاف في الدولة المضيفة أو الدولة الأم التي قامت باختطاف مواطنيها من الدولة المضيفة.

ثانيًا: قراءة في مضمون تقرير نسمات التاسع:

يؤكد تقرير نسمات التاسع حول حالات الاختطاف أن الإجراءات القمعية التي يمارسها النظام الحاكم في تركيا ضد معارضيه تندد بها كافة المنظمات الحقوقية، وتستهجنها أغلب دول العالم.

ومع ذلك، فقد لعبت بعض الدول دور الشريك في القمع الذي تمارسه الحكومة التركية ضد مواطنيها في الداخل والخارج، من خلال الاستجابة لمطالباتها في ترحيل المقيمين على أراضيها، من أفراد الجالية

التركية المعارضة، وعلى رأسهم المتعاطفون مع مشروع الخدمة، وإغلاق مؤسساتهم التربوية التي تسهم في النهضة التعليمية لهذه البلاد، ومصادرة ممتلكاتهم وتسليم مؤسساتهم ومدارسهم لهيئات تابعة للحكومة التركية. وقد لجأت الأخيرة إلى القيام بعمليات غير قانونية بالتواطؤ مع بعض دوائر الفساد في هذه البلاد، ونظمت عمليات اختطاف لهؤلاء المعارضين وترحيلهم على متن طائرات استخبارات تركية خاصة، لتتباهى بعد ذلك الاستخبارات التركية بقدرتها على اختراق سيادة الدول، واختطاف المعارضين المستظلين بحماية هذه الدول أو بحماية الأمم المتحدة فيها أمام جماهيره وأنصاره، في سلوك لا يتناسب وأعراف حقوق الإنسان، وقوانين المجتمع الدولي. ولعل أبرز فصول ذلك محاولة اختطاف وترحيل المفكر الإسلامي "فتح الله كولن" شخصيًّا من الأراضي الأمريكية حيث يقيم بولاية بنسلفانيا منذ عام ١٩٩٩، بالتعاون مع "مايكل فلين" (مستشار الأمن السابق للرئيس الأمريكي "دونالد ترامب") مقابل ١٥ مليون دولار أمريكي كان سيتقاضاها "فلين" لو تمت هذه الصفقة.

ورغم غياب التقارير الأمنية الموثقة لأنها تحاط بالسرية حول عدد المواطنين الأتراك المخطوفين منذ يوليو ٢٠١٦، إلا أن بعض التقارير الأمنية والمخابراتية الدولية ترجح أن المخابرات التركية تمكنت من اختطاف أكثر من ١٠٠ شخص من

إن بعض التقارير الأمنية والمخابراتية الدولية ترجح أن المخابرات التركية تمكنت من اختطاف أكثر من ١٠٠ شخص من الرعايا الأتراك العاملين بمؤسسات الخدمة في ١٥ دولة مختلفة.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الرعايا الأتراك العاملين بمؤسسات الخدمة في (كوسوفو، قطر، أذربيجان، كازاخستان، جورجيا، منغوليا، مولدوفا، ماليزيا، الجابون، ميانمار، باكستان، فنزويلا، السودان، أوكرانيا، كمبوديا). وذلك من خلال التعاون بين المخابرات التركية ومخابرات هذه الدول التي تربطها بأنقرة علاقات سياسية وأمنية وثيقة. وهناك دول رفضت الانصياع للمطالب التركية في اختطاف المواطنين ومنها نيجيريا ومقدونيا مما دفع أنقرة لانتقاد تلك المواقف. ومن أبرز حالات الاختطاف التي وردت بالتقرير وتم إلقاء الضوء عليها من قبل وسائل الإعلام الدولية ما يلي:

-في يوليو ٢٠١٨ اختطفت المخابرات التركية من منغوليا "فيسيل أكاير" مدرس بأحد مدارس الخدمة، وتم تسليمه بناء على طلب من الحكومة التركية، لكن الحظ حالفه وتم إطلاق سراحه فيما بعد.

-في ديسمبر ٢٠١٨ قررت السلطات الفنزويلية تسليم مَدرستين تابعتين لحركة الخدمة في كاراكاس إلى وقف المعارف التركي الحكومي لتصبح تابعة للدولة التركية، كما ترددت أنباء آنذاك عن اختطاف عدد من المواطنين الأتراك من فنزويلا وإعادتهم

يعد التقرير توثيقًا زمانيًّا ومكانيًّا لحالات الاختطاف التي تمت بحق المواطنين الأتراك بالخارج، وذلك بعدما أصدر "أردوغان" أوامره بخطف أي موظف تركي يعمل في مؤسسات الخدمة خارج حدود تركيا.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

قسرًا إلى تركيا وذلك بعد زيارة "أردوغان" لفنزويلا.

-في نهاية عام ٢٠١٨ اختطفت المخابرات التركية من جورجيا "مصطفى تشابوك" المدرس بالمرحلة الثانوية بإحدى مدارس الخدمة، وتم تسليمه إلى تركيا. وبالطبع هو الآن معتقل وربما يتعرض للتعذيب.

-في سبتمبر ٢٠١٧ أُختطف رجل الأعمال التركي "ممدوح شيكماز من السودان في عملية مشتركة بين الشرطة السودانية والتركية، ومُنع من مقابلة محاميه ولم يُسمح له بالاتصال به، وتم سجنه بالخرطوم ثم رحِّل إلى تركيا.

-في سبتمبر ٢٠١٧ اختطف "إنفر كيليك وزابيت كيسي" من كازاخستان، حيث قامت مجموعة مجهولة باختطافهم، ثم تم ترحيلهم وفقًا لوسائل الإعلام التركية، وكانوا رهن الاحتجاز في تركيا.

-في أغسطس ٢٠١٦ أُختطف "مسعود كاتشماز" وعائلته من باكستان، وقد كان "كاتشماز" مديرًا لمجموعة مدارس تتكون من ثمانية وعشرين مدرسة تابعة لمؤسسة (باك تورك) المزعوم ارتباطها بالداعية التركي فتح الله كولن؛ وقد قامت إسلام آباد بإغلاقها في أغسطس ٢٠١٦ فور مطالبة أنقرة لها بذلك، وفي نوفمبر ٢٠١٦ وقبيل زيارة أردوغان لباكستان بيومين، قامت وزارة الداخلية الباكستانية بإلغاء تأشيرات المدرسين والإداريين الأتراك العاملين في هذه المدارس وعوائلهم وطلبت منهم (حوالي ٤٥٠ فردًا) أن يغادروا باكستان خلال ثلاثة أيام. فتدخلت الأمم المتحدة وقبلت هؤلاء المدرسين والإداريين لاجئين تحت حمايتها خشية تعرضهم للاضطهاد إذا عادوا إلى تركيا. ورغم ذلك تم مداهمة منزل أسرة السيد "كاتشماز" ثم اقتيد هو وزوجته وابنتاه ورحلوا في ١٤ أكتوبر ٢٠١٧ من إسلام أباد إلى إسطنبول على متن طائرة خاصة.

-في ٢٤ مايو ٢٠١٧ اختطف "مصطفى أمره تشابوك" المدير العام للعديد من المدارس التي افتتحها رجال الأعمال الألمان في جورجيا، وذلك غداة لقاء رئيس الوزراء التركي "بن علي يلدريم" ونظيره الجورجي "جيورجي كفيركاشفيلي". وقد تم سجن "تشابوك" ثلاثة أشهر بناءً على قرار الحجز الاحتياطي الصادر عن المحكمة الجورجية.

- في يونيو ٢٠١٧ اعتقل "محمد فرقان سوكمن" من ميانمار، وهو يعمل في مدارس "هوريزون إنترناشيونال" وقد اعتقلت عائلته (زوجته وابنته البالغة من العمر عامين) بمطار العاصمة يانجون.

-في مايو ٢٠١٧ اعتقل "تورجاي كرامان" مدرس و"إحسان أصلان" تاجر وهما مواطنان تركيان كانا مقيمين بماليزيا. وقد اتهمتهما أنقرة بأنهما "إرهابيان" وتم اعتقالهما وترحيلهما. وفي

٣٠ أغسطس ٢٠١٩ ألقت قوات الشرطة التابعة لمكتب الهجرة في ماليزيا القبض على المُعلم "عارف كوميش" الذي كان يعمل مديرًا لمدرسة دولية.

-في ٢٩ مارس ٢٠١٨ اعتقل ستة مواطنين أتراك كانوا مقيمين بكوسوفو، وهم "مصطفى إردم، ويوسف كرابينا، وكهرمان ديميرز، وجيهان أوزكان، وحسن حسين جوناكان، والبروفيسور عثمان كركايا"، وكانوا حاصلين علي إقامات قانونية وتصريح عمل في كوسوفو، وتم احتجازهم من قبل شرطة كوسوفو بناءً على طلب تركي، وذلك بزعم انتمائهم لحركة "الخدمة".

-في أبريل ٢٠١٧ دخل "مصطفى جيلان" أذربيجان لرحلة عمل، وهو رجل أعمال تركي كان يقيم في جورجيا، ثم تم اعتقاله بتهمة عبور الحدود بطريقة غير مشروعة رغم أنه لجأ إلى الأمم المتحدة وكان تحت حمايتها. وقد سجن لعام في أذربيجان ثم تمت تبرئته وإخلاء سبيله. ثم قامت مجموعة من ثمانية أشخاص باختطافه مرة أخرى من أمام المحكمة وتم ترحيله إلى تركيا.

-في ١١ يوليو ٢٠١٨، ألقت قوات الأمن الأوكرانية القبض على رجل الأعمال التركي "صالح زيكي يجيت" من شارع مزدحم في مدينة أوديسا، بزعم أنه مؤيد للأستاذ "كولن"، ونقل إلى إسطنبول، وغداة ذلك احتجزت الشرطة الأوكرانية الصحفي التركي "يوسف عنان" ثم تم ترحيله أيضا إلى تركيا.

- صباح يوم ٢٧ يوليو ٢٠١٨ حاولت

إن الحملة الأمنية التي أطلقتها حكومة تركيا منذ انقلاب 15 يوليو 2016 أسفرت عن التحقيق مع 559 ألفًا و64 حتى نهاية نوفمبر 2019. وتم إلقاء القبض على 261 ألفًا و700 شخص بتهمة التورط في محاولة الانقلاب

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الاستخبارات التركية MIT اختطاف "فيصل أكتشاي" المدير العام لمدارس أمباثي المقربة من نموذج الخدمة في منغوليا، وعندما شكت عائلته في الأمر أبلغوا الشرطة وتم منع طائرته من الإقلاع، بعد أن أكد شهود أن على متنها تركيًا مخطوفًا. وقد تسببت هذه العملية في أزمة بين البلدين، وحذر نائب وزير الخارجية المنغولي باتستسيج باتمونخ مسؤولي السفارة التركية من أن أي محاولة خطف على أراض منغولية تشكل "انتهاكًا خطيرًا لاستقلال منغوليا وسيادتها". وبناء عليه عاد إلى منزله. وجدير بالذكر أن أكتشاي قد عمل في المؤسسات التعليمية في منغوليا لمدة أربعة وعشرين عامًا وهو أحد المواطنين الأتراك القلائل الذين يحملون وسام الصداقة المنغولي الذي منحته له الحكومة المنغولية. فكيف يتورط في محاولة انقلابية تمت عام ٢٠١٦ بينما كان يدير عمله بمنغوليا؟!

-في ٦ سبتمبر ٢٠١٨، تم اعتقال البروفيسور التركي "ياسين أوزديل" من مولدوفا، حيث قامت أجهزة المخابرات المولدوفية بمداهمة منزله واقتادته من الشقة التي يعيش فيها مع أسرته. ثم تم ترحيله إلى تركيا وخضع للمحاكمة وحكم عليه

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن معظم المواطنين الذين تم خطفهم هم مدرسون وعاملون في المدارس التابعة لحركة الخدمة، وعمليات الاختطاف كانت بهدف سياسي وهو إغلاق هذه المدارس للقضاء علي الدور الثقافي الدولي للخدمة.

بالسجن ١٢ عامًا. وكان "أوزديل" يعمل في سلسلة المدارس الثانوية الخاصة في أوريزونت في مولدوفا، والتي تمت مصادرتها عام ٢٠١٨ وسلمت لوقف المعارف التركية المعين من قبل الحكومة التركية للاستيلاء على مدارس "الخدمة" في الخارج. وجدير بالذكر أن "أوزديل" عمل عام ٢٠١٥ بالمكتب الرئاسي للرئيس التركي السابق "عبد الله جول".

-في ١٤ أكتوبر ٢٠١٩ قدمت السفارة التركية في كمبوديا بيانات مزورة للسلطات هناك، زعمت فيها أن المواطن التركي "عثمان كاراجا" لا يحمل الجنسية المكسيكية، وأن وثيقة السفر الخاصة به مزورة، ودفعت قوات مكافحة الإرهاب بكمبوديا لاعتقاله. وبعد ذلك اختفى تمامًا، حيث تم اختطافه وترحيله إلى تركيا، وظهر بعد ذلك أن وثائقه المكسيكية صحيحة.

ثالثًا: قراءة في دلالات التقرير:

من خلال قراءة تحليلية لتقرير نسمات التاسع نجد أنه يمثل أهمية خاصة في مضمونه وتوقيته ودلالاته:

-فمن حيث المضمون: قدم التقرير توثيقًا زمانيًا ومكانيًا لحالات الاختطاف التي تمت بحق المواطنين الأتراك بالخارج، حيث يعد الاختطاف آلية جديدة تعتمدها الحكومة التركية لم يتم توثيقها، وذلك بعدما أصدر "أردوغان" أوامره بخطف أي موظف تركي يعمل في مؤسسات الخدمة خارج حدود البلاد، وبدأت أجهزة المخابرات التركية حصر هؤلاء الموظفين وتعقبهم بغية خطفهم وإعادتهم قسرًا إلى أنقرة ثم اعتقالهم وتعذيبهم ومحاسبتهم، ورغم غياب أعداد موثقة عن حالات الاختطاف التي تمت إلا أن التقرير نجح في توثيق عدد كبير من تلك الحالات.

وهذا بعكس حالات الخطف والاعتقال والتعذيب والقتل التي تتم داخل الأراضي التركية التي يتم توثيقها من قبل الحكومة التركية، حيث كشف وزير الداخلية التركي "سليمان صويلو" بنهاية عام ٢٠١٩ أن الحملة الأمنية التي أطلقتها حكومة بلاده منذ انقلاب ١٥ يوليو ٢٠١٦ أسفرت عن التحقيق مع ٥٥٩ ألفًا و٦٤ حتى نهاية نوفمبر ٢٠١٩. وتم إلقاء القبض على ٢٦١ ألفًا و٧٠٠ شخص بتهمة التورط في محاولة الانقلاب، وأصدرت بحق ٩١ ألف و٢٨٧ منهم قرارات اعتقال.

كما وثقت المنظمة الحقوقية الأمريكية Ad-vocates of Silenced Turkey حدوث حالات تعذيب للسجناء في المعتقلات والسجون التركية منذ محاولة الانقلاب في ٢٠١٦، مما أسفر عن وفاة ٩٣ سجينًا نتيجة التعذيب، كما تعرض ٧٧ من

المعتقلين بتهمة الانتماء لحركة "الخدمة" للتعذيب في مديرية أمن أنقرة في منتصف ٢٠١٩، وكذلك تم فصل ١٠٠ دبلوماسي من العمل بتهمة الانتماء لحركة الخدمة عام ٢٠١٩ ثم تم اعتقالهم وتعرضوا للتعذيب في مديرية أمن أنقرة على يد عناصر من جهاز الاستخبارات. كافة تلك الجرائم تتم دون أي دليل إدانة قانوني ولا يتم توجيه أي اتهام جنائي لهم سوى أنهم عملوا في مؤسسة تابعة لحركة "الخدمة" (مدرسة ابتدائية، مراكز التحضير للجامعة، بيوت الطلبة، مشفى، جامعة، جريدة....) حتى تجاوز عدد المواطنين الذين تم اعتقالهم في ثلاث أعوام ما يقرب من نصف مليون مواطن تركي.

-ومن حيث التوقيت: فالتقرير صدر بنهاية ديسمبر ٢٠١٩ بالتزامن مع تصاعد حدة الانتقادات الدولية للانتهاكات التي يتعرض لها المعتقلون الأتراك، مما ضاعف اهتمام الباحثين والمعنيين بالشأن التركي بالتقرير ومضمونه، كما ضاعف من الزخم الإقليمي والدولي حول حالة حقوق الإنسان بتركيا، حيث عقد في منتصف يناير ٢٠٢٠ جلسة بالبرلمان الأوروبي لعرض تقرير حالة حقوق الإنسان بتركيا الذي سجل إدانات حادة لتراجع حالة حقوق الإنسان بتركيا، كما ناقش مقر الأمم المتحدة بجنيف تقريرًا عن حقوق الإنسان بتركيا في نهاية يناير ٢٠٢٠ وجدد الانتقادات الدولية للانتهاكات المتكررة بحق المواطنين الأتراك داخل وخارج البلاد.

ومن حيث الدلالات: نجد أن هناك العديد من

عقد في منتصف يناير 2020 جلسة بالبرلمان الأوروبي لعرض تقرير حالة حقوق الإنسان بتركيا الذي سجل إدانات حادة لتراجع حالة حقوق الإنسان بتركيا.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الدلالات السياسية والقانونية التي يقدمها التقرير، ومنها:

-كافة المواطنين الأتراك الذين تعرضوا للاختطاف كانوا مقيمين بالدول المضيفة منذ سنوات عدة بلغت في بعض الحالات أكثر من ٢٠ عامًا، ولم يُرصد أي تصرف منهم ضد قوانين تلك الدول أو ضد المصالح التركية، بل يتم الإشادة بهم دوما وبتفانيهم في عملهم ومساعدتهم للآخرين، حيث كانوا صورة مشرفة لبلدهم تركيا وخير سفراء لها في الخارج. ولم تتقدم الدولة التركية "للإنتربول" الشرطة الدولية بمذكرة اعتقال لأيٍّ منهم ليتم ترحيلهم بطرق شرعية كما هو متبع في الأعراف والقوانين بين مختلف دول العالم. لأن أنقرة لا تملك أي أدلة قانونية يُعتمد عليها لإدانتهم. كما أن بعضهم قد أمضى ٢٠ أو ١٥ عامًا خارج تركيا، فكيف يتم اتهامهم بالتورط في انقلاب حدث منذ ٣ سنوات!

-لم يتم فتح تحقيق واحد من قبل السلطات في الدول المضيفة لمحاسبة المسؤولين والمتورطين في عمليات الخطف، التي تعد جريمة ضد حقوق الإنسان يعاقب عليها القانون الدولي وفق إعلان

لقد تم فصل 100 دبلوماسي من العمل بتهمة الانتماء لحركة الخدمة عام 2019 ثم تم اعتقالهم وتعرضوا للتعذيب في مديرية أمن أنقرة على يد عناصر من جهاز الاستخبارات.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الأمم المتحدة الصادر في ديسمبر ١٩٩٢.

مما يؤكد تورط الأجهزة الأمنية والمخابراتية في الدول المضيفة مع نظيرتها التركية. نظرًا لكون الدول التي تم اختطاف مواطنين أتراك منها هي دول ذات أنظمة شمولية من وسط وشمال آسيا حديثة العهد بالديمقراطية، ولا تهتم كثيرا بمراعاة معايير حقوق الإنسان، ولذا فضلت تعزيز علاقاتها مع أنقرة على الالتزام بمواثيق الأمم المتحدة، مما يدل على ولاء هذه الدول لأنقرة وللرئيس "أردوغان" شخصيًا.

وثمة فئة أخرى من الدول التي سجلت حالات اختطاف وهي الدول التي ينتشر فيها معدلات الفساد وهذه هي الثغرة التي نجحت أجهزة المخابرات التركية من استغلالها عبر اختطاف مواطنين أتراك بالتعاون مع موظفين فاسدين في دولة ما دون علم السلطات المعنية بالأمر، وهذا ما حدث في دولة مولدوفا. التي أعلنت في سبتمبر ٢٠١٨ أن جهاز الاستخبارات التركي اختطف ٦ معلمين أتراك يعملون في مدرسة أورينت الخاصة (أنقرة تعتبر المدرسة من مؤسسات الخدمة) في دولة مولدوفا، وتم تسليمهم إلى السلطات التركية بشكل غير قانوني. ثم تم إصدار مذكرات اعتقال بحقهم. مما تسبب في أزمة سياسية داخلية أسفرت عن إقالة رئيس إدارة الهجرة واللجوء من منصبه ومنعه من مغادرة البلاد بمولدوفا.

-معظم المواطنين الذين تم خطفهم هم مدرسون وعاملون في المدارس التابعة لحركة الخدمة، وعمليات الاختطاف كانت بهدف سياسي وهو إغلاق هذه المدارس للقضاء علي الدور الثقافي الدولي للحركة، أو مصادرة هذه المؤسسات التعليمية من قبل الحكومة التركية وتحويل ملكيتها "لوقف المعارف" الذي أنشأه الرئيس التركي "رجب طيب أردوغان" لإدارة مدارس الخدمة بالخارج وفق مقررات دراسية جديدة تحمل أفكارًا ثقافية ودينية تدعم أهداف السياسة الخارجية "لأردوغان" التي تسعى لتصويره كزعيم للدول الإسلامية ووريث للدولة العثمانية التي كان يتبعها عشرات الدول الإسلامية بآسيا وأفريقيا، وهذه الأفكار تختلف كليًا عن نظيرتها التي كانت تدرسها الخدمة والتي كانت قائمة على نشر السلام واحترام الآخر والمساواة وعدم التفرقة العنصرية أو الطائفية وتدريس كافة العلوم الدينية والحديثة على حد سواء ولذا كان هناك قبول دولي عام لانتشار مدارس "الخدمة" في ١٦٠ دولة حول العالم.

-رغم وجود العديد من ردود الفعل الدولية المنددة بحالات الاختطاف التي قامت بها أنقرة بحق مواطنيها في الخارج، والتي تتباهى بها الاستخبارات التركية رغم مخالفتها الواضحة للقانون الدولي، حيث أكد المتحدث باسم الحكومة

التركية بكير بوزداغ، أن "منظمة الاستخبارات القومية تمكنت حتى الآن من إعادة ثمانين من أعضاء الخدمة من ١٨ بلدًا إلى تركيا في عمليات "نوعية". إلا أنه لم يتم اتخاذ أي موقف قانوني لمحاسبة الحكومة التركية على ما تفعله. فقد انتقدت مجموعة العمل الخاصة بالاعتقالات العشوائية التابعة للأمم المتحدة والبرلمان الأوروبي ومنظمة العفو الدولية، ومنظمات حقوق الإنسان الدولية الغير رسمية مثل (هيومن رايتس ووتش) الحكومة التركية وطالبتها بالإفراج الفوري وبدون أي شرط مسبق عن المعتقلين والمختطفين بدون سند قانوني.

ولذا ينبغي محاسبة الحكومة التركية وكافة المتورطين في حالات الاختطاف التي تم رصدها وتوثيقها وتلك التي مازالت سرية، وفق القرار (١٣٣/٤٧) للأمم المتحدة، الذي وقعت عليه الحكومة التركية، والذي ينص على ضرورة معاقبة كل من يرتكب جريمة الاختفاء القسري أو الاختطاف، أو يأمر أو يوصي بارتكابها أو يحاول ارتكابها، أو يكون متواطئا أو يشترك في ارتكابها سواء كان على علم بها أم لا وسواء كان رئيسًا أم مرؤوسًا. وهذه المادة حال تطبيقها فإنه سيتم معاقبة الرئيس التركي "رجب طيب أردوغان" نفسه لاطلاعه على حالات الاختطاف، وكذلك سيتم محاسبه وزراء الداخلية والخارجية ومدير عام الاستخبارات التركية منذ نهاية ٢٠١٦ وحتى اليوم.

nesemat.com نسمات nesemat.com

رغم وجود العديد من ردود الفعل الدولية المنددة بحالات الاختطاف التي قامت بها أنقرة بحق مواطنيها في الخارج، والتي تتباهى بها الاستخبارات التركية رغم مخالفتها الواضحة للقانون الدولي، لم يتم اتخاذ أي موقف قانوني لمحاسبة الحكومة التركية على ما تفعله.

خاتمة القول، لقد قدم تقرير نسمات التاسع "تركيا من ديمقراطية واعدة إلى دولة مافيوية" رصدًا وتوثيقًا سياسيًّا وقانونيًّا لحالات الاختطاف التي قامت بها الحكومة التركية بحق مواطنيها المقيمين خارج أراضيها، وهو أحد الأدوات التي تستخدمها الحكومة التركية لإرهاب المعارضين في الخارج والتي لم يتم توثيقها وإلقاء الضوء عليها، لأن معظم تلك الحالات تتم بسرية كاملة دون معرفة غير ذوى الحالات التي تتعرض للخطف والترحيل، وبناء عليه يجب على المؤسسات الدولية المعنية بحقوق الإنسان اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لمحاسبة الحكومة التركية وكافة المتورطين في عمليات الاختطاف لمخالفتها الصريحة لقواعد القانون الدولي. ■

المصادر

[١] معجم اللغة العربية المعاصر

[٢] نص إعلان اتفاقية الأمم المتحدة حول الاختفاء القسري،
https://www.ohchr.org/AR/HRBodies/CED/Pages/ConventionCED.aspx

تركيا محرقة الكتب ومقبرة دور النشر

نسمات
للدراسات الاجتماعية والحضارية

أعد التقرير

نسمات (nesemat.com) إصدارة ورقية بحثية متخصصة في الدراسات الاجتماعية والحضارية في إطار مجموعة من المحاور المتعلقة بمشاريع الإصلاح وقضايا التجديد وحوار الأديان والثقافات والحضارات وقيم نشر التسامح والعيش المشترك والسلام العالمي، ومشاريع التربية والتعليم والتنمية المستدامة، ونبذ العنف والتطرف والإرهاب.

تقرير "تركيا محرقة الكتب ومقبرة دور النشر"، هو التقرير الحادي عشر الذي يصدره مشروع نسمات للدراسات الاجتماعية والحضارية، والتقارير في مجملها ترصد القبضة الأمنية الحديدية التي يستعملها أردوغان لتصفية المعارضين، والإجراءات القمعية الصارخة التي تطال كل مَنْ تُسوّل له نفسه انتقاد الرئيس التركي أردوغان، وكيف أصبح انتهاك الحريات والقوانين والتعسف هو الواقع المرير الذي تشهده تركيا عقب محاولة الانقلاب الفاشلة ١٥ يوليو/ تموز ٢٠١٦.

تقرير "تركيا محرقة الكتب ومقبرة دور النشر" يرصد هذه المرة بالأرقام والإحصاءات الحرب التي يشنها أردوغان وحكومته على العقل التركي المعاصر وتراث تركيا الحضاري العتيق، حيث أكَّد التقرير أن الحكومة التركية أقدمت على التخلُّص من أعداد هائلة من الكتب والمنشورات والمطبوعات التي لها صلة بحركة "كولن". وعجَّت صناديق القمامة العامة، والغابات والشوارع في الأحياء بأطنان من الكتب التي ألَّفها فتح الله كولن أو نُسبت إليه، وقد بلغ القمع حدًّا جعل حيازة كتاب من تأليف "كولن" أمرًا كافيًا لإيداع حائزه في السجن.

لقد أصبح مسار الأحداث السياسية الراهنة موضوع دراسات لا حصر لها؛ لقياس انحراف تركيا الدائم نحو الاستبداد في كل جوانب ونواحي التصرفات السياسية، وطبقًا لوجهة النظر المشتركة التي تتبناها المنظمات الدولية ووسائل الإعلام، فإن تركيا لم تعد ديمقراطية كما كانت في السابق، فانهيار حكم القانون، وتداعي الركائز الرئيسية للديمقراطية بات واضحًا للغاية في أعقاب محاولة الانقلاب الفاشلة في عام ٢٠١٦.

ويعد موقف النظام التركي الحاكم من الثقافة والفنون أحد الموضوعات التي لم تحظ بالاهتمام، لا سيما قبل أن تطفو الثقافة والفنون على السطح، وتصبح مصدرًا رئيسًا للنقاش الحاد، والحرب السياسية بسبب انتقاد الحكومة للمؤسسات الفنية ذات التوجه الغربي، فقد فتح هذا النقاش الباب واسعًا لتقييم موقفها من الثقافة بشكل عام في ظل الاستبداد المتزايد لهذه الحكومة.

ومن ثم فإن هذا التقرير يسلط الضوء على جانب آخر سيء السمعة لعملية التطهير والقمع التي أعقبت الانقلاب، فالحكومة التركية لم تشن حربًا ثقافية جديدة لإعادة تشكيل للنظام السياسي فقط، بل استمرت أيضًا في شن حملة ممنهجة كاملة للقضاء على بعض المؤسسات التي تنتمي إلى المجموعات اليسارية والعلمانية والكردية المعارضة لها، بالإضافة إلى وصم الحكومة لحركة "كولن" الدينية بالإرهاب، فبات أي شخص أو أي شيء له علاقة بحركة كولن هدفًا للاضطهاد السياسي، والمساءلة القانونية، كما أضحت الخدمة نفسها هدفًا رئيسًا لعمليات القمع الذي أعقب الانقلاب، يدل على ذلك الأعداد الهائلة للمحاكمات، والسجن الجماعي للأفراد؛ ولم يكن الجانب الثقافي بمعزل عن هذه الإبادة القمعية الشاملة، فقد بدأت الحكومة -على غرار ما حدث في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين- تتخلص من أعداد هائلة من الكتب والمنشورات والمطبوعات التي لها صلة بحركة «كولن». وعجَّت صناديق القمامة العامة، والغابات، والشوارع في الأحياء بجبال من الكتب التي أُلفت أو نُسبت إلى "فتح الله كولن"، العالِم الإسلامي الذي يقيم بالولايات المتحدة الأمريكية منذ التسعينات، والذي تلقي الحكومة التركية عليه باللوم في الانقلاب الفاشل في ٢٠١٦، وبلغ القمع الثقافي حدًّا بلغ أن حيازة كتاب من تأليف "كولن" أمر كاف لإيداع حائزه في السجن.

وعلى الرغم من أن هذا الأمر ربما يبدو سخيفًا، فقد أدرك الناس هذا الاحتمال، ليس المتعاطفون مع "كولن" فحسب، بل الأكاديميون والباحثون الذين كانوا يدرسون الحركة وزعيمها، لذلك تخلصوا على الفور من هذه الكتب. ففي إحدى الحوادث المعروفة، تم سجن مؤرخ في جامعة "تونجيلي" بعد أن عثرت الشرطة على كتاب لكولن في مكتبه الجامعي[1]. ورغم أن هذا الأكاديمي

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن هذا التقرير يسلط الضوء على جانب آخر سيء السمعة لعملية التطهير والقمع التي أعقبت الانقلاب، فالحكومة التركية تشن حربًا ثقافية جديدة لإعادة تشكيل للنظام السياسي.

نفسه مناهض لكولن ومعلن لإلحاده، فقد وُجهت له اتهامات بالعضوية في حركة الخدمة، ومن المحتمل أن يعاقب بالسجن في حال اتهامه بذلك.

ورغم أن الهدف الرئيس كان "كولن" وحركته، إلا أنه لم تسلم أي مجموعة أو منظمة من حملة الحكومة على الإصدارات الثقافية والفكرية. حيث كانت جزءًا من سياسة أوسع لسحق أي شكل من أشكال النقد والتفكير الحر. ففي هذا الصدد، تأثرت جميع الأكاديميات والمدارس ودور النشر والمنافذ الإعلامية، تأثيرًا عميقًا بعمليات القمع التي حدثت بعد الانقلاب.

تتحدث الأرقام الهائلة عن نفسها، فقد تم إغلاق أكثر من ١٦٠ منفذًا إعلاميًا بينما تمت مصادرة أو إغلاق أكثر من ١١٥٠ في أعقاب انقلاب ٢٠١٦. وتهدف هذه الدراسة إلى التركيز على استهداف الحكومة الممنهج لمؤسسات الثقافة والكتب ومن ثم سيتم عرض روايات مؤكدة لأشخاص قاموا بحرق كتبهم أو تمزيقها إلى أجزاء خشية اكتشافها بواسطة جيرانهم أو من قبل السلطات. إن الصدمة التي عانى منها الناس ما تزال قائمة حتى الآن، وستُذكر الحرب على الكتب التي يشنها النظام التركي الحاكم حاليًا باعتبارها فصلاً مظلمًا في التاريخ المعاصر.

أولاً: إدراج الكتب في القوائم السوداء

في مغبة الأحداث الاجتماعية التي أعقبت الانقلاب، تحدث: (د.أ) الذي اشترط عدم ذكر اسمه في هذا التقرير، عن كيفية تخلصه من كتبه، حيث كان يعمل أمين مكتبة بإحدى الجامعات في أثناء فترة الانقلاب، وقد كان لديه مجموعة ضخمة من الكتب في المنزل، وكان من عشاق قراءة الكتب في جميع المجالات، حيث درس الأدب في الكلية وجمع كميات هائلة من الكتب في الأدب الغربي والقومي، والتاريخ، وعلم الاجتماع، والدراسات الدينية. شغلت كتبه مساحة كبيرة في منزله، فقد كانت أكثر من ٢٠٠٠ كتاب. إن (د.أ) الذي قرأ وشاهد فيلم (فهرنهايت٤٥١)، لم يكن يتخيل أنه في يوم من الأيام، سوف يضطر أن يتخلص من كتبه في تركيا، حيث كان على علم ودراية بعمليات حرق الكتب من قبل الأنظمة الاستبدادية في القرن العشرين، إلا أنه فوجئ بحجم القمع الذي أعقب انقلاب ٢٠١٦.

كان (د.أ) يحبس دموعه عندما بدأ يفرز كتبه ويصنفها من على أرفف مكتبته؛ لكي يتخلص من الكتب «المحظورة»، وكان أحد القُرّاء عن كولن وحركته، ورأى أنه ليس هناك مستقبل أو مغزى من إبقاء كتب كولن في منزله.

لقد انتابت العامة نوبة معادية لكولن، وستتحول الهستيريا الاجتماعية -في أي لحظة- إلى

عنف من قبل الحشود الشعبية التي تجمعت في الأحياء، وفي تلك الأجواء المرعبة، كان (د.أ)، يسابق الزمن ليتخلص من كتب كولن في أسرع وقت ممكن، وبقدر كبير من الحذر المطلوب. لقد كانت لحظة فارقة في التاريخ الاجتماعي للبلاد، حيث كان يَلوح في الأفق تهديد بمجزرة عظيمة محتملة ضد بعض عناصر المجتمع، معظمهم من أنصار كولن، وسط دعوات من الرئيس بمعاقبتهم.

قام (د.أ) بتمزيق الكتب إلى أجزاء، وجمع أغلفة الكتب، ووضعها في صندوق سيارته، حيث كان الظلام يخيم على الشارع الذي كان يعيش فيه، واختار منتصف الليل؛ ليتجنب الشك ولفت الانتباه من قبل الجيران الذين مازالوا يقظين ومنتبهين.

وكان (د.أ) يذهب في كل مرة إلى حيٍّ مختلف تمامًا لكي يقوم بتفريغ صندوق السيارة، وفي إحدى الليالي، انضم إلى الحشود التي كانت تملأ الشوارع كجزء مما يسمى بمسيرات «حراسة الديمقراطية» التي نظمتها الحكومة لدعمها، وكان يخفي نفسه على أنه أحد داعمي الحكومة ويتخلص من بعض العبوات، كلما كان ذلك ممكنًا. استمرت المظاهرات الشعبية حوالي شهر قبل أن يقوم الرئيس بإلغائها، حيث رأى أنه لم يعد هناك حاجة لإبقاء الجماهير الموالية متأهبة في الشوارع. إنَّ تَذَكُّر تلك اللحظات، يجعل (د.أ) يسترجع الألم والمعاناة التي تعرض لها سابقًا. فقصته ليست حالة فريدة، بل انتشرت قصص عديدة مماثلة عبر وسائل الإعلام التركية.

لم تسلم أي مجموعة أو منظمة من حملة الحكومة على الإصدارات الثقافية والفكرية. حيث كانت جزءًا من سياسة أوسع لسحق أي شكل من أشكال النقد والتفكير الحر.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

سمع (د.أ) قصصًا من أجداده حول الصعوبات التي عانوا منها في أثناء الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، عندما تعرضت المؤسسات والمنشورات الدينية لضغوط سياسية في العقود الأولى للجمهورية، حيث أدرجت بعض الكتب والمنشورات وأصحابها الذين أخفوها عن السلطات في القائمة السوداء. قام (د.أ) بعمل مقارنة بين القمع في ذلك العصر وسياسات اليوم نحو الكتب، وعلق قائلاً: «إذا كانت السلطات نفسها تقوم بتدميرها، فلن أكون آسفًا».

وأضاف متحسرًا: "ولكن، عندما فعلت كل ذلك بنفسي، حين تخلصت من الكتب وقطعتها إلى أجزاء، كان قلبي ينفطر حقًا"، وبعيدًا عن القصة السابقة، فهناك آلاف من الحالات الأخرى التي تثبت عمق سعي الحكومة لإدراج بعض الكتب في القائمة السوداء. وسوف يعرض هذا التقرير بيانًا مختصرًا لها من خلال بضعة أمثلة أخرى.

ثانيًا: اعتقال سيدة بسبب الكتب

اعتقلت الشرطة في أنطاليا سيدة بدعوى حرق كتب "كولن"، فبعد أن بدأت الشرطة في تعقب سيدة قام ضباط الشرطة بإلقاء القبض عليها، عندما

طبقًا لقائمة أعدتها الحكومة فقد تم إغلاق ٣ وكالات أنباء و١٦ قناة تلفزيونية و٢٣ محطة إذاعية و٤٥ صحيفة و١٥ مجلة و٢٩ دار نشر بدعوى علاقاتها بحركة «كولن».

nesemat.com نسيمات nesemat.com

كانت تحاول حرق بعض الكتب في مكان قريب من منزلها. كما اكتشفت الشرطة بعض الكتب التي تنتمي إلى حركة الخدمة واقتيدت السيدة إلى مركز للشرطة، وفتح المدعي العام في أنطاليا تحقيقًا للتحقيق فيما نسب إليها من اتهامات أبرزها نشر الإرهاب، والانتماء إلى منظمة إرهابية[٢].

ثالثًا: الكتب أداة للجريمة في ولاية يوزجا

في ولاية يوزجات بوسط تركيا، عثرت قوات الشرطة العسكرية (قوات الدرك) على ٥٦٠ كتابًا تنتمي لحركة «كولن» بالقرب من نافورة مياه[٣]، حدث هذا عندما استدعى الفلاحون قوات الدرك، حيث أجرت قوات الدرك بالمشاركة مع ضباط الشرطة تحقيقًا في مسرح الجريمة، وعثرت على عدد من الكتب في بضعة صناديق، يُعتقد أنها تخص بعض الأشخاص الذين لهم صلة بحركة الخدمة، وهكذا صارت الكتب أداة للجريمة يستدل بها للزج بأصحابها في السجن.

رابعًا: السلطات تعتقل المعلمين وتتحفظ على الكتب في "موجلا"

أما في محافظة "موجلا" الغربية، فقد استدعى سكان حي "أكوفا" في ولاية "مينتيس" قوات الدرك، بعد أن اكتشفوا دخانًا ولهبًا ينبعث من داخل مجموعة مدارس كانت تديرها منظمة غير حكومية لها علاقة بحركة الخدمة، حيث قبضت قوات الدرك على أربعة من مسئولي المدارس ومُعَلمين سابقين في أثناء إحراقهم بعض الوثائق في حديقة المدرسة٤، وكان من بين تلك المحروقات التي اكتشفتها الشرطة العسكرية كتب لـ"كولن"، وقد اعتقلت قوات الدرك أربعة أشخاص، اثنان منهم معلمان والآخران موظفان إداريان، وسوف يقدمون للمحاكمة بعد إجراء الفحص الطبي لهم. كما عثرت قوات الشرطة على صناديق مليئة بالكتب في إحدى الغابات، بناء على بلاغ مقدم إليها، وتم التحفظ على هذه الصناديق في قسم الشرطة إلى حين فحصها كما لو كانت شحنة من المخدرات.

خامسًا: الإبلاغ عن وجود كتب لكولن في شمال قبرص

اندلع حريق بسيط في موقع للقمامة في قرية "مهمتشيك" في "إيسكيل" في "جمهورية شمال قبرص التركية"، وعندما أبلغ عنه السكان المحليون، وصلت فرق الإطفاء والبلدية ليكتشفوا أن المحروقات هي مجموعة من كتب كولن، فأبلغوا العمدة "جميل ساريزميلي" بالحادثة، الذي اتصل بالشرطة، وقد عثر ضباط الشرطة على ١٥٠ كتابًا من كتب كولن، بعض منها أحرق بالكامل وبعضها أحرق جزئيًا، كما عثروا-أيضًا- على اثنين من الأقراص الصلبة، وفلاشة USB. ومن المرجح

أن يتم إرسال تلك الكتب المحروقة والمعدات التالفة إلى تركيا ليقوم الطبيب الشرعي بفحصها[٤].

وفي حادثة أخرى، اكتشفت السلطات مئات كتب "كولن" التي ألقيت في مياه سد "أتاتورك" في شرق الأناضول، وعندما أبلغ أحد القرويين قوات الدرك، بدأت السلطات في التحقيق للوصول إلى الفاعل الذي ألقى الكتب في السد[٥].

سادسًا: اعتقالات وتحقيقات لحيازة كتب كولن أو للإخفاق في التخلص منها

في حي "كمال باشا" أحد أحياء "بورصا"، اعتقلت الشرطة رجلاً يبلغ من العمر ٥٣ سنة؛ لمحاولته حرق عشرات من الكتب لها صلة بـ"كولن" في أرض فضاء في شهر أغسطس ٢٠١٦. كما ذكرت الصحافة التركية: أن أحد العمال المتعاقدين قرر التخلص من الكتب التي تهديها جريدة "زمان" لقرائها، لكن مسعاه فشل عندما اتصل أحد الجيران بالبلدية للإبلاغ عن وجود حريق في أرض فضاء، وعندما أدرك عمال البلدية أن الكتب المحروقة تنتمي إلى «كولن» قاموا بالاتصال بالشرطة[٦]، وبعد استجواب الشرطة لهذا الرجل واتهامه بالانتماء لحركة "كولن"، أطلقت سراحه حيث أكد أنه كان يحوز هذه الكتب لأنها كانت تصله مع الجريدة التي كان مشتركًا فيها ليس إلا.

وفي حادثة مماثلة في كلية الاجتماع في مدينة "ساندكلي"، بولاية "أفيون" الغربية، بعد فترة وجيزة من الانقلاب، وجهت إحدى الصحف المحلية، القريبة من الحكومة، اتهامات لرئيس الكلية،

نسيمات nesemat.com

إن وزارة التعليم التركية أرسلت تعليمات إلى جميع المدارس، توضح الحظر الذي فرضته على ٢٩ دار نشر و ١٥ مجلة و ٤٥ صحيفة، كما أمرت بإزالة جميع الكتب التي نشرتها دور النشر الموالية لحركة «كولن» من المكتبات المدرسية وإرسالها لإعادة فحصها.

لإخفاقه في التخلص من الكتب التي تنتمي لـ"كولن" من مكتبة الكلية قبل وقوع الانقلاب. وعلى إثر هذه الاتهامات سارعت إدارة الكلية في التخلص من هذه الكتب، وفتحت تحقيقات في هذا الأمر[٧].

هذه نماذج فقط من بعض الحالات، حيث يوجد مئات من حالات أخرى صودرت فيها كتب الفكر تلك في عديد من مدن وبلدات تركيا. فقد بلغ خوف المواطنين من التعرض للاعتقال أو الأذى بسبب هذه الكتب حدًّا جعل المواطنين في ولاية سرت إحدى المقاطعات الشرقية يسارعون في إلقاء مئات الكتب في موقع ضخم للقمامة، تُكَبُّ فيه نفايات المدينة كلها، وبعد أن اكتشف العمال الكتب -كما كان الحال في العديد من الحالات الأخرى-، أبلغوا الشرطة التي بدأت تحقيقًا في الحادثة بعد ذلك[٨].

سابعًا: قمع نظام أردوغان لحرية الإعلام والنشر

وبعيدًا عن الكتب، فقد اتخذ قمع الحكومة أشكالاً مختلفة منذ الانقلاب الفاشل، فقد كان قمع وسائل الإعلام، سواء أكانت موالية، أو معادية لحركة "كولن"، أمرًا ذائعًا، فقد تم إغلاق ما يقرب من ١٨٠ منفذًا إعلاميًا مع أول بيان طوارئ أعلنته الحكومة

بعد خمسة أيام من محاولة الانقلاب في ٢٠ يوليو ٢٠١٦، وهو اليوم الذي أعلنت فيه السلطات حالة الطوارئ لمدة ثلاثة أشهر، والذي استمر -في الواقع- لمدة عامين. إلا أنه قد تم إعادة فتح ٢٠ منفذًا إعلاميًا بعد ذلك، وقد كانت المبررات الرسمية التي قدمتها الحكومة لتلك الإغلاقات: هو الانتماء لجماعة "كولن"، وهذا الأمر لم يتوقف أمامه كثير من النقاد بشيء من الفحص والتمحيص، وطبقًا لقائمة أعدتها الحكومة فقد تم إغلاق ٣ وكالات أنباء و١٦ قناة تلفزيونية و٢٣ محطة إذاعية و٤٥ صحيفة و١٥ مجلة و٢٩ دار نشر بدعوى علاقاتها بحركة "كولن"[٩].

وبناءً على حكم قضائي مشين، قامت الحكومة بإقالة عشرات الآلاف من موظفي القطاع العام، بزعم صلتهم بحركة "كولن"، كما تضمن قرار سبتمبر ٢٠١٦ أيضًا بندًا لم يحظ بالاهتمام، حيث تم حظر كتب قام الناشرون بنشرها؛ لوجود نوع من العلاقات مع حركة "كولن"، وقد أزيلت بالفعل تلك الكتب التي كانت على أرفف المكتبات العامة والجامعية.

وفي تقرير نشرته صحيفة صباح اليومية المؤيدة للحكومة[١٠]: أنه تم اكتشاف ١٣٥,٠٠٠ كتاب من حوالي ما يقرب من ٢ مليون كتاب في ١,١٣٠ مكتبة عامة لها صلة مع دور نشر تابعة لـ"كولن"، وتمت إزالتها من تلك المكتبات في جميع أنحاء البلاد.

وأضاف التقرير نفسه أنه سيتم حرق ٣٠,٠٠٠ كتاب، من تأليف "كولن"، بينما سيتم إرسال ١٠٠,٠٠٠ كتاب آخر لإعادة تدويرها واستخدامها في صناعة الورق، بالإضافة إلى ذلك، قامت وزارة التعليم بإزالة كتب دراسية من المناهج الدراسية، نشرت بواسطة ناشرين يعتقد صلتهم بـ"كولن"[١١]، وطبقًا لتقرير نشرته جريدة "جازت دورو"، على بوابة الأخبار الإلكترونية، أن وزارة التعليم أرسلت تعليمات إلى جميع مدارس تركيا، توضح الحظر الذي فرضته على ٢٩ دار نشر و ١٥ مجلة و ٤٥ صحيفة، كما أمرت الوزارة مديري المدارس بإزالة جميع الكتب التي نشرتها دور النشر الموالية لحركة «كولن» من المكتبات المدرسية وإرسالها لإعادة فحصها.

وأشارت التعليمات: "أنه يجب فرز جميع المواد المطبوعة والتكنولوجية التي تتعلق بـ «فتح الله كولن»، كما يجب التخلص منها وإعدامها وفقًا لأحكام تتعلق بلائحة وزارة التعليم بشأن المكتبات المدرسية، والسلع المتنقلة"[12].

بعد فترة وجيزة من انقلاب عام ٢٠١٦، أصدرت محكمة في حي "باكير كوي" بإسطنبول حظرًا على ٦٧٢ كتابًا من تأليف أو تحرير "فتح الله كولن"، استندت السلطات في حظرها على حكم المحكمة هذا، الذي منع نشر أو تداول تلك الكتب على أي منصة أو مكتبة.

أصدرت جمعية الناشرين الأتراك تقريرًا بعنوان: "تقرير حرية النشر"، يعرض تقريرًا مختصرًا يوضح أن السلطات قامت بتوسيع مجال الحظر على الناشرين ودور النشر، علاوة على الناشرين المنتمين لحركة "كولن"، كذلك تم حظر جريدة "افرينسيل" ذات الاتجاه اليساري[١٣].

يحتوي التقرير على قرارات مشينة ونماذج من

المعاملة المهينة للأمين لحيازتهم كتب تم إدراجها في القائمة السوداء، كما يتضمن-أيضًا- حملة بعيدة المدى على مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي. ووفقًا للتقرير فقد تم سجن ٦٥٦١ مواطنًا وحبسهم على ذمة التحقيق بسبب تغريداتهم على تويتر، كما أشار التقرير: أن تركيا كانت الدولة رقم واحد في سجن الأشخاص بسبب تغريداتهم على تويتر، كما أجبرت العديد على إغلاق حساباتهم على تويتر، وقامت تركيا بحجب الدخول على حسابات تويتر أكثر من أي دولة أخرى في العالم.

وبشكل منفصل، حظرت تركيا أيضًا الدخول على ويكيبيديا، وهي موسوعة إلكترونية عالمية ضخمة، يقوم بتحريرها متطوعون من جميع أنحاء العالم.

وكشف التقرير أن السلطات حظرت نشر، تداول بعض الكتب، لكن لم يتم إبلاغ الناشرين مسبقًا بهذه القرارات، كما صادرت السلطات حوالي ١٦٠ كتابا نشرته مطبعة "إكين"، بينما تم مصادرة ٢,٢٠٠ كتاب من دار "بيلج" للنشر بحجة عدم صحة الأختام.

كجزء من الحملة، قررت السلطات سحب ٧٢ كتابًا من مجلة "آرام برس"، وكتابًا من "تاكين برس"، وكتابًا من تأليف "كميزي كادي" (القطة الحمراء)، حيث يعرض في المكتبات.

تحركت قوات تنفيذ الأحكام لمنع توزيع العدد الخاص لمجلة "ليمان" للرسوم الكارتونية، قبل توزيعه، ومصادرة المواد الموجودة، وعندما قامت "ليمان" بنشر عددها الصادر على وسائل التواصل الاجتماعي، أثار صخبًا اجتماعيًا أشعل

لقد صادرت السلطات حوالي ١٦٠ كتابا نشرته مطبعة «إكين»، بينما تم مصادرة ٢,٢٠٠ كتاب من دار «بيلج» للنشر بحجة عدم صحة الأختام، كما قررت السلطات سحب ٧٢ كتابًا من دار نشر «آرام برس».

nesemat.com نسيمات nesemat.com

سلسلة من ردود الأفعال من مؤيدي الحكومة. هذا وقد تجمع مئات الأشخاص أمام مقر مجلة "ليمان"، وهددوا باقتحامه[١٤]. ووفقا لموظفيها، كان هناك مكالمات هاتفية تهديدية استمرت لعدة أيام، كما أصدرت محكمة السلام المدنية الرابعة بإسطنبول قرارًا بحظر توزيع العدد الخاص.

وبطرق أخرى، فقد استهدف القمع -أيضًا- الكُتاب والصحفيين وأعضاء آخرين في هيئة الصحافة وصناعة النشر، هذا وقد واجه "زولفو ليفانيلي"، الروائي الشهير، حظرًا مماثلاً، حيث لم تسمح السلطات بعرض إعلانات روايته الأخيرة "اضطراب" على المترو ومحطات المترو والأماكن العامة الأخرى، متعللة بفرض حالة الطوارئ[١٥].

كما تم اعتقال حليم ورمضان أقطاج، وهما مزارعان من ولاية "إزمير" الغربية بسبب حيازتهما لكتب ومجلات مدرجة في القائمة السوداء، وقد أكد التقرير أن الرجلين كانا -في الواقع- أمينين، ومع ذلك، فإن هذا لم يعفهما من المساءلة القانونية. وبعد ١٥ يومًا من الاحتجاز، أُطلق سراحهم.

قامت مطبعة "تيكن" بنشر كتاب نقدي لـ"حميد عيد" والذي أصبح هدفًا للمساءلة القانونية[16]، كان

موضوع الكتاب: عن قيام تنظيم الدولة الإسلامية، و١٧ مسئولاً، بالإضافة إلى بعض المنظمات غير الحكومية، بدعم الجماعة المسلحة، وقد أثار هذا الكتاب ردود فعل قوية من قبل مؤسسة حقوق الإنسان والحريات والإغاثة الإنسانية (IHH)، الموالية للحكومة، ومقرها إسطنبول، حيث قاضتْ (IHH) مطبعةَ "تاكن" بسبب مزاعم تكذيب وتشويه صورة مؤسسة حقوق الإنسان والحريات والإغاثة الإنسانية.

لم تقتصر السياسات المثيرة للجدل على الحالات السابقة، فقد فتحت دعوى قضائية ضد "نيفين إردمير" الرئيس السابق لجمعية الصحفيين الأحرار، والكاتب الفرنسي الشهير "ألبير كامو" والفيلسوف "سبينوزا" من القرن السابع عشر حيث تم تحديدهم كمشتبه بهم، كما تم إضافتهم إلى القائمة بوصفهم "أعضاء منظمة". وفي دعوى قضائية أخرى بخصوص احتجاجات "جيزي" في "أنقرة"، تم عرض كتب عديدة كتبها "سيرفت تانيلي"، و"ناظم حكمت" و"لويس ألتوسر"، وكلهم متوفون، على أنهم عناصر إجرامية، وفي حادثة أخرى، أصبح عنوان موضوع رسالة دكتوراه "لعارف كوثر" عن نظرية الشمولية لـ "أنطونيو نيجري" محل تحقيق جنائي.

بالإضافة إلى الحظر المفروض، والتحقيقات القانونية السابقة، كانت هناك اعتداءات جسدية ضد الناشرين ومحلات بيع الكتب في مدن عدة في تركيا، حيث تعرض بعض الناشرين لمحاولات إحراق متعمدة، بينما تعرضت بعض المكتبات لهجوم من قبل مؤيدي الحكومة، حيث قام بعض المهاجمين المجهولين بمحاولة إحراق متعمد في مستودع مطبعة "أفاستا" في منطقة صور في ديار بكر. كما حاول مئات الأشخاص نهب وتخريب مكتبات (NT) المملوكة لأفراد متعاطفين مع حركة الخدمة في جميع أنحاء تركيا بعد انقلاب عام ٢٠١٦. فقد تم تدمير عديد من مكتبات (NT) وحرقها، كما تم استهداف دار نشر "ريد كات برس" هي الأخرى. وفي تطور يبعث على الإحباط والكآبة، أطلقت المحكمة سراح المشتبه فيهم المسجونين الذين يحاكمون بتهمة مهاجمة وحرق مكتبة "كول" سنة ٢٠١٥ في ولاية كيرسيهر بوسط البلاد، حيث لا يوجد أحد منهم خلف القضبان في هذه القضية.

وفي خطوة أخرى مقلقة، أثارت الحكومة جدلاً متجددًا بسبب نشر "رسائل النور" للأستاذ سعيد النورسي المتوفى عام ١٩٦٠ (وهي مجموعة أعمال مشهورة للأستاذ سعيد النورسي، الذي تمت محاكمته بسبب آرائه الدينية، ومعارضته للمخططات المتطرفة للنظام الجمهوري السابق، وقد قضى سعيد النورسي عقودًا في السجن، لكن هذا لم يمنع من انتشار آرائه بين تلاميذه في جميع أنحاء البلاد. وقد قامت الحكومات المتعاقبة في أنقرة بحظر كتبه، مما اضطر طلاب النورسي إلى نشرها وتداولها سرًا.

ورغم كل المساعي لحظر هذه الكتب فشلت السلطات في القضاء على آراء النورسي

كما فشلت في منع كتبه من التداول. وبعد أن سُمح بنشر كتبه وتداولها علنًا بين الناس -ولو على نطاق محدود- عاد الجدل حول نشر رسائل النور مرة أخرى إلى الواجهة وذلك بعدما أعلن أردوغان عن احتكار حزبه لنشر هذه الكتب[١٧].

وأمر بحظر دور معينة كانت تهتم بنشر هذه الرسائل وسحَبَ ترخيصها، ومنحَ الإذن بنشرها لناشرين تابعين للدولة. وقد أثار هذا القرار رد فعل من مؤيدي سعيد النورسي، مما جعل زعيم حزب المعارضة الرئيسي، حزب الشعب الجمهوري، كمال كلشدار أوغلو، يدخل على الخط في معركة سياسية ضد هذا القرار، حيث أصدر توبيخًا حادًا ضد سياسات الحكومة التقييدية. وأبدى دعمه لجماعة النورسي، في تحول كبير لموقفهم من هذه الرسائل حيث كان مؤسسو حزب الشعب الجمهوري هم أبرز من تصدوا للنورسي ورسائله بقوة وشراسة في العقود الأولى للجمهورية.

ويرى بعض المحللين والخبراء أن هذا التحول الحالي في موقف حزب الشعب الجمهوري يعد خطوة تصالحية لرأب الصدع الذي أصاب صورة النورسي بين شرائح المجتمع العلمانية. فقد أعلن رئيس حزب الشعب الجمهوري بفخر قبل أسبوعين من الانقلاب، أن حزبه هو الذي قاوم الحظر الأخير الذي فرضه الحزب الحاكم على إعادة نشر رسائل النور[18]. كما استمر النقاش دائرًا بسبب الحظر الدائم الذي تفرضه الحكومة.

لقد حظرت تركيا أيضًا الدخول على ويكيبيديا، وهي موسوعة إلكترونية عالمية ضخمة، يقوم بتحريرها متطوعون من جميع أنحاء العالم.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

ثامنًا: قيود جديدة على إدخال الكتب إلى السجناء

وفقًا لتقرير جمعية الناشرين الأتراك، فقد فُرضت قيود إضافية على أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ سجين داخل السجون التركية. حيث يقبع في سجون أردوغان الآن أكثر من ٥٠,٠٠٠ شخص، منهم جنرالات ودبلوماسيون وقضاة ومدعون عموميون ومدرسون ومدنيون عاديون من جميع الطوائف، بسبب تهم تتعلق بالانقلاب، والإرهاب في أعقاب الانقلاب.

كانت أوضاع السجن مصدر قلق عظيم لمنظمات حقوق الإنسان والأمم المتحدة. وكان أحد تلك القيود التي يواجهها السجناء هو دخول الكتب. حيث وضعت السلطات قيودًا على عدد الكتب التي يمكن للسجين حيازتها. حيث يمكن للسجين حيازة ١٥ كتابًا على الأكثر، وقد تم تطبيق هذا الإجراء في جميع سجون تركيا بعد الانقلاب. وفي بعض الأحيان، قد يستغرق الأمر شهرين قبل استبدال الكتب التي تمت قراءتها.

كانت الكتب التي تنتمي لكولن محظورة، وقد قامت بعض إدارات السجون بمبادرة منها، بحظر دخول تلك الكتب. كما لم تسمح السجون أيضًا بالمنح الخارجية للكتب، وحذرت أفراد الأسرة أو

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إن هذه الحملة أسفرت عن حرق ٣٠,٠٠٠ كتاب، من تأليف «كولن»، بينما تم إرسال ١٠,٠٠٠ كتاب آخر لإعادة تدويرها واستخدامها في صناعة الورق،

الأقارب من محاولات إرسال الكتب إلى ذويهم.

وفي أنطاليا، منعت إدارة السجن أحد المحامين من توصيل كتب مرسلة من أقارب خارج السجن. وقد استندت إدارة السجن في قرارها إلى حكم قضائي سابق صادر عن الحكومة، يقضي بأن الذين يحاكمون بتهم الإرهاب يحق لهم إدخال الكتب المدرسية فقط.

تاسعًا: حرب الحكومة على الفن وتشويه الآثار

هناك إشكالية في علاقة حزب العدالة والتنمية الحاكم بالفن، منذ تولي الحزب السلطة لأول مرة في عام ٢٠٠٢. فإذا كان الحزب قد حقق بعض النجاحات في عدد من المجالات لبعض الوقت مثل الاقتصاد والشئون الداخلية، فقد فشلت حكومة حزب العدالة والتنمية في سياساتها المتعلقة بالثقافة والفن. حيث يرجع كثير من المعلقين والخبراء من مختلف الطوائف الفكرية هذه الحالة المخزية للفن في تركيا إلى نظرة حزب العدالة والتنمية إلى الفن نفسه[١٩]. فحزب العدالة والتنمية، كما ورد في موقع بيانت (Bianet)[٢٠]، ليس لديه معنى محدد وشامل للفن من منظور أوسع، ومن ثم واجه حزب العدالة والتنمية دائمًا مشاكل في الفن، بسبب عقلية أفراده التي تتخذ موقفًا سلبيا من هذا الفن، فهو يتعامل معها بمنطق أن هذه ساحة خصومه من العلمانيين واليساريين، ومن ثم فكثيرًا ما يتورط حزب العدالة والتنمية في حروب ثقافية مع خصومه من العلمانيين اليساريين[٢١]. فقد استولى بشكل منهجي على المسرح وهيئات فنية غربية أخرى، وحاول نفي فنانين يعملون في مثل هذه الهيئات. ومنذ احتجاجات جيزي بارك، قطعت الحكومة التمويل عن عدد من المسارح ودور الأوبرا، وتراوغ في تجديد العقود السنوية للعازفين والمنتجين.

ويعرض موقع بيانت تحليلاً لهذه الرؤية من زاوية أخرى، حيث يوثق كيفية أداء حزب العدالة والتنمية في مشاريع الترميم الكبرى. فوفقًا لوجهة النظر المشتركة بين الأكاديميين والمراقبين، فإن سجل الحكومة في ترميم المعالم التاريخية مثل المساجد والمتاحف والكنائس والمعالم الأثرية الأخرى سيء للغاية.

يرجع جزء من هذه الصورة الكئيبة-حسب موقع بيانت- إلى البحث عن الربح والدوافع التجارية. حيث يمنح نظام المحسوبية للشركات المرضي عنها مشروعات الترميم دون النظر إلى الفنيات، وأحيانًا التكلفة، ومتطلبات العمل. ويُعد دِير سوميلا في ولاية طرابزون المطلة على البحر الأسود أحد الأمثلة الرئيسية، فقد كانوا يظهرون القليل من الالتزام في الحفاظ على الهيكل الأصلي للمبنى. كما عانت أماكن أخرى في إسطنبول مثل قلعة "روميلي" المطلة على مضيق البوسفور من

الاهتمام السطحي بمشروع الترميم.

إن ما تظهره كل هذه الحالات هو أسلوب أوسع متأصل في النظرة المشوهة والموجهة أيديولوجيا لحزب العدالة والتنمية تجاه الفن والثقافة.

إن إخفاقات حزب العدالة والتنمية في المشاريع الكبرى وعدم اهتمامه تتجاوز العداء الأيديولوجي تجاه المؤسسة العلمانية السابقة، إذ لا يمكن تفسير إزالة المواقع المعمارية الكبرى والمسارح فقط بذلك، فالصورة الكئيبة تتمثل في عدم الكفاءة الهيكلية والتعامل السطحي مع المعالم التاريخية الأثرية أكثر من كونها مجرد عداء أيديولوجي تجاه الفن. فحكومة حزب العدالة والتنمية ليس لديها اهتمام في إسناد المشاريع للخبراء. ومن ثم فإن تنفيذ هذه السياسة المخزية يزيد من مخاوف المنتقدين حول مزيد من الضرر تجاه المواقع التاريخية.

وفي بيان مفصل آخر، وثقت "بيانت" كيف أن بعض مشاريع الترميم قد فشلت[٢٢]. فقد خضعت قلعة عمرها ٢,٠٠٠ عام في حي "شيلا" بإسطنبول للترميم. ولكن ما ظهر بعد ذلك، كان أبعد من أن يصدق، حيث أشرف المهندسون المعماريون ومديرو المشروع على المهمة الشاقة إلا أنهم بكل بساطة لم يهتموا بالشكل الأصلي للقلعة.

أثار الاختلاف الجوهري بين النسخة القديمة والنسخة الحديثة جدلاً جديدًا، حيث أصبح مصدرًا للسخرية على وسائل التواصل الاجتماعي مع تزايد ازدراء الناس حول التعامل المشين لمشروع الترميم.

عانى مسجد (كنيسة سابقا) في "إزنك، من العصر العثماني من كارثة أخرى، حيث كان المسجد يستخدم كمتحف حتى عام ٢٠١١، وبعد ذلك التاريخ، فتحته السلطات للصلاة، لكنهم قاموا بتثبيت باب زجاجي على البناء القديم للمسجد، مما أثار انتقادات واسعة[23].

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل لقد عانى كلٌّ من مسجد "مسنيحان"، و"عتيق فاليد كولي" (مجمع تعليمي من العصر العثماني، به مستوصف طبي)، ومسجد "سهيل بك"، الذي بناه المعماري الشهير "سنان"، وقلعة "أورفا"، وقصر "إسحاق باشا" في ولاية "فان الشرقية"، وبعض القطع والهياكل الأثرية الرومانية القديمة من المعالجة السيئة لمشاريع التجديد.

الخاتمة

تكشف الأحداث المثيرة لاضطهاد أشخاص بسبب حيازة أنواع معينة من الكتب، عمق المأساة التي حدثت في تركيا، عندما تخلص آلاف الأشخاص في عجلة من أمرهم، من أعدد لا حصر لها من الكتب خوفًا من المسائلة القانونية بسبب حيازتهم بعض الكتب المدرجة في القائمة السوداء للكتب. كان هذا التصرف قديمًا تمامًا مثل الجمهورية نفسها.

على مدار فترات مختلفة، تم حظر السلطات لبعض الكتب، حيث كانت الرقابة صفة مميزة للنظام الجمهوري الجديد، كما أن قانون الصحافة تم تعديله بدقة، حيث منح صلاحيات واسعة

إن تركيا الدولة رقم واحد في سجن الأشخاص بسبب تغريداتهم على تويت، فوفقًا للتقرير فقد تم سجن ١٦٥٦ مواطنًا وحبسهم على ذمة التحقيق بسبب تغريداتهم على تويتر.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

للسلطات لتحكم قبضتها على وسائل الإعلام ودور النشر. ومن ثم أصبحت المعارضة للنظام الجديد مستحيلة. حيث لم يُسمح للمنافذ الإعلامية المعارضة أن تتعامل مع قضايا الأمن القومي الأساسية.

إن تاريخ حرية التعبير مليء بنماذج سحق الحريات، وتكميم المعارضة، وإخماد التفكير النقدي والمعارضة. وقد كان قانون الإعلام لعام ١٩٣١ دليلاً على وجود نظام استبدادي.

ما حدث بعد ذلك كان حلقة سيئة السمعة من النكسات فيما يتعلق بالتاريخ الطويل للكفاح من أجل توسيع نطاق حرية التعبير وحرية الصحافة. لقد عاشت تركيا أثناء عصر التعددية الحزبية، ولفترة ووجيزة، نوع من حرية وسائل الإعلام، وذلك قبل أن تنهار حكومة الحزب الواحد ليغرق الحزب الديمقراطي في النهاية في الفساد والانحلال في أيامه الأخيرة.

وخلال سبعينيات القرن العشرين، قامت هيئة تطبيق القانون والسلطات التركية بالبحث عن الكتب اليسارية للحد من انتشار الشيوعية في أنحاء تركيا. فقد شكلت عقلية الحرب الباردة تفكير القادة الأتراك عندما واجهت تركيا تهديدًا وجوديًا ووعيدًا من جانب الاتحاد السوفيتي عبر حدودها الشمالية الشرقية والبحر الأسود. فقد كان التعبير عن الأفكار اليسارية والمد الاشتراكي المنتشر في الجامعات بمثابة تحديات تهدد أنقرة. لقد شوهدت الكتب الدينية في هذا السياق لفترة زمنية أطول على مدار تاريخ الجمهورية. ومع ذلك، فإن الانتقال إلى الديمقراطية والانتخابات الشعبية بعد التدخلات العسكرية جلب بعض الارتياح ورفع الحظر.

اليوم، تم فرض حالة جديدة من الحظر الشديد، خنقت عالم النشر عن طريق القمع والاضطهاد الأبدي. إن حرق الكتب التي ألفها "كولن"[٢٤]، واعتقال مئات الأشخاص بسبب حيازتهم لتلك الكتب، وتجديد الحظر على المجلات والصحف الكردية، ومداهمات الشرطة ضد الناشرين اليساريين، تمثل حقبة مظلمة جديدة للمشهد الثقافي والأدبي في تركيا. ■

المراجع

(١) Ateist' Doç. Dr. Candan Badem, Odasında Gülen'in Kitabı Bulununca Gözaltına Alındı, Haberler.com, Aug. 3, 2016, 1 (Access to website: Feb. 18, 2019) https://www.haberler.com/ateist-doc-dr-candan-badem-odasinda-gulen-in-8671206-haberi/

(٢) Kitap yakmak isteyen ev hanımını gözaltına aldılar…., Samanyolu Haber June 8, 2018. 2 http://www.shaber3.com/kitap-yakmak-isteyen-ev-hanimini-gozaltina-aldilar-haberi/1307344/

(٣) Gülen'in kitaplarından kurtulmak isteyen isteyene, Hurriyet, July 20, 2016. 3 http://www.hurriyet.com.tr/gundem/gulenin-kitaplarindan-kurtulmak-

isteyen-isteyene-40156153

(٤) Yakılan Feto kitapları Türkiye'ye gönderiliyor, Kaynak: Yakılan Feto kitapları Türkiye'ye gönderiliyor, Detay Kibris, 5 07.20.2016, http://www.detaykibris.com/yakilan-feto-kitaplari-turkiyeye-gonderiliyor-128262h.htm

(٥) Atatürk Barajı'na atılmış FETÖ kitapları bulundu, mynethaber, Aug. 15, 2016. 6 https://www.mynet.com/ataturk-barajina-atilmis-feto-kitaplari-bulundu-110102588358

(٦) FETO Kitaplarini Yakarken Yakalandi, Yildirim, August 23, 2016. 7 http://www.yildirimgazetesi.com/gundem/feto-kitaplarini-yakarken-yakalandi-h31925.html

(٧) Yakilan FETO Kitaplari, Afyon Zafer Net, November 7, 2016. 8 https://www.afyonzafer.net/afyonkarahisar/yakilan-feto-kitaplari-h33545.html

(٨) Siirt'te FETÖ'nün kitapları çöpten çıktı, Haberiniz.com, August 9, 2016. 9 http://www.haberiniz.com.tr/teror-adliye/siirt-te-feto-nun-kitaplari-copten-cikti-324475h.html

(٩) Kapatılan FETÖ yayınları - Tam liste! Star, November 15, 2016. 10 https://www.star.com.tr/egitim/kapatilan-feto-yayinlari--tam-liste-haber-1141040/

(١٠) FETÖ elebaşısının kitapları toplatıldı, Sabah, September 1, 2016. 11 https://www.sabah.com.tr/gundem/201601/09//feto-elebasisinin-kitaplari-toplatildi

(١١) MEB 29 yayınevine ait tüm kitapları yasakladı, Gazete Duvar, August 14, 2016. 12 https://www.gazeteduvar.com.tr/gundem/201614/08//meb-29-yayinevine-ait-tum-kitaplari-yasakladi/

(١٢) Ibid. Gazete Duvar, August 14, 2016. 13 https://www.gazeteduvar.com.tr/gundem/201614/08//meb-29-yayinevine-ait-tum-kitaplari-yasakladi/

(١٣) KHK'lar ile 30 Yayınevi Kapatıldı, Bianet, June 6, 2017. 14 https://m.bianet.org/bianet/medya/187174-khk-lar-ile-30-yayinevi-kapatildi

(١٤) Turkish Publishers Association Report 15 http://turkyaybir.org.tr/wp-content/files_mf/1495522936dusunceifaderapor_web.pdf

(١٥) Ibid, Bianet. https://m.bianet.org/bianet/medya/187174-khk-lar-ile-30-yayinevi-kapatildi

(١٦) Tekin Yayinevi, September 6, 2018. 17 https://twitter.com/TekinYayinevi/status/1037621641424134145

(١٧) Risale-i Nur nasıl yasaklanıyor, Gazete2023, July 31, 2014. 18 http://www.gazete2023.com/dusunce-analiz/risalei-nur-nasil-yasaklaniyor-h19135.html

(١٨) AKP, Said-i Nursi'nin kitaplarını yasakladı, o yasağa biz direndik," Yeni Asya, July 3, 2016. 19 http://www.yeniasya.com.tr/politika/akp-said-i-nursi-nin-kitaplarini-yasakladi-o-yasaga-biz-direndik_402469

(١٩) AKP'nin Sanata DüŞmanlığı, Huseyin Sengul, Bianet, October 1, 2015. 20 http s://m.bianet.org/bianet/siyaset/167946-akp-nin-sanata-dusmanligi

(٢٠) موقع تركي مهتم بحقوق الإنسان وحرية الصحافة ويبث بثلاث لغات وهي التركية والكردية والإنجليزية

(٢١) Can Bahadir Yuce, Mozart ve İslamcılık, Kronos News, January 13, 2019. 21 https://kronos17.news/tr/mozart-ve-islamcilik/

(٢٢) Tartışmalı 10 Restorasyon, Bianet, August 29, 2015, 22 http://bianet.org/biamag/sanat/167174-tartismali-10-restorasyon

(٢٣) Ibid, Bianet, August 29, 2015

(٢٤) Related Twitter news about burnings, raids, probes over Gulen-affiliated books. 24 https://twitter.com/search?f=tweets&q=Fet%C3%B620%Kitaplar%C4%B120%yak%C4%B1ld%C4%B1&src=typd

نسمات

دراسات حول مشروع الخدمة

إصدارة علمية بحثية متخصصة

تصدر عن دار الانبعاث للطباعة والنشر والتوزيع

www.nesemat.com

Copyright©2019 Dar al-Inbiath

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

رئيس التحرير
صابر المشرفي

مدير التحرير
د. أبو زيد عبد الرحيم

اللجنة الاستشارية العلمية
د. محمد جكيب
د. عبد المجيد بوشبكة
د. محمد إقبال عروي
د. سعيد بويزري
د. محمد باباعمي
د. هدى درويش
د. سليمان الدقور
د. باسم عيتاني
د. جمال السفرتي
د. فؤاد البنا
د. عبد الله الدعجاني

تصميم فني
صالح إبراهيم القاضي

غلاف
ياووز يلماز

البريد الإلكتروني
nesemat@yahoo.com

التوزيع
دار الانبعاث للطباعة والنشر والتوزيع، مصر
Mobile: 002 01000780841
002 01067251063
العنوان: 22ج جنوب الأكاديمية، شارع التسعين الشمالي، القاهرة الجديدة

الترقيم الدولي
978-977-6704-02-2

رقم الإيداع
2019/22564

رقم النشر
013

القاهرة - مصر

نسمات

إصدارة علمية بحثية متخصصة

نسمات إصدارة علمية بحثية متخصصة في دراسة مشروع الخدمة والرؤية الإصلاحية للأستاذ فتح الله كولن في أبعادها الفكرية وتجلياتها التطبيقية. وهي تندرج في إطار الأعمال البحثية الميدانية المتخصصة في ظاهرة اجتماعية ما، تسلط الضوء عليها، وتسبر أغوارها بعمق، وتكشف عن حيثياتها ومآلاتها، وتعقد صلتها بخبرة الماضي، وتدرس فاعليتها في الحاضر، وتستشرف امتدادها في المستقبل، لتخرج بنتائج علمية تشكل إضافة نوعية إلى المعرفة الإنسانية والخبرة البشرية.

يهدف مشروع نسمات إلى سبر أغوار نموذج الخدمة والرؤية الحضارية للأستاذ فتح الله كولن ودراستها من زوايا شتى، سواء من الناحية النظرية الفكرية، أو من الناحية العملية التطبيقية. ومن ثم تحث الباحثين في المجال الفكري الحضاري على السعي معها في هذا المضمار، وترحب بكل عمل جاد يساعدها على تحقيق مبتغاها.

شروط النشر

- أن تكون المشاركة جديدة لم يسبق نشرها.
- أن تكون دراسة متصلة بمشروع الخدمة وفكر الأستاذ فتح الله كولن.
- أن تكون المشاركة إسهاما إيجابيا مثريا، تشكل إضافة نوعية في القراءة والنقد والتحليل وتتوافق مع المعايير العلمية المعروفة.
- ألا تقل عن ١٥٠٠ كلمة وألا تزيد على ٧٠٠٠ كلمة.
- أن يرسل الباحث ملخصا لمشاركته في حدود ٢٥٠ كلمة.
- تخضع المشاركات المعروضة للنشر لموافقة لجنة استشارية علمية، وللجنة العلمية أن تطلب من الباحث إجراء أي تعديل على المشاركة قبل إجازتها للنشر.
- هيئة التحرير تلتزم بإبلاغ أصحاب المشاركات بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ هيئة التحرير بحقها في نشر المشاركات وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- المشاركات التي تنشر في نسمات تعبر عن آراء كتابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- لـ"نسمات" حق إعادة نشر المشاركات منفصلة أو ضمن مجموعة من الأبحاث، بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أي لغة أخرى دون حاجة إلى استئذان صاحبها.
- نسمات لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرجى من الباحث أن يرفق مع المشاركة نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية مع صورة واضحة مناسبة للنشر.
- يرجى إرسال جميع المشاركات إلى العنوان الآتي: nesemat@yahoo.com

دار الانبعاث للنشر والتوزيع

التلال الزمردية.. يكشف الأسس الشرعية للفكر الصوفي السني، ويتناول أكثر التعبيرات تجاوزًا وغرابة للمرجعيات الصوفية في إطار يحافظ على بقائها داخل حدود الشريعة.

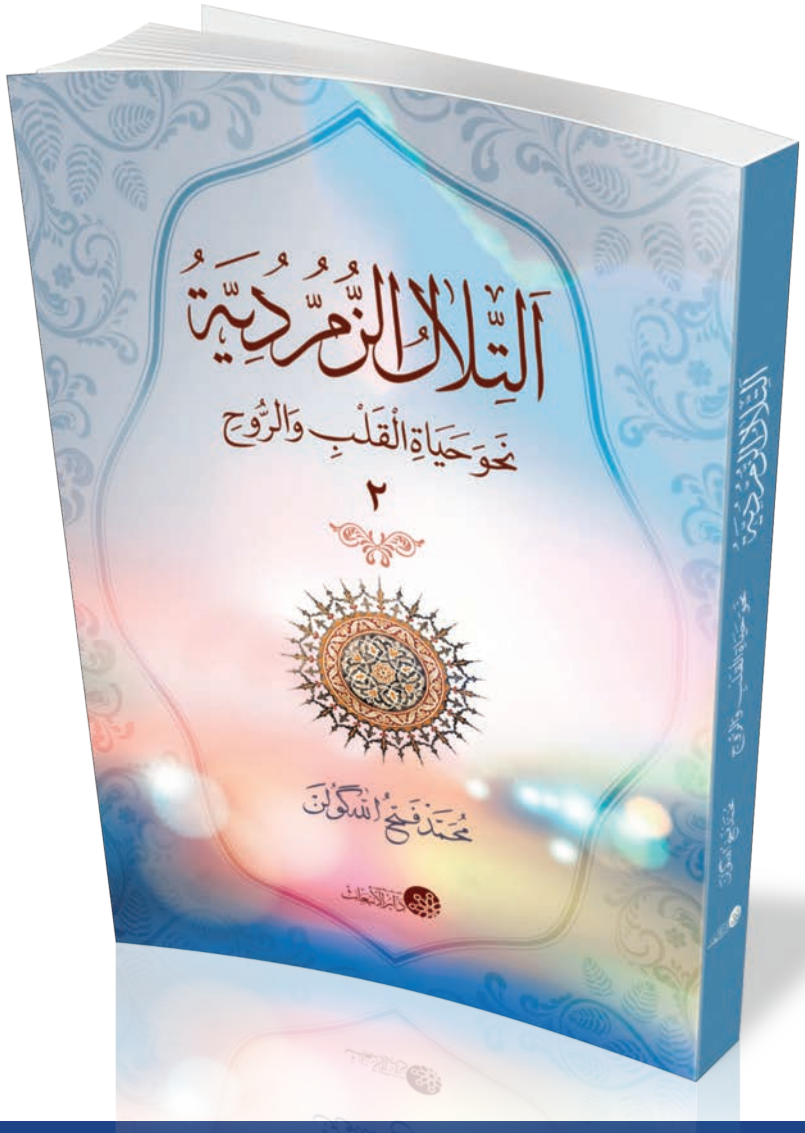

مركز التوزيع: دار الانبعاث | daralinbiath@gmail.com | 00201023201002
www.souq.com
مكتبة الشروق | Shorouk Bookstores | مكتبة فكرة ستي ستارز

2020 مارس 9

نسمات
nesemat.com
للدراسات الاجتماعية والحضارية

إن الفكر والحركية لدى كولن هما وجهان لعملة واحدة، إلى درجة قد يتهيأ للمتأمل في أن منهج الرجل يقوم على المبادرة أولاً ثم التنظير وفلسفة المبادرة ثانيًا.

إن قضية الحوار بالنسبة لكولن لا تقف عند حدود الحوار مع الذات، ولا عند حدود تأكيد البعد المتسامح المميز لمنظومة الأخلاق الإسلامية بل يتجاوزها إلى الفضاء الأرحب المتمثل في كوكب الأرض من خلال الدعوة إلى حوار عالمي.

إن التلال الزمردية يعيد صياغة التصوف ويحلله وينظمه ضمن مبادئ الإسلام السني لإبقائه في قلب التقاليد الإسلامية، ويمكن القول إن المصطلحات الصوفية فيه تخضع لتفسير جديد لأول مرة بهذا القدر.

دار الانبعاث للنشر والتوزيع

nesemat.com